

مذاهب ومختصات



حافظ إبراهيم

شاعر القومية العربية

بقلم: محمد هارون الجلو



منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

مذاهب وشخصيات

حافظ إبراهيم

شاعر القومية العربية

بقلم : محمد هارون الخازن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مبد .

إِذَا اللَّهُ أَحْيَا أُمَّةً لَنْ يَرُدَّهَا
إِلَى الْمَوْتِ فَهَارُهُ وَلَا مُتَجَبِّرُهُ

ما فظ

انصاف ..

ياحافظ الفصحى ، وحارص مجدها
وامسك من تجلت من البلغاء
مازلت تهتف بالقديم وفضله ..
حتى حميت أمسية القدماء
وغدا سيشكر الزمان ولم يزل
للدهر انصاف ، وحسن جزاء

أحمد شوقي

فنون الكتاب

- | | |
|-----------------------|----------------------|
| - كمال الدين حسين | - مبدأ |
| - زكى مبارك | - انصاف |
| - طه حسين | - لوحات |
| - المؤسسون الحقيقيون | - تقديم |
| - قوالب الشعر | - الشعلة المقدسة |
| - الشعر الجديد | - ينبوع الادب |
| - مدرسة الشعر المنثور | - أباريق الوطنية |
| - مهدى علام | - يوم العروبة |
| - حافظ والشعر الحديث | - صوت حافظ |
| - الموازين القسط | - القومية العربية |
| - الشعر التقليدى | - نبضات القومية |
| - حافظ والتجديد | - هذه العاطفة |
| - حافظ يفك قيود الشعر | - وهذه الوطنية |
| - الفطرة | - كرامة الفتیان |
| - الشعراء المتمردون | - الحياة مدرسة |
| - الوزن والقافية | - أن مع العسر يسرا |
| - المثل الاعلى للشعر | - غمار جديد |
| - الرافعى | - الشاعر فى السودان |
| - محمد هاشم عطية | - دروس وعبر |
| - الجرجاني | - فى دار الكتب |
| - قيود العروض | - دفاع |
| - تجربة | - حظ الشعراء |
| - الموشحات الأندلسية | - الشعر ورسالة الأدب |
| - الزجل واللهجات | - الرئيس جمال |

- دسوقي أباطه وطه حسين
- شوقي وحافظ
- حافظ نشأ شاعرا
- شوقي فى شعر حافظ
- اخوة الأدب واخوة العرب
- حاسد .. وعذول
- حديث الناس
- شنشنة العبيد
- الشاعر والزعيم
- مواكب ..
- عاصف يرتقى ..
- فرحة الله على أمة ..
- نظرات فى الديوان
- الى معشر الكتاب
- لهو كما شاء الصبا
- أبرىء عنه يعفو مذنب ؟
- هجعت يا طير
- فما انت فى مصر
- ذوق !
- ملامح من شخصية الشاعر
- عبرات ..
- ديوان حافظ
- دين الحرية •
- خير أمة

- رعاية المواهب
- المؤتمرات الأدبية
- شعر منشور
- وحدة القصيدة
- ركام من الشعر
- المثل الأعلى للشعر
- التطور فى الاندلس
- صيداج الوطنية
- شكسيين
- غيرة
- سبعم زغلول
- لطفى السيد
- جهاد المرأة
- فكتور هوغو
- مصر والعراق
- شعر لم يف بالقصد
- مزهر الوطنية
- حافظ ومطران
- مصر والشام
- حافظ والجلاء
- حافظ وأسرته محمد على
- حياد الذئب
- لوحة الفنان
- حافظ فى تقويم الباحثين
- المازنى وحماسة الشباب

فنيته

بريشة حافظ ابراهيم

إيه يا طير الآ من مسعد..؟

أيها الزهر أفق من سنية

واصطبج من خمرة لم تعصتر

من رحيق أمثله غادية

ساقها تحت الدجى روح السحر

وانفج الروض بنشر طيب

عله يوقظ سكان الشجر

إن لي شوقا الى ذى غنية

يونس النفس وقد نام السمر

إيه يا طير الآ من مسعد

ارنى قد شفتنى طول الشهر

قم وصفق واستحروا سبح ونح

واروعن اسحق ما ثور الخبر

ظهر الفجر وقد عودتنى

ان تغنينى اذا الفجر ظهر

حافظ ابراهيم

متى أرى الشرق..!

متى أرى الشرق أدناه وأبعده
عن مطمع الغرب فيه غير وسنان
تجري المودة في اعطافه طلقاً
كجربة المساء في أثناء أفنان
ان دام ما نحن فيه من مدايرة
وفتنه بين أجناس وأديان
رأيت رأيت لمعنى حين أزهقه
ما حل بالناس من بغى وعدوان
لا تظهر الأرض من رجس ومن درن
حتى يعاودها نوح بطوفان

حافظ أبى هيب

خَيْرُ الصَّنَائِعِ

خَيْرُ الصَّنَائِعِ فِي الْأَنْامِ صَنِيعَةُ
تَنْبِيهِ حَامِلَيْهَا عَنِ الْإِذْلَالِ،
وَإِذَا النُّوَالُ أَتَى وَلَمْ يَهْرَقْ لَهُ
مَاءُ الْوَجْهِ فَذَلِكَ خَيْرُ نُوَالٍ
مَنْ جَادَ مِنْ بَعْدِ السُّؤَالِ فَابْتِ
. وَهُوَ الْجَوَادُ . يَعِدُّ فِي الْبُحَالِ
إِنِّي أَرَى فَقَرَاءَكُمْ فِي حَاجَةٍ
لَوْ تَعْلَمُونَ لِقَائِي فَقَالَ
وَالْمُحْسِنُونَ لَهُمْ عَلَى إِحْسَانِهِمْ
يَوْمَ الْإِثَابَةِ عَشْرَةُ الْأَمْثَالِ
وَهَذَا رِبِّ الْمُحْسِنِينَ نَجِيلٌ عَنْ
عَدُّ وَعَنْ وَزْنٍ ، وَعَنْ مِكْيَالٍ

حافظ

تغيرت الدنيا

تغيرت الدنيا وقد كان أهلها

يرون متون العيس ألين مضجع

وكان يريد العلم عيرا، وأيقنا

متى يُغيها الالبجاف في البید تطلع

فأصبح لا يرضى النجار مطية

ولا السلك في تياره المتدفع

وقد كان كل الأمر تصويب نبلة .

فأصبح بعض الأمر تصويب مدفع

لدى كل شعب في الحوادث عدة

وعدتنا ندب التراث المضجع

فيا ضيعة الأعلام ان لم نقيم بها

وعامة ركن المشرق المترعرع

حافظ

عزيز علينا..

عزيز علينا يا بني الشرق أن ترى
كواكبه في أفقه غير طلع
وأعلامه من فوقه غير تحقق
وأعلامه من تحتها غير شرع
فإن كنت قوالا كريما مقالا
فقل في سبيل النيل والشرق أودع

حافظ

أَيُّهَا الرَّاغِبُونَ فِي حَلِّ الْوَشْيِ..

أَيُّهَا الرَّاغِبُونَ فِي حَلِّ الْوَشْيِ

يَجْرُونَ لِلذَّيُولِ افْتِحَارًا

أَنْ فَوْقَ الْعَرَاءِ قَوْمًا جِيَاءًا

يَتَوَارُونَ ذَلَّةً وَانْكَسَارًا

قَدْ شَهِدْنَا بِالْأَمْسِ فِي مِصْرٍ عَرَسًا

مَلَأَ الْعَيْنَ وَالْفُؤَادَ ابْتِهَارًا

سَالٌ فِيهِ النَّضَارُ حَتَّى حَبْنَا

أَنْ ذَاكَ الْفَتَاءُ يَجْرِي نَضَارًا

يَا تَفِيهِ الْمُنْتَمُونَ بِبَلِيلٍ

أَنْجَلُ بِصَبْحٍ حَسَنٍ فَتَوَارِي

يَكْتَسُونَ السَّرُورَ طَوْرًا وَطَوْرًا

فِي يَدِ الْكَأْسِ يَخْلَعُونَ الْوَقَارَ

حَافِظُ ابْنِ هَيْمٍ

مَنْ لِي بِحَظِّ النَّائِمِينَ..

أَحْيَاؤُنَا لَا يَرْزُقُون بِدَرَاهِمٍ

وَبِأَلْفِ أَلْفٍ تَرْزُقُ الْأَمْوَاتُ

مَنْ لِي بِحَظِّ النَّائِمِينَ بِحُفْرَةٍ

قَامَتْ عَلَى أَجَارِهَا الصَّلَاةُ

يَسْعَى الْأَنَامُ لَهَا وَبِجَرْمِ حَوْلِهَا

بِحَرِّ الْمَنذُورِ، وَتَقْرَأُ الْآيَاتُ

وَيَقَالُ: هَذَا الْقُطْبُ بَابُ الْمَصْطَفَى

وَوَسِيلَةُ تَقْضَى بِهِ الْحَاجَاتُ!

حافظ

سلامة الأذواق

ما البائِثُ في صفاء مزاجها
والشرب بين تنافس وسباق
يألذ من خلق كريم طاهر
قدما زجته سلامة الأذواق
فإذا رزقت خليفة محمودة
فقد اصطفاك مقسم الأرزاق

حافظ

عمامة!

لا تحسب أن العالم يتفجع وحده
ما لم يتوَّج رتبة خلاق
كم عالم مدّ العلوم حبالاً
لوقيعة وقطيعية وفراق
وفقيه قوم ظلّ يرصد فقهه
لمكيدة أو مستحلّ طلاق
يمشي وقد نصبت عليه عمامة
كالبرج لكن فوق تلّ نفاق

حافظ

دعوة الى التجديد..

ملأنا طباق الأرض وجدًا ولوعةً

بهندٍ، ودعد، والرياب وبوزع

وملت بنات الشعر منا مواقفًا

يسقط اللوى والرقمتين ولعلع

واقوامنا في الشرق قد طال نومهم

وما كان نوم الشعر بالمستوقع

حافظ ابراهيم

وأديب قوم..

واديب قوم تستحق يمينه
قطع الأنازل أو نظى الأبراق
يلهو ويلعب بالعقول ببيان
فكأنه في السحر رقية راق
في كفه قلم يمجج لعابه
سما وينفشه على الأوراق
يرد الحقائق وهي بيض نصع
قدسية علوية الإشراف
فيردها سودا على جنباتها
من ظلمة التمويه ألف نطاق
لو كان ذا خلق لأسعد قومه
ببيانه ويراعه السباق

وفي الشعر ما يغني ..

أفنى الشعر حث الطامعين إلى العلا

وفي الشعر زهد الناسك المتورع

أوفي الشعر ما يغني عن السيف وقعه

كما روع الأعداؤ بيتاً لأشجع

أوفي الشعر إحياء النفوس وريها

وأنت لرى النفس أعذب منيع

حافظ

من لي بتربية النساء..

من لي بتربية النساء فإنها
في الشرق علّة ذلك الاخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعباً طيب الأعراق
أنا لا أقول دعوا النساء سوا فرا
بين الرجال يجلن في الأسواق
يفعلن أفعال الرجال لو اهياً
عن واجبات نواعس الأحراق
في دورهن شئونهن كثيرة
كشئون ربّ السيف والمزراق
... كلا ولا أدعوكم أن تسرفوا
في التجنب والتضييق والارهاق
ليست نساؤكم حُلّى وجواهرأ
خوف الضياع تصان في الاحقاق
فتمسكوا في الحالتين وأنصفوا
قال شرّ في التقيد والإطلاق
ربوا البنات على الفضيلة انها
في الموقفين لهم خير وثاق

حافظ

تقديم

حين انتهجت عن شاعر القومية العربية ، لا نجد بدا من مصاحبتة
والسير معه في درو بالحياة الادبية ، فالحديث ذو شجون .

كما لا نجد بدا من الانصراف عنه بين آونه وأخرى لمناقشة رأى من
الآراء أو تناول مذهب من المذاهب فيما يتصل بفنه وأدبه .

وفي حياة حافظ ما يغنى عن القول فيما نعرفه عن وفائه لمجتمعه
وتنكر هذا المجتمع له .

وهذا الذى نسوقه عن حافظ انما هو باقة من باقات التكريم نماير
بها قمة من شوامخ القيم الانسانية التى ارتبط وجدانها بوجدان الامة
العربية .

واضطراب حافظ فى مجتمعه الذى ارتبط به ، وتنفس فيه ، ومنحه
كل مواهبه وأصفاه بما حباه الله من ذوق رفيع وفن أصيل . هو ذلك
المنهج الذى نحتفل له اليوم فى مذاهب الادب الجاد ، الذى تنادى به
« الميثاق » .

فهو الشاعر الذى عاش حياته يسجل أحداث وطنه فى دور ايجابى
بناء لم يتوان لحظة عن مشايعته والذود عنه بكل ما آتاه الله من قوة .

ولعلنا ونحن نجنى ثمرات النضال، ونفتح قلوبنا على الحقائق الذهبية
التى كانت أحلام الزمان على عهد حافظ نذكر له أنه رسم لوطنه
سياسة المستقبل على مدى ربع قرن من الزمان .

لقد كان خيال الشاعر كقلبه أوسع من أن يحيط بما حوله من أحداث وطنه .
فقد انسرح خياله ، وانفسح قلبه الى آمال الامة العربية كلها ، يذود
عنها ويرود حلبات نضالها ، ويستفتح لها مواكب النصر ، ورحبات
الخلود

فاستحق بذلك ان يكون شاعر القومية العربية على مدى الزمان .

محمد هارون الماوي

الشعلة المقدسة

أى معنى شريف يمكن أن يساوق الفكرة التى اصطلح عليها الادباء
الابناء فى تحليل النبوغ ؟

هل هو من عمل الانسان وكسبه ، أم انه هبة يلقاها الانسان ،
ويدرج بها فى حياته ؟

أحسب أن السنن الكونية توحى فيما نطالع من حياتنا ، أن
يد الخالق سبحانه تتفضل بهذه المنح الكريمة على الانسان لتربط بها
بين الخالق والمخلوق ، بالتأمل والتدبر فى حكمة التنويع فى الخلق ، والتلوين
فى الملكات . والوقوف على آيات الله فى الاعجاز ، والابداع ، وتبيان تلك
الأنواح التى خط فيها القدر بدائعه وأفانيه للنفوس والأرواح .

ولا أرى فى معرض الحديث عن شاعرنا ، « حافظ إبراهيم »
أن نسرف فى تناول النظريات الحديثة ، والآراء المتصلة بتعليل العبقريّة
والنبوغ فإن الحديث عن الادب عامة ، والشعر خاصة ، ينبغى أن يكون
سائفا سهل المتناول ليتسق مع ما يبتدعه الادب من أفانين ، وما يتركه
من أثر فى تربية الوجدان ، وصقل الشاعر ، وامتاع الدوق .

وحسب الشعر العربى صفاء انه يصادق القلب ، ويوائم الفطرة
فيأتى الجيد منه بالحكمة الرائعة ، والمثل الشرود .

وعمل الشاعر ، هو التحليق ، والسهم ، ثم الفيض بالرائق
للخلاب . فالشاعر هو الفنان الموهوب ، هو المبتدع الخلاق . .

والشعر هو ذلك النغم الاقدس الذى يوقعه الشاعر على قيثارته ،
فتطرب له الشاعر ، وتحس بنبض الحياة وخفقها ، ومضات الحسن
والاشراق فى لآلئ سحرها ، فتتهز له القلوب وتهيم فى نشوة الأحلام ،

والعمل الفنى الخالد ، هو تلك الأنشودة العذبة التى يقف أمامها
القلب فى ظمأ والتياح سهمان حيران .

هو حديقة الزهر النضر تبسم فتخشع العيون لجمالها ،
ويأخذها الإعجاب ، ويرق الجمال ، ويدق الحسن ، فتسجد القلوب
للصانع البديع فى صوغه لهذا النسق العالى من ملامح الحسن
والانسجام .

هو السحر الذى أشار اليه القسراّن الكريم فيما حكاه عن رب
العالمين ، على لسان الذواقه ، من دهاقين الادب ، ولهاميم البيان ،
حين أخذتهم روعة البيان فى اعجاز القرآن فلم يصدعوا للحق اذ جاءهم
على لسان الرسول الكريم ، فقالوا : ساحر ، ووصفوا ما آتاه الله من

حكمة ، وما أصفاه به من هدى ، وهم يخادعون أنفسهم ، يلججون بالباطل ، ويومنون الى الشعر فيقولون « ان هذا الا سحر يؤثر »

ينبوع الادب

وملكة الاديب ، من أرفع المنح السماوية التي اختص الله سبحانه بها من أراد له الكرامة والتشريف من الجنس البشرى

وهى احدى القوى التى زودت بها الطبيعة الحياة الادبية والفنية ما تستعليان به وتنهضان الى المستوى المرموق .

وعندما تصبح تلك الملكة الفطرية قوة فكرية ، بالتدريب ، والمران على معالجة شتى الموضوعات تصبح أقوى عامل ، وادق ميزان لدفع حياة الشعوب والأمم الى الامام .

وينبوع الأدب يدفق بخوالج النفوس ، ويفيض بمشاعر القلوب ، يدفق بما يوائم الأحاسيس العامة والفطر المستقيمة ، ويفيض بكل ما يستعلى بالانسانية ويرقى بها . وذلك اذا سار في الطريق الطبيعى له بدون عوج ، أو انحراف .

وقد يكون من تأويل قول الله سبحانه ، فى كتابه الكريم ، أو تطبيق ما ترمى اليه الآية الشريفة « وما يعلم جنود ربك الا هو » ، على تلك الطاقات الادبية والمواهب اللامعة ، وهى تهيب الاذهان ، وتدفع المجموعات الى النهوض والعمل والسعى ، بل والى الثورة وهدم اركان الزيف والضلالات .

وحكمة المختار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، نزلت فى روح الأدب الرفيع الذى يهز النفس ، ويحفز الى العمل ، ويدعو الى المثل العليا .

فكيف اذن نعطل هذه القوى الهائلة ، ولا نفيد من اشعاعاتها ، وما ذخريته من قوى عارمة ؟

أيمكن أن نحد من انبثاق هذا الشعاع ذلك الذى يشرق ويتألق ، ويشق طريقه فى هداية الحياة ، وتوجيهها ؟

كيف نفرض على الاديب الا يعالج نوعا ما من أفانين الحياة الى حيث يتجه وجهة ترسم له حدودها ، وتحدد له اقطارها ؟

والاديب خير جندي مسلح يفتح الفتوح على أسلوب لا يعدله فيه جيش ولا سلطان .

وزكاة الخالق على الاديب تفرض عليه أن يشارك بنى جنسه ووطنه فيما يعتمل حياتهم فهو جندي وطنه ، وسلاحه ، وذخيرته ، بل وسلطانه ، وصولجانه .

ولم يشهد التاريخ فتحاً مبيناً كما شهد فتوحات الأدباء
وانتصاراتهم ..

يقول الدكتور طه حسين في حديث له عن الأدب والقومية
العربية ، ذلك الحديث الذي أدلى به عام ١٩٥٧ ، في مؤتمر أدباء العروبة
« الشيء الذي أستطيع أن أؤكد . . . وأنا مطمئن إلى أنني
لا أتجاوز الحق هو أن كل هذه الأحداث - مشيراً إلى أحداث الشرق
وبعث القومية العربية - إنما أنشأتها الثقافة ، وأنشأها الأدب ،
والمؤسسون الحقيقيون لكل هذه الثورات إنما هم الأدباء ، والكتاب ،
والشعراء .
ولا شيء غير هؤلاء »

أبائى الوطنىة

وحين نحاول أن نجلى للقارئ الكريم صفحة مشرقة من تلك
الشفعة المقدسة التى اختصر القدر بها شاعرنا « حافظ » ليكون مركزاً
لإشعاعها تنبثق عنه تلك الطاقات المضيئة الهادية . حين نتحدث عن
شاعر الحرية هذا ، لانجد بداً من الوقوف معه فى الدروب الوعرة التى
سلكها فى حياته ، لنرى مع الرائيين كيف نبع هذا ينبوع ، وتفجر
بسلسال من البيان العذب الرائق ، وكيف كان الندمان يلتقون على
أباريق الوطنية ، ينسمون من رياها ما يلذ لهم ويطيب ، ثم ينفضون وقد
برقت أساريرهم عن فكرة جديدة أو خطرة نابضة ، فاذا بين يدي
القارئ العربى كتاب « جديد » يحدثنا عن شاعرنا المختار .

يوم العروبة

يجتمع ندامى الأدب على شئون ، وشجون ، يجتمعون على يوم
من أيام الشرق الحافلة بأمجاده ، ويتذكرون أيام العرب الحالدة .
ويربطون ذلك بيوم العروبة الجديد وما سجله تاريخنا عنهم من صفحات
مشرقات . ذلك هو يوم القناة .

وقد استخلصت مصر حقوقها كاملة من المغتصب ، مضحية
مفتدية ما وسعتها التضحية والفداء .

صوت حافظ

ويتردد على أسماعهم فى ذلك اليوم هتاف « حبيب » من الشرق
أنه أذان الحرية نداء من السماء . فيتذكرون مزموراً من مزامير الكنانة

وقيثارا من قيثر الوطنية قطع عمره يعزف بنشيده الخالد ، ويرجعه ،
ويدق بصداه على القلوب والمشاير يستثير الحمية ، ويستنهض
الهمة ، ويهيب بقومه ، حتى اذا ما استنفد سنى حياته ، كان قد وعى
عنه التاريخ ماوعى .

تذاكر الندمان ، هذه الأوتار المشجية ، واستعادوا ذلك النداء
الصااح فاصاخوا الى اللحن ، وأرهفوا الى الصدى .

القومية العربية

وحين أشر الى ما فطنت اليه الامة العربية من التفات الى هذه الثروة
الضخمة من التراث الأدبي ، الذى يمكن الانتفاع به فى رسم مستقبل
أمة مجيدة ، وتخطيط هذا المستقبل مما يصلح من هذا التراث ، بل
واضاعة الطريق أمام المذخور من هذه الكنوز فى قرائح المفكرين ، ورجالات
الأدب ، واثارة خواطرمهم لاضاعة المشاعل أمام الجيل الجديد والامة
العربية ، وهى تنشط فى تكتيل قواها متحدة نحو عدوها ، لاشك واجدة
نفسها أحوج ما تكون الى الافادة من تلك القوى الروحية التى
مستطيع بها أن تواجه احتياجات الشعب وتربيته وتلفته الى الغاية
وتقطع الطريق على أساليب المستعمر وختاله ، وحماية الشعب من
سمومه ، وآثامه التى ينفثها فى جميع الميادين ، وبوسائله المختلفة فى
شتى صورها ، ومنها شراء الأقلام ، أو محاولة ذلك ، لتفل من سلاح
النصر ، وتعوق التقدم فى الزحف .

آمنت طوائف الشعب العربى ، وحكوماته الوطنية بالرابطة
الجامعة التى تبعثهم على غاية واحدة واذا وجدوا أن هذه القومية هى
المارد الجبار الذى يرتعد من رهبته العدو الفاشم هبوا جميعا لارساء
الدعائم ، واستكمال أسباب السيادة ، والعزة لهذه القومية الجامعة .

نبضات القومية في شعر حافظ

وإذا كان شاعرنا قد عاش عمره يتفنى بأمجاد هذه القومية ، بل
ويسرف في إثارة المشاعر والاحاسيس لاعزازها، فانه وبعد أن استأثر به
الله سبحانه الى جواره ، وعلى ربع قرن من الزمان بعد وفاته يقف معنا
وقفاته الرائعة في غمار الهول ، ووقدة البأس ، يسقى المستعمر
بأناشيده المجلجلة ، وحماسه المتدفق . كأس الخسران مترعا .

أجل ، وقف حافظ بيتنا في محنة القنال يستصرخ شعبه ،
وعروبتة بقوة روحية خارقة لا تعدلها قوة الجيوش الكرامة ذات
المراس الشديد .

كان صوت حافظ يصون الجبهة الداخلية للقومية العربية ، ويشد
على كل متخاذل رعديد ، وما في الأمة العربية الوقية متخلف ، كانت
العروبة تتكتل للنصر ، وتوازر مصر في محنتها . وأذان حافظ ابراهيم
يدوى في سمع العروبة :

أنا أن قدر الاله مماتى لاخرى الشرق يرفع الرأس بعدى.

ويثب الشعب يظهر الجيش ، وتقف المرأة الى جانب الرجل ،
وتنشط وسائل التدمير والتخريب لانزال الخسائر بجيش الطغيان ،
وتدمر خطوطه ووسائله . فيهتف النشيد بصوت الفخر :

أنا تاج العلاء في مفرق الشر ق ودراته فرائد عقدي
مارماني رام ، وراح سليمنا من قديم ، عناية الله جندي.

ويهتز هذا الصوت الاطهر بالحجة الدامغة يخاطب الضمير العالمي
في الأمم المتحدة ، حيث يجتمع أعضاؤها ثم ينفضون حول النظر في ذلك
العدوان الغاشم فيخاطبهم حافظ بمنطق قاضح للظلم . والعدوان :

أمن العدل انهم يردون الما ء صسفوا وأن يكدر وردى
أمن الحق أنهم يطلقون الاسد منهم ، وأن تقيد أسدي.

ثم يثبت قلوب المفتدين بهتافه :

نظروا الله لى فأرشد أبنا لى فشدوا الى العلا أى شدد
انما الحق قوة من قوى الد يان أمضى من كل أبيض هندي.

ثم يحيى أبطال الجهاد في روعة البيان العربي :

قد وعدت العلا بكل ابي من رجالي ، فأنجزوا اليوم وعدى

عاش معنا حافظ ، وأخذ مكانه من جيش التحرير ، ومضى مع
الاولياء يقرع البجعة بالحجة وأخذت العروبة تتراص أمام العدو ، في
زحف باسل ، وهل هناك أروع من الهزج المشبوب بالحماس الواغل
في التحدى يفرع اشياخ هؤلاء المعتدين ، ويروع قلب الغاشم المستبد :

وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبني قواعد المجد وحيدى
وبناة الاهرام في سالف الدهر كفوني الكلام عند التحدي

بهذه الشعلة المقدسة جاء حافظ ابراهيم ، منحة سماوية ،
خص الله بها قلب العروبة ، ذخيرة حية ، وسلاحا مرهوبا ، وفرق
كبير بين سلاح وسلاح ، فسلاح الميدان يعمل عمله في المعارك وقد
يذهب بددا ، أما هذا السلاح ، سلاح التعبئة الروحية .. سلاح الشاعر
فهو قوة رهيبية تخترق الحصار ، وتنفذ الى الصميم ، وتخلد على
مدى الزمان .

كذلك كان حافظ سلاحا بارقا يعمل عمله ، والمستعمر جاثم في
أرباض الوطن على عهد الاحتلال ، كالنار المبثوثة في الرماد . وفي الجد
يزار زئير الليث الباطش ، ويهدر هدير الأعصار المدمر .

فقد كان إذان حافظ على الشباب المصري دعاء يحدو قلوبهم ونداء
يقرع سمعهم ، وهو يخاطبهم ويلامح للفاصل بأن مصر يقظه ، ولن تؤخذ
عن غرة بقوله :

مضى زمن التنويم يامصر ، وانقضى
قفي مصر أيقاظ على النيل تسهر

ويصل الى قمة الاعجاز والابداع حين يصدع العدو بهذه الصيحة

إذا الله أحيانا لن يردها
الى الموت قهار ولا متجبر

ثم يتلفت على الشبيبة المنخورة لجلال الاعمال :

رجال الفسد المأمول انا بحاجة
الى قادة تبني وشعب يعبر

رجال الفسد المأمول انا بحاجة
الى حكمة تملئ وكف تخننر

رجال الفسد المأمول انا بحاجة
اليكم فسددوا النقص فينا وشمروا

رجال الغد المأمول ان بلادكم
تناشئكم بالله ان تتذكروا

عليكم حقوق للبلاد ، أجلها
تعهد روض العلم ، فالروض مقفر

قصارى منى اوطانکم ان تری لکم

يدا تبتنی مجدا . ورأسما یفکر

فكونوا رجالا عاملين أعزة

وصونوا حمى اوطانكم تحرروا

ثم يلهم الحكمة الفاصلة في قوله :

فَمَا ضَاعَ حَقُّ لِمَ يَنْمُ عَنْهُ أَهْلُهُ

ولا ناله في العالمين مقصود

العرق دساس . . .

كان حافظ صادق النظر فى تصويـره لأحوال الشعوب ، وما تلاقيه من نكال على أيدي الطغاة من حكامها . كان يحس بأن دخيلة الشعوب العربية والإسلامية وهواها فى التضام وكان يدرك أن الحكام غير الوطنيين من عملاء المستعمرين ينزعون لصوالحهم الشخصية وأطماعهم وكانت الدائرة تدور على هؤلاء الخونة ، وتنجو قضايا الشعوب

وذلك كان حال الترك :

وأدال من عبد الحميد لشعبه
فهوى ، وحاول أن يعود فأخفقا .

أمسى يبالى حارسا من جنده
ولقد يكون ، وما يبالى الفيلقا

فأعجب معى لفراصة هذا الشاعر الوطنى ، وتسجيله لأحداث التاريخ الكبرى ، واستعد معى ذكريات الشعوب ، ومواقف حكامها المتسلطين . والتاريخ يعيد نفسه .

فهاك موقف حكام الترك منا فى مطلع القرن العشرين ، وبالتحديد قبل خمسين عاما من تأميم القنال ذاك هو موقف « عبد الحميد » سلطان الترك من القنال فى قول الشاعر :

حصدت مناجله غراس رجائنا
ولو أنها أبقت عليه لأورقا

وأنى يساوم فى القناة خديعة
ولوانها تمت لثم بها الشقا

حقا أن العرق دساس - وصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وطالما بكى صاحبنا (حافظ) فى التياح وحسرة لمصاب يلم بشقيقة عربية .

أى نار تلك التى تؤج فى صدر الشاعر هذا الباكي الثاكل ، وهو يزفر حسرة والما ويخاطب دولة الظليان حين أفاقت على طرابلس
عام ١٩١٢ ١٢

كبلوهمهم ، قتلوههمهم ، مثلوا
بدوات الخسدر طاحوا باليتامى

فماذا بالله أبقوا؟! وإى اسراف فى العدوان والتشفى فى الانتقام
وعلام هذا الظلم أياها القرب؟!

كشفوا عن نية القرب لنا
وجلوا عن أفق الشرق الظلاما
نقسرائها سطورا من دم
أقسمت لتتهم الشرق التهاما

ويصور القسوة الوحشية والعنف وهو يقارن ، بين قذائف
البركان من قذائف البطش والظلم :

لم يكن فيزوف أدهى حمما
من كرات تنفث الموت الزؤاما
أيه يا فيزوف نم عنهم فقسد
نفضت أفريقيا عنها المناما

ويخاطب الوحدة بقوله :

يا قوم أنجيل عيسى وأمة القبرآن
لا تقتلوا الدهر حقدا فالملك للديسان

يمثل هذا النغم المستعذب ، وفى مثل هذه الروحية المنسرحة من
وفاء وإيمان ، كان يضرم الشاعر النار فى الهشيم ، ولا تغمض له عين
إلا إذا بكى ، واستبكى ، وأثار ، واستثار ، ونهض ، واستنهض وبذر
فى الشرق بذور التحرير . ومضى يسقى شجرة الحرية ، ودوحة القومية
فقد هدته حاسته الصادقة ، وفطرته السليمة وعرويته الصريحة ،
وفراسته بأن القومية العربية هى حصن الأمان . والمسارد الجبار الذى
يرتعد له المستعمر .

أبى حافظ أن ينام وادعا فى قبره ، والعروبة فى محنتها تغالب
الشر وتجاهد الشره . فمضت روحه تنشد أناشيد الحرية ، فتستاق
الجموع الزاخرة من الشعب الأبى الى ساحات البطولة ، والفداء .

هذه العاطفة

مضى حافظ يرسم لنا في شعره معالم الطريق ، ويستن للعروبة
خير السنن ، فعاطفته المشبوبة ، صادقة الحس ، أمينة التعبير ، وذوقه
من الدقة ، بحيث يلتقى مع الفطر الصحيحة من نفوس قرائه ومواطنيه ،
ياخذهم العجب ببراعته ، والتقدير لفنه والتحليق بمذهبه ، انها عاطفة
الوطنية التي صهرتها الأحداث وحكتها التجارب ، وأعتورتها السنون
ولقد كان شاعرنا ينفس عن نفسه بروح الدعابة والفكاهة في
مجالسه وسمره بين ندمائه فإذا ماتحمس لتسجيل حادثة اهتزت لها
جوانب نفسه ، جاء بالسحر الحلال من القول ، وبالمثل الشرود من
المعاني ، ونفض عن نفسه تلك السخرية اللاذعة التي نجث الجذ الصراح

أن عروبتة الخالصة ، ومصريته الصريحة ، وقسوميته العتيدة لم
تكن جميعا لتدع له في مجال الجذ بقية من عبث أو لهو ، ومن هنا كان
حافظ شاعر الوطنية في عصره ، غير مدافع ، وكانت عاطفته طاغية بتلك
الترنيمات الخالدة .

لقد كان يدافع عن وطنه وعن عروبتة ، بالقدر الذي كان يسمح
له بالحجاج والقراع ، وحسبه وقد أسرف في كل ذلك ، أن يتوج تاريخ
مصر بهذه اللمحات الصادقة التي تبهر العالم ، حيث يتطلع الى شاعر
مصر ، وهو يكتب الأحداث الكبرى ، ويوقع بمزهره أنغام شعبه وهي
حبسية في صدر أمته ، خشية بطش المستعمر ، وجبروته .

أجل لقد سجل حافظ كل ذلك في شعره ، وهو ينطوي على روح
من روح الزعامات الموجهة فلم يكن يبكي ويستبكي فحسب ، وانما كان
يرسم ويخطط ، ويدفع ويناشد ، ويلاحى ، ويحاجي .

... (يريد منا أن نتبوا مقعدنا بين الأمم ، وأن نرفع عنا نير الاحتلال ،
وأن يتعادل الشرق والغرب وأن تكون حياتنا الاجتماعية خيرا مما هي ،
فلا تواكل ، ولا استنامة ولا خنوع ، ونحو ذلك من وجوه الاصلاح) .

كما يشير الاستاذ أحمد أمين . فيما سجله عن حافظ في مقدمة
ديوانه .

وهذه الوطنية ..

أما وطنية حافظ ، فلا يكفي أن نلم بها فيما المعنا من حديث عن جانب من عاطفته ، فان وطنية حافظ مدرسة ، لا ، بل شعلة متقدة ، وكان لهب هذه الشعلة ينبثق أخيرا من عصره الذي كان يعيش فيه ،

أما فطرته ، فانه نزع بقوميته بوجه عام ، وبمصريته بوجه خاص الى حب هذا الوطن فقد شب في أحضانها ، وترعرع في ضفافه ، واكتسب مقومات المواطن الصالح : انه مصرى تعلق في شعاب الوادي ، وعبر شطريه مصره وسودانه ، والتقى بآماله وآلامه ، حفظ أغانيه ، وترنح بأشجانه ، واستظل بصفائه ، وسمائه .

فصادفت فطرته الإسلامية وعروبتة العربية بمسا فيهما من مناقب وأمجاد ، هذا الغذاء الموائم لمثل هذه الفطرة العليا .

واذا كان والده « إبراهيم أفندي » مهندسا يخطط السبل العامة ، ويشيد المعابر ، والقناطر . ويهدى طريق النيل في أنسياب خلجانها بمصر العليا فقد جاء حافظ صورة من والده ، يخطط ويمهد ، ويرسم ولكن فارقا واضحا وبونا شاسعا بين الوالد والولد .

فقد كان حافظ يخطط أهداف امة ، ويرسم غايات شعب ، ويمهد طريقا الى حضارة وعزة واذا كان أبوه مصريا صريح الأرومة في مصريته ، فكذلك كان ابنه « حافظا » بعيدا في استمساكه بهذه الأصرة المقدسة . فقد كان وفاء لمصر وللعروبة مذهباً ، نلقبه نحن بالوطنية وهي التطرف في الوفاء والاغراق في السخاء . فلم ينزع اليه من العرق التركي عن أمه ما يشوب النوازع العليا من مصريته . فقد كانت أمه تركية ، وكان جده لامه آنذاك (أمين الصرة في الحج) ولعل « أميرالحج » هذا على عصره كان مصدر الاشعاع الديني في حياة الشاعر إذ أن حنين الشاعر الى صحبة الاخيار من رجال الدين وقادة النهضة العربية ما كان ليحىء آلا من بيت له بذلك اللواء المضيء ومضات وتلماح .

ولعل ما جاء في شعر حافظ مما ترنح به من صبوات نحو الترك ، إنما كان تمجيذا لشأو الإسلام . الذي كان يتمثل في الخلافة الإسلامية . وهي قائمة في بيت السلاطين !

ولي أمر الولد بعد وفاة والده خاله ، وانتقل الطفل من ديروط في الصعيد - حيث ولد - الى القاهرة . حيث يقيم راعيه الجديد الذي دفع به الى مدارس تشابه مدارس « محو الأمية » على عهدنا وهي المرحلة الابتدائية ، فتدخل المدرسة الخيرية بالقلعة ، ثم القريبة ، ثم المبتديان .

وختم طوافه بالسفر لاقليم آخر حيث ضرورَ العيش فأقام مع خاله
(بطنطا) أى أنه انتقل من الصعيد الى القاهرة ثم الى قلب الدلتا . .

وكانت يد القدر الحانية فى انتظار هذا الموهوب ، لتتولى اخراجه
على النهج المحدد له . لقد بدأ يستقى من روح الله . من نبع الدين ،
من أصل الهداية ، .

أخذت الملكة تنمو فى ظل التوجيه الراشد ، والهدى الصحيح ،
كان يقرأ القرآن ويقيم الصلاة ويصوم رمضان وتلك سمات الشباب
المستقيم ، وكان من صحابته أمثال الشيخ عبد الوهاب النجار ، وكان
النبع الذى يستقى منه هو وخلصانه (المعهد الأحمدي) . فصحبته
لأخوانه طلبة ذلك المعهد ، وهم يجتمعون معا فى صلاة ، وصيام ، تضيء
جوانب نفسه .

من هنا نشأ حافظ ، وجاء غراس ذلك الدوح السامق ، من
هذه الجبل الطاهرة ، والصحبة المختارة ، والطريق الواضحة بدأت
وطنية حافظ .

عبد الوهاب النجار

يحدثنا الشيخ عبد الوهاب النجار عن حافظ بقوله :

« لقد أحسست من نفسى ميلا إليه ، بجاذب من الأدب الذى كان
نهمة نفسى حتى آل ذلك الى غرام بأدبه ، وما يشتمل عليه من ظرف
ولطف محاضرة ، وطبيعة مطاوعة ، وسرعة خاطر ، وحضور نادرة »
احساس كريم ، وميل فطرى الى موهبة نامية ، وشعلة مقدسة ،
أضأت جوانب هذه النفس الحرة . فلم تخف على الخلان والعشراء .

وفى سن السادسة عشرة تتألق هذه الطاقة بمثل ما أشار اليه
هذا العالم الكبير فى مذكراته « غرام بأدبه وما اشتمل عليه ، طبيعة
مطاوعة ، وظرف ولطف » .

بهذا كان يعد القدر حافظا ليشارك فى بناء أمة واذا يعود الشيخ
الجليل فيسرف فى التعبير عن ذكرياته مع الشاعر بقوله :

« وقد قضينا رمضان هذه السنة نصلى المغرب والعشاء ،
والتراويح معا ، ثم لا نلبث فى سمر ممتع ومطارحة للشعر ، ومذاكرة
لنوادير الأدب ، وما كان يطرئنى به مما يقف عليه من جيد القريض الى
أن يأتى وقت السحور . . الخ »

دأب فى عبادة ، ومذاكرة فيما يفتق الذهن ويصقل الموهبة ،
ومطارحة فيما تبدع الخاطرة وتجيد وسائل التربية ، والخلق والابتداع
بل والتهديب ، مما هدته اليه العناية . ليقطع الطريق الى حياة عليا ،
تبرز فيها مكتنزات الملكة بفن وضىء ، لملاح .

ثم يدخل الشاعر دربا جديدا من دروب الحياة ، ليزداد فيه
صقلا ، ويتزود خبرة وتجربة بقنونها ، وشئونها . فسوف يكون له
اللواء المعقود فى التحدث باسم أمة ، والشكاة عن آلامها ، والتغنى بأمانيتها .

كرامة المفتيان

وحين تفتق الموهبة ، ويلمح بصيص النور من شعاب روحه ،
وتستيقظ حاسة الكرامة فيه . يدرج الى سن الشباب ، ويرى ما
هو فيه من فقر ويتم ، وما يلحظه من ملل فى نظرات القيسم عليه ،
لا يتردد فى أن يترك حياة المذلة . كما تراءت له فيفارق هذا البيت ،
ويترك لخاله تحية رقيقة يعتب فيها عليه ، ويودعه بأسلوبه الساخر :

ثقلت عليك مؤونتي انى أراها واهية
فأفرح فانى ذاهب متوجه فى داهية

هى العقدة التى يقررها اليوم علماء النفس . والتى لازمت حافظا
من صباه الى شيخوخته يشكو ، ويشتكى لغيره ، ويتوجع ، ويأسى
لاخوانه .

لم يكن يدور بخلد أحد من معاصريه أن هذا الفتى الذى يناغى
الموت ويتودد إليه ليخلص من حياة الفاقة ويستريح من التشكى .

لم يكن فى حسابان أحد ، على أيامه تلك أن هذا الطير الحزين
اللهفان انما هو صدادح الشرق المطرب ، بل ، وأذان الحرية المذخور
لوقته .

مدرسة الحياة

ولكنها الحياة مدرسة لصقل الانسان ، تقوم عليه بشتى التجارب حتى
تعركه . ثم تعد له من رسالة كريمة ، وهداية سامية .

لنله مع حافظ أوبه فى تلك السنين وهو يبكى ويردد شكاته :

عجبت لعمرى كيف مد فطالا وما أثرت فيه الهموم زوالا
وللموت مالى قد أراه مباعدا وجل مرادى أن أوسد حالا
فللموت خير من حياة أرى بها ذليلا ، وكنت السيد المفضالا .

سوف نضحك نحن الشيوخ ، ثم نضحك ، لشأن الانسان حين
يلم به اليأس من الحياة والشكوى من الزمن ، لا يعلم ما أخفى له من
قرة عين . وحسن الذكرى .

انه الاعداد الطبيعى ، انها الطاقات النفسية ، التى يدخرها
الخالق سبحانه ، وعلى قدر ، وكيف يصدق هذا الطائر بأناشيد
البشر والبهجة ، وهو وتر التحرير الذى رصده الله سبحانه ، ليناغى
أمة بأسرها . يحدو شكاتها ، ويمسح عبرتها ويحمل لواء القافلة الى
قصد الطريق .

وانتقل شاعرنا الى درب جديد من دروب الحياة ، وطوعت له
نفسه ، واستعداداته أن يشتغل بالمحامة ، فولج هذا الباب واشتغل
بمكتب « الشيخ محمد الشيمى » بطنطا . فلم يقض عنده ليلة .

وانما تركه مودعا ، كما ودع خياله من قبل ، وترك له معنى التحية
الكريمة التي ازجها بالأمس ، على قدر بيان له ولسانه الذي آتاه الله .

جرب حظي قد افرغته طمعا
فعاد لي وهو مملوء ، فقلت له
باب استاذنا الشيمى ولا عجا
مما فـ فقال من الحشرات واحربا

.. ان مع العصر يسرا ..

ويريد القدر الحانى ، ألا أن يسمح بيده الرحيمة دمع هذا اليتيم ،
فينتقل الشاعر الى مكتب المحامى (محمد أبى شادى بطنطا أيضا)
ويحسن المحامى الى الشاب ويرعى أدبه ويقدره حق قدره : ويفتبط
الفتى لعمله . ويحتفل له ، ذلك لأن المحامى (أبى شادى) كانت روحه
الى فن الأدب أقرب منها الى مهنة المحاماة !

فاتفق الأديبان ، وتغنيا معا ما شاء لهما الزمان .. ثم انتقل
الشاعر الى مكتب محام آخر ، ومضى فيه فترة أخرى من الزمن .

ولكن طبيعة الشاعر لا تقف عند مشهد بعينه ، فهو طير يقع كل
يوم على غصن ، وينزل الرياض متنقلا بين ازهارها ، وخمائلها يصدق ،
وينوح هناك ، تلك هى حياة الشاعر فلم يكن بدعا أن يمل حرفة
المحاماة .

.. غمار جديد ..

وتشاء السماء الا ان يدخل شاعرنا فى غمار جديد ، ومن نوع
جديد ، يدخل الطير القفص لتحوطه الاسلاك ، والأشواك . ليمتحن
نفسه ، ليكتب حربه ، درس جديد ، بل هو الدرس فى حياة حافظ ،
ذلك أن يلتحق بالكلية الحربية ، ويخضع لنظمها ، وينساق فى غمارها
ويصدق لما يلقي عليه من أوامر تجافى روحه وطبيعته .

ان لحافظ أستاذا سطع نجمه ، وذاع صيته ذلكم هو البارودى ،
رب السيف والقلم ، انه المدرسة الحقيقية التى درس عليها واستقى
منها حافظ مع غيره من شعراء الجيل على عهده .

وطماح الفتى يدلف به الى هذا المعترك ، أو هو الميسل الى وظيفة
مرسوقة ، تجزئة برزق كريم أوفى ، أو هو السميت والبزة . فى مظهر
الضباط ، أو كل ذلك أو بعضه على نهج البارودى بل هو القدر المتاح ،
يعد من هذا الشاعر أمرا .

وكيف ، وأنى ؟ كان يتانى لمثله أن يدخل فى غمار العسكرين ،
والسياسيين من غلاة المستعمرين ، ودهاة القراصنة . اذا لم يكن من
برنامج حياته المعد أن يدخل الكلية الحربية .

الشاعر في السودان

أخذ حافظ مكانه من وظائف الدولة عقب تخرجه في الكلية الحربية ضابطاً ، ثم سافر الى السودان . في حملة « اللورد كتشنر » ، وهناك عاودت انشاعر طبيعته ، فحن الى الحياة في مصر ، فراح يناغيها على شوق :

متى أنا بالغ يا مصر أرضاً اشم يتربها ريح الملاب

واذا كان لنا أن نقف مع الشاعر هنا وقفة استشراف لحاله في السودان وبحث وراء عوامل نفاره من الإقامة بها ، فإن أمانة القلم تملئ علينا أن نقتطف طرفاً مما سجله في هذا الجو الاستاذ المرحوم أحمد أمين ، إذ يسوق في ذلك :

« تبرم حافظ من عمله بالسودان ، وأكثر من الشكوى الى أصدقائه ، وعاوده داء الملل القديم . ولم يطق جو السودان ، وأكثر من انشكوى الى أصدقائه ، وعاوده أصدقاؤه في مصر وليالي الأتس بها وجوها البديع ، وعيشها الناعم : كما يدل على ذلك شعره في هذه الفترة » .

قال في ذلك يصف حاله :

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| وما اعتذرت حتى كأن نعلی | دما ، ووسادتی وجه التراب |
| وحتى صيرتنی الشمس عبدا | صبيفا بعد ما ذبغت أهابی |
| وحتى قلم الإملاق ظفیری | وحتى حطم المقننار نابی |
| متی أنا بالغ یا مصر أرضاً | اشم یتربها ریح الملیل |

« وزاد حاله سوءاً في السودان كراهية كتشنر له . إذ كان حافظ غير معني بنظام ، ولا مراع لجسین هندام . وعبر عن ذلك بما كتب به الى الاستاذ الامام من السودان اذ يقول :

وقعدت همه النجمین ، وقصرت يد الجدیدین عن ازالة الجمل فی نفس

ذلك الجبار العنيد : فلقد نما صبغنه على ، وبدرت بوارد السوء الى .
فأصبحت كما سر العدو ، وساء الحميم .

وكان رئيس فرقته « رفعت بك » يكرهه ويرفع التقارير السيئه
عنه ، اذ كان حافظ يعمل الأراجيز في ذمه يحدو بها هو وأصحابه .
فمنها قوله :

تراه اذ ينفخ في المزمار تحسبه في رتبة السردار
يجتنب العقاب والنبيهما ويعشق الجاهل والسفها

ويواصل الأستاذ أحمد أمين عرضه في قوله :

« وأفادته أيام عمله في المحاماة ، فاستفله في السودان ، فقد عرف
بين اخوانه بقوة الحجة وحسن البيان ، فكان كثيرا ما ينيبه الضباط.
المتهمون في الدفاع عنهم أمام المحاكم العسكرية ..

حتى اذا جاءت سنة ١٨٩٩ م حدثت ثورة السودان . اتهم فيها
ثمانية عشر ضابطا كان من بينهم حافظ ، فحوكموا ، وأحيلوا الى
الاستيداع »

أحداث ، وأحداث ، تمر بهذا الضابط في سنى تجربته في الحياة ،
وانى له الصبر فيستقر على حال ؟ وهو يهزأ بكتشتر ويعيبه بين
صحابته من الضباط ، لا بل ، ويسخر من رئيس فرقته سخرية
لاذعة !

يقول الاستاذ أحمد محفوظ في كتاب له عن حافظ « انه كان يكتب
الاستقالة من عماله في الجيش ظهرا ، حتى اذا أقبل الأصيل بنسائمه
مزقها . فأى حال تلك التى كان يتقلب فيها هذا الشاعر ، واى ضنى
كان يواكبه ويفاديه ؟ .

لقد ابتلى بهذه المحنة العسرة ، ولافكاك له من حياة العسف ، فرئيسه
حنق عليه ورئيسه الأعلى يعمل على البطش به . « فقد بلغ حنق
كتشتر من حافظ أنه كتب أمام ملفه الخاص . « لا يرفت ، ولا يرقى »

لقد كان يخرج من تكال الى تكال ، من ليل الى أحلك منه . فهو
يعيش في جـسـو من الدس والكيد والوقية ، وانى له أن يجيد هذه
الفنون من وسائل الحياة الدنسة ؟

ويسسوق لنا حافظ نفسه فيما سجله عن هذه الايام وقد أخذ

بتهمة التمرد مع نفر من زملائه يصف نزاهة المحقق الانجليزى المفقودة :
وضروب الارهاق التى كانوا يسلطونها على الايرباء :

« ولما اهتدى المحقق الى مالا تهتدى اليه الكهنة والمنجمون من معرفة الفيب ، وجمع فى خريطته ما يربو على ثمانين اسما خف الى كبيره وقد حمل ظلما ، فو الذى علم آدم الاسماء كلها ، ما اشتملت خريطة المحقق على اسم وصاحبه ، غير مكذوب عليه . فقال له كبيره ، وقد نظرتى الأمر نظرة الحكيم : اننى لا أرى رأيك فى عقاب هؤلاء الثمانين ، وما جرت الثورة العرباوية الى ما يقارب ذلك العدد ولكن نضرب عليهم القдах فمن صادف النحس سهمه حق عليه العقاب و لا تجاوز تلك القдах أنامل الكفين عدا ، فاذا فعلنا ذلك أمنا شر العقابة وفزنا بالغاية من ارهابهم ، وما أحسبهم بعد ذلك الا قد صدفت قلوبهم وانصرفت وجوه بعضهم عن بعض ، ومتى أنتهى فصل العقاب عهدنا الى النظر فى وجوه مطالبهم ، فأدخلنا بعض التعديل على قانون معاشهم ، وحبونا بعضهم النياشين »

وبهذا أحيل الشاعر الى الاستيذاء على نحو ما أسلفنا ، وأصبح راتبه أربعة جنيهات وجرر ذيل الأسى الى القساهرة ، وبدأ كفاحه من جديد .

| | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| سعت الى أن كدت انتعل الدما | وعدت ، وما أعقبت الا التندما |
| لمحى الله عهد القاسطين الذى به | تهدم من بنياننا ما تهدما |
| إذا شئت أن تلقى السعاده بينهم | فلاتك مصريا ، ولا تك مسلما |
| سلام على الدنيا سلام مودع | راى فى ظلام القبر أمنا ومفتما |
| أضرت به الأولى فهم بأختها | وان ساءت الأخرى فويلاه منهما |
| فهبى رياح الموت نكباء واطفئى | سراج حياتى قبل أن يتحطما |

ويشكو ، ثم يشكو :

| | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| وقد غدوت وآمالى مطرحة | وفى أمورى ما للضرب من ذنب |
| فان تكن نسبتي للشرق ما نعتى | حظا فواها لمجد الترك والعرب |

لقد مر كته الأحداث وصهرته الكوارث ، فهو بكاء ، قد استبد به الألم وخاصة بعد أن أحيل الى المعاش بناء على طلبه ، فتملكه اليأس ، ولم يكن له من أنيس أو سمر غير شعره الذى ينفثه ترويحاً عن أحزانه وأشجانه ، ورصدت حركاته وسكناته . فهو يقول :

إذا نطقت ففأع السجن متكا وان سكت فإن النفس لم تطب
ولم تكن تلك الحادثة التي أطاحت بحافظ من السهولة بحيث تمر به
ولا يأسى لنتائجها فقد كانت فتنة كقطع الليل المظلم

ويذكر اللورد كرومر طرفا منها في كتابه « عباس الثاني » فيقول:

عندما شبت حرب جنوبي أفريقية عاد كثير من أفضل الضباط
البريطانيين الذين كانوا يقودون فرق الجيش السوداني ، الى فرقهم
الأصلية ، في الجيش البريطاني ونظرا لبعض الملابس التي لا حاجة بي
الى ذكرها ، والتي ما كانت تقبح لو لم يضطر هؤلاء الضباط الخيرون
الى السفر - حدث استياء في الجيش ، وجاهرت فرقة من فرق الجيش
السوداني بالمصيان . وقد كثرت الاشاعة بأن الخديو قد قال اقوالا
تجعل الثائرين يعتقدون انه راض عنهم عاطف عليهم ، على أن الثورة
أخمدت بدون اراقة دماء ، وحوكم عدد من الزعماء أمام المجالس
العسكرية ، وحكم عليهم بالسجن مددا مختلفة . وارسلوا الى السجن
ليقضوها به . . . ولما حدثت الخديو في هذه المسألة رأيت من الحكمة
أن أتجاهل ما كان يقال عن اشتراكه في الثورة . لأن ذلك لا سبيل الى
اثباته ، واقتصرت في حديثي على وصف الحادثة ، والخيانة العظمى
التي ارتكبها بعض جنده نحو سموه ، واقترحت عليه أن يرى المحكوم
عليهم ، ويخاطبهم بكلمات اخترتها ، وعربت لها ، فوجد الخديو نفسه في
مازق حرج - وموقف لا يدري كيف يخرج منه ، لأنه اذا رفض يعرض
نفسه للشبهة في أنه حرص على الثورة في جيشه ، كما فعل جده من
قبله ، واذا قبل يتضح للثائرين أن لا أمل لهم بمساعدته ، وبذلك يفقد
كثيرا من احترامه ونفوذه في الجيش على أنه - كما كنت أتوقع -
اختار الأمر الأخير ،

هذه هي الحال التي أتيسح لشاعرنا أن يشهدا ، جرب باردة
أساليب لم يألها ، وليس له اليها من طلب ، مواقف حرجة يزج فيها
زجا ، ثم لا يجد له منها مخرجا وينتهي به الأمر الى أن يعنود من حيث
بدأ .

دروس وعبر . .

خرج حافظ من هذه التجربة بدروس وعبر من أهمها :

أنه لم يعد يحفل لحادثة تمر به بعد وسيان عنده الحياة ، حلوها

ومرها . وبذلك تزود من راد الفلاسفة زادا رفيعا استطاع به فيما بعد أن يدلى بالحجة البالغة ، والمثل الشرود .

كما انه درس طبائع هؤلاء السادة المخادعين ، ووقف على جوانب من دقائق حياتهم السياسية ، فأخذ يواجههم بصراحة ، وصرامة فيما بعد ، وحفل شعوره الوطني في هذا الميدان بلون من الادب اتجه فيه الى الجمع بين وظيفتي المحاماة ، والجندية فكان مدافعا ، منافحا . كما استطاع أن يصادق الأدب ، ويتابع البحث والدرس والوقوف على نتائج قرائع الشعراء السابقين . محتفلا بحياتهم الأدبية غارقا الى الاذقان فيها فوعى بذلك ما وعى من هذه الفنون الرائعة ، مستكملا ثقافته الأدبية التي حرماها بسبب نقص تعليمه واتجاهه ، الى الكلية الحربية . واذ كانت هذه السنن من حياته هي سنوات شبابه وفتوته ، فقد كان عراكه فيها وجلاده : استزادة من زاد الحياة الواقعية ، يدخر منها لشيخوخته مارضى به في أخريات حياته ، كل الرضى .

فى دار الكتب

وقد انتهى به السعى والبحث عن وظيفة يخلد اليها أن عين بدار
الكتب بمرتب مرضى فاستطاع بهذا الوضع أن يتزود من معين الأدب
الصافى فى سر وسعة وأن يسترد ما حرم منه من مورد للعيش المطمئن
الهنئ .

يقول الدكتور طه حسين :

« فى سبيل الله هذه الاعوام الطوال التى قضاهـا حافظ فى
دار الكتب لا يعمل شيئاً ولا يقول شيئاً ، وإنما يقضى صباحه بالدار
يعبث بالموظفين ويتندر عليهم ، أو على باب الدار ، يدخن سيجاره
الضخم ، أو قهوة دار الكتب يدخن الشيشة ، فإذا كان المساء أنفق
وقته بين أصدقائه فى الاندية الخاصة . أو العامة » .

« على هذا النحو قضى حافظ ثلث حياته يرثى من مات ولكن
بحساب ، ويقول هذا الشعر الذى يقال فى المناسبات ، والذى لا يدل
عادة على شيء ، ولا تكاد ترد الحصرية الى حافظ بأحاطته الى المعاش
حتى يتنفس »

« وإذا هو قد اتصل بالشعب من جديد . وإذا هو يتأهب لينفجر
وليرسل زفرات الشعب ناراً مضطربة تلتهم ما حولها . ولكنه شيخ
قد تقدمت به السن وذهبت بقوته الراحة فى دار الكتب . وضاع نشاطه
هباء مع دخان الشيشة والسيجار . فلا تثبت قواه الفانية ، لهذه
الأمانة الثقيلة التى نهض بها شاباً وكهلاً . وكان يستطيع أن يستقل
من حملها حين بلغ الأربعين ، وحين أسند اليه المنصب فى دار الكتب ،
فيقضى بها ، وإن أصدق ما يقال فيه قول الشاعر القديم فى عمر :

قضيت أمورا ثم خادرت بعدها بسوائق فى أكمامها لم تفتق

دفاع

ومن الانصاف لهذا الشاعر الا نترك حافظا معلقا برأى الدكتور
طه ذلك الراى الذى أوردناه . وهو حقيقة واقعة ، دون أن ننبه الى
الظروف التى ألجأته الى ذلك .

وقد أشار الى هذا المعنى الدقيق المرحوم الاستاذ أحمد أمين
يدفع عن حافظ القعود والكسل عن الانتاج وهو فى دار الكتب .
بقوله :

« ظل حافظ يغنى بشعره التقليدى - أولا - والجديد - ثانيا -
نحو خمسة عشر عاما تنتهى سنة ١٩١١ ، لما عرضت عليه وظيفة
دار الكتب .

وطبيعى أن الوظيفة الحكومية ، لم تكن تتفق وشعر حافظ
السياسى ، والاجتماعى فهو يدعو المصريين الى الثورة . والانجليز الى
الجلاء ، وحرام على الموظف وقتذاك أن يتكلم فى السياسة ، وان يتصل
بالجرائد فكيف يسمح بالشعر السياسى عامة . ولشعر حافظ
خاصة ؟ .

« كان حافظ يفهم كل هذا حق الفهم ، فلما قبل الوظيفة كان
معنى قبولها سكوته فى هذا الباب ، وقد بر بوعده ، وفى بشرطه غالبا ،
فلم يقل من الشعر الا قليلا . وفى مناسبات ملحة ، بتحفظ تام وحذر
شديد . أو أن تحميه الظروف » .

« غيره كثيرون بذلك وبقبولة الوظيفة ، ولكن لماذا نعيده وحده
بالوظيفة ولا نعيده من الجأه اليها ؟ لماذا نطلب منه التضحية بقوته ، ونؤنبه
على سكوته ، ولا نؤنب الأمة وقتذاك تعجب به ، ثم يتبخر هذا الاعجاب
ولا يتحول الى قليل من مال يتبلغ به ؟ » .

حظ الشعراء

ويجهر الاستاذ أحمد أمين بقولة الحق فى انصاف الرجل على هذا
النحو ، ويفيض فى هذا بقوله :

« الحق ان الامة في تاريخها الماضى ، ابدت جمودا عجيبا وشححا اليما في حافظ وأمثاله ، تصفق لهم طويلا ، وتتركهم يالمون . من الحاجة الى ضروريات الحياة وتعينهم اذا ركنوا الى الوظيفة . ولا تشجعهم بقليل مما في ايديها ، وتنعم وتفرق في الترف . وتدعو المبنى ان يبنى لها ، ثم تضن عليه بأجره ، فاذا طالبها به غضبت منه .

اذا فليس من العدل ان نسرق في نقده على صمته ، ونعيبه بكسر عوده وقيثارته . فله ان يفعل ما فعله غيره من قبله .

غزلت لهم غزلا رقيقا فلم أجِدَ لفرلى نساجا فكسرت مقزلى

انما يصبح أن يوجه اليه نقد من نوع آخر ، وهو أن حافظا لم يكن يستطيع - حقا - وقد قبل المنصب في دار الكتب أن يقول الشعر فيما كان يقوله فيه من قبل من اجتماعيات وسياسيات ، ولكن لماذا سكنت عن فنون الشعر الأخرى ، والمجال أمامه فسيح ؟ فليس كل شعره سياسة واجتماعا ، فهناك شعر الطبيعة ، وهناك شعر القصص ، وهناك شعر الوصف ، وغيره من أنواع الشعر ، ولم تكن وظيفته تمنعه أن يقول في كل ذلك أو في شيء من ذلك ..

« ولكن ما ذنب حافظ ، ونبوغه انما كان في ثورته ، واجادته في ثورته - وطبيعته وتعليمه ، ودربته تدعو الى النبوغ في سياساته واجتماعياته ، لا في غزله وخمرياتة وما يعيب الموسيقى أن يكون ملك القود ، وليس ملك القانون ، أو ملك الكمان وليس ملك الناي ، فملك في احداها خير عندي من سوقة في جميعها » .

وبهذا أوضح لنا الاستاذ أحمد أمين كيف أن الشاعر انما كان يصدر عن طبيعة مميزة وأن التكلف لم يأخذ عليه سبيله في الحياة . وهي ميزة الشاعر الملهم المطبوع .

ولعل حافظا يصادق ذلك بقوله في استقالة « اسماغيل صبرى » من منصبه وكان وكيلا للحقانية :

فاطرح معاذير السكوت وقل لنا هلا وجدت الى الكلام سبيلا
واضرب على الوتر الذى اهتزت له اعطافنا زمنا وحى النبالا

الشعر ورسالة الادب

فطنت الحكومات العربية الوطنية ، والشعوب العربية الى مدى هذه القوة الجارفة في هزيمة المستعمر ، القوة الروحية التي ايقظتها تلك الاناشيد الحماسية ، والاغاني الوطنية وكان لابد من ان تفيد الدولة من كل أسلحتها لخوض المعركة .

وكان لا بد من اعداد تنسيق وتنظيم أسلحة جديدة لمواصلة الزحف المقدس . فالغاية بعيدة ، والنصر حتم والطريق طويل ، ومن بين هذه الاسلحة سلاح التعبئة الروحية ، ومن أهمها سلاح الأدب . ذلك السلاح الذي يشير اليه الرئيس جمال عبد الناصر في افتتاح مؤتمر أدباء العرب العام سنة ١٩٥٧ . في قوله المأثور :

الرئيس جمال

« الأدب والفلسفة سلاحان أساسيان في هذه الحرب ، فأنتم قادة الفكر ، عليكم واجب أساسي في توضيح الأمور . وفي اقامة أدب عربي متحرر مستقل . خال من السيطرة الأجنبية ، أو التوجيه الأجنبي ، وبهذا يمكن أن تساعدوا ، وأن تعملوا في سبيل التضامن العربي ، وفي تدعيم القومية العربية ، وتحقيق أهدافها »

قائد نهضة ، ورائد أمة ، يجتمع بأدباء العرب ليشارك معهم في رسم الطريق ؛ والتوجيه والارشاد ، فيشيد بما لهذا السلاح من أثر وخطر .

ان في هذا المعنى لتكريما لكل قلم ، وتقديرا لتلك القيم التي عاشت وتعيش لرسالة مرجوة ، مطلوبة في دعم الحرية ، واناة طريق الحضارة .

هذه كلمة الرئيس جمال ، وهو ينظم الطريق الى عزة هذا الشعب وسيادته ، ويضيء الطريق ويفيد من كل سلاح .

وفي هذا أيضا يتحدث رئيس المؤتمر السيد كمال الدين حسين مفصلا هدف المؤتمر وغاياته ، وارتكازه على دعم القومية العربية .

كمال الدين حسين

يقول السيد كمال الدين حسين .

« حين نلتقى في هذا المؤتمر لنبحث موضوع الادب والقومية العربية ، نستهدف غايتين ، نحس بالحاجة اليهما احساسا عاما ،

أما أولهما ؛ فهو المحافظة على هذا التراث الادبي المشترك وتجليته ، ودراسته على نحو جديد ، في ضوء ايماننا بالقومية العربية الجامعة .

وأما الأخرى فهي السلامة بين ما ننتج من فنون الأدب ، وبين أهداف نهضتنا القومية الحاضرة ويضج الوزير المسئول عن الأدب والثقافة في مصر آنئذ النقط فوق الحروف . في ذلك التخطيط . بقوله :

« ان كل نهضة قومية لا بد لكي تستكمل عناصر القوة والاستمرار ، ان يكون الأدب دعامة من دعائمها . ، ولا بد من ابتكار وسائل التشجيع للعاملين في هذه الميادين ، والعمل على الارتفاع بمستوى الانتاج الفكري » .

« ولا بد ان تستند كل نهضة الى دعائم من فنون الادب تدعو لها وتساندها الى غايتها لتكون مبادئها عقيدة راسخة في كل قلب ، وانفعالا واعيا في كل نفس ، وحركة ايجابية في كل جامعة » .

« ان كل النهضات القومية التي باشرها التاريخ انما صنعها أدباء ومفكرون قبل ان يصنعها القادة ، والقادة من النهضات القومية هم الصورة المتبلورة من روح الجماعة وهم التعبير الصريح من وعي الشعب ، صدى الانفعال القومي العام » .

« الادباء وأهل الفكر هم الذين ينفخون في الشعوب تلك الروح ، ويوقدون الوعي ، ويحدثون هذا الانفعال » .

زكي مبارك

واذ يحدد لنا الدكتور « زكي مبارك » مفهوم القومية العربية يبعد بنا عن لفظ المتخربين في أن القومية العربية أن هي الا عنصرية متعصبة ، تقوم على أساس الجنس ، وتفضيل الدم العربي ، على غيره من دماء البشر . وهل هناك اليوم دم عربي صريح بعد هذا الامتزاج ، وعقب الفتوحات الاسلامية ، وتداخل الشعوب بعضها ببعض ، على مرور الاجيال ؟

يوضح لنا المرحوم الدكتور مبارك ذلك بقوله « العروبة لغة

لا جنس ، وقوميتنا عنصرية ولذلك فهي لا تعادى الشعوب، ولا تحقرها، ولا تصبو الى الفتح والتوسع واضطهاد القوميات الأخرى . بل هي قانعة بأرضها مفتبطة بما فيها من خيرات تريد أن تحررها من كل نفوذ اجنبى ، وأن تشيع في أرضها العدالة الاجتماعية . والحرية الداخلية ، وترغب في أن تقيم مع جميع الشعوب علاقة حب ومودة ، وهي معتزة بنفسها وبتراثها ، من الثقافة والخبرة ، فلا ترضى بحال أن تذوب في قومية من القوميات أو تخضع لها . وانما همها أن تتعاون تعاوناً مثمراً مع الشعوب المحبة للسلام . لتقليم أظفار المستعمرين ، وأصحاب المطامع الشريرة . ولارساء قواعد السلام على الأرض .

وهي مع اعتزازها بشخصيتها وتراثها مرنة ، تقبل بصدر رحب ثقافات الشعوب وتجاربها . وتضيف منها ما يلائمها . وتضمه الى كيانها المتطور فيزداد به خصبا ونماء .

طه حسين

ويؤيد هذا ، ويصادقه ، بل ويشرحه ، ويثبته . قول الدكتور طه حسين بما يشير اليه في تضاعيف حديثه عن الأدب والقومية العربية .

« لم يكد القرن الثانى ينتهى حتى تنظر الى القومية العربية فتري عجباً من العجب ، ترى مهد القومية العربية قد هجر ، أو كاد يهجر ، ونرى الجزيرة العربية قد عادت أوصالها الى بداوتها القديمة ، وظلت المدينة ومكة محتفظتين بما كان يدرس فيهما من الدين والعلم . ولكن البيئات القديمة، البدوية في نجد عادت الى بداوتها وعادت الى شيء كثير من عزلتها القديمة وكادت الصلة تقطع بينها وبين البلاد الأخرى » .

واذن فالقومية العربية ليست في الجزيرة العربية وحدها ، وانما هي قبل كل شيء في هذه البلاد التي فتحت ، والتي امتزج فيها العرب بغيرهم ، من سكان البلاد الأصليين ، ويواصل عميد الأدب حديثه في بيان معنى القومية العربية من واقع التاريخ بقوله :

« ومعنى هذا خطر كل الخطورة ، فهؤلاء السكان كانوا يتكلمون لغات مختلفة جداً ، وكان الفرس يتكلمون لغتهم الفهلوية ، وكان للشام لغات سامية ، وكذلك في العراق ، وفي الجزيرة . وكان المصريون يتكلمون لغتهم القبطية ، وكانت لغة الثقافة ، والسياسة في البلاد الشامية والمصرية هي اللغة اليونانية ، ولغة السياسة والثقافة في العراق وبلاد فارس هي اللغة الفارسية . ولغة الثقافة والسياسة في شمال افريقية وفي أسبانيا هي اللغة اللاتينية ، وننظر في أواخر القرن الثانى فإذا كل هذه اللغات قد تركت أماكنها من السنة الناس وعقولهم وقلوبهم لهذه العربية . »

« فالفرس يتكلمون العربية ويكتبونها ويزاحمون العرب أنفسهم فيزحمونهم ، اذ الفرس هم الذين يضعون كتب وأصول النحو العربى . واذا هم يعنون بجمع اللغة وتدوينها ويشاركون العرب فى هذا كله ، ويغلبونهم عليه أحيانا » .

« واذن هناك قومية عربية جديدة أنشأها الاسلام ، لم تكن تأتلف من عنصر عربى خالص ، وانما كانت تأتلف من جميع هذه العناصر التى وأيتموها من العناصر التى كانت تسكن كل هذه البلاد ، فأنشأ الاسلام اذن أمة جديدة وجعل هذه الأمة عربية » .

« ان الشعر لم يكد ينشأ بين القبائل العربية المتفرقة المذاهب واللهجات حتى فرض لهجة بعينها على الأمة العربية كلها فى جميع أطرافها وأقطارها من الجزيرة العربية »

« فكان الشاعر العربى اذا أنشأ قصيدة وأنشدها فى جمع من الجموع فهمها عنه الناس مهما تكن قبائلهم ، ومهما تكن لهجاتهم أو لفاتهم الخاصة . ثم لم يكتفوا بفهمها ، ثم كان الرواد يتناقلونها عن الشعراء ، وكانت القصيدة لا تكاد تنشد حتى تشيع فى الجزيرة العربية ، ويحفظها كثير من الرواد فى الاقطار المختلفة من اقطار الجزيرة ، فأول توجيه للعقل جاء من هذه الناحية ، من هذا اللسان الذى أتاح للغة العربية فى العصر الجاهلى أن تكون لغة اجتماعية » .

« فالكون الاول فى محاولة ايجاد وحدة لهذه القبائل العربية انما هو الأدب والشعر من الأدب بنوع خاص » .

محمد صلى الله عليه وسلم

ثم يشير الى أن المكون الحقيقى للوحدة بجميع أنواعها ، وفروعها، الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللفوية ، انما هو النبى صلى الله عليه وسلم .

ولم ينقل النبى الى جوار ربه الا وقد تمت وحدة الجزيرة العربية ، ووجدت قومية عربية منظمة لها قانونها ، وهو القرآن » .

.. المؤسسون الحقيقيون ..

وما أروع ما يقرره عميد الأدب في حديثه عن الأدب والقومية العربية ومكانة الأديب ورسالته فيهما في قوله :

« الشيء الذي أستطيع أن أؤكد ، وأنا مطمئن الى اني لا أتجاوز الحق ، هــو أن كل هذه الاحداث ، انما أنشأتها الثقافة ؛ وأنشأها الأدب والمؤسسون الحقيقيون لكل هذه الثورات ، انما هم الأدباء ، والكتاب والشعراء ، ولا شيء غير هؤلاء » .

قوالب الشعر

واذا كان لنا أن ننتفع بهذا الايضاح والعرض في بيان الدكتور طه حسين عن حقبة هامة من حقب تاريخ الادب ، فذلك فيما يشير به الى ظاهرة يرشد اليها استاذنا العميد في حديثه ، ونحن اذ نسوقه اتماما للفائدة فانما نرد بها أيضا على أولاء المجددين في صور الشعر وأشكاله وهيكله ، يقول الدكتور :

« ومن الغريب أن الظواهر الأدبية التي تلاحظونها في حياة القومية العربية الجديدة التي أنشأها الاسلام ، والتي ألقى فيها الفروق بين الأجناس ، وألقى فيها أن يكون لعربي على أعجمي فضل الا بالتقوى ، من أغرب الظواهر التي ترونها أن الشعراء الذين استأثروا بالشعر ، وامتازوا فيه ، وأصبحوا هم السنة الأمة العربية بمعناها الجديد ، لم يكن منهم شاعر عربي خالص .

« وكان بعضهم فارسيًا ، وبعضهم نبطيًا ، وبعضهم يونانيًا ، لم يكن منهم شاعر عربي خالص ، وانما كانوا جميعا من هذه الأمم التي استعربت وأعربت عن شعورها القديم ، وعن عقولها القديمة ، وعن وجدانها القديم في الشعر العربي ، والعقل العربي ، والوجدان العربي » .

غلاة المجددين

وعندى أننا ، بهذه الحقيقة نرد على غلاة المجددين في الشعر الداعين الى التحلل من الوزن والقافية .

نرد عليهم ، فننبههم الى ما أشار اليه الاستاذ العميد من أن هؤلاء الشعراء المبرزين لم يتناولوا صياغة الشعر العربي على الطريقة التي وفدا بها على آداب العربية وكان أولى بهم أن يدعوا هم الى التجديد الذي يدعى اليه اليوم . لكي يتيسر لهم السبيل .

ولكن الأداة عندهم كانت قد اكتملت بالإضافة الى الموهبة الاصلية في أحاسيسهم ، فاختاروا الطريق الصحيح المسروق لفطرة اللغة ، وأركان القصيدة بعد مراحل الدراسة والاستيعاب واني لا أعرض بأحد حين ألقى بالرأى في هذا العوج الطارئ على آذاننا وما تناول الشعر منه خاصة في هذه الناحية .

المقلدون

فلو أن متشاعرا ما اجتمعت لديه أدوات القصيد ، لما دعا الى ما يدعوا اليه المقلدون ومن لم يسقط عليه نور الحقيقة الأجل .
انهم يقاربون عروبتهم من الهجنة التي ألفوها والى العجمة التي اقتبسوها ، ودعوا اليها وان الأفكار الجديدة ومشاكلات العصر لا تمتد الى مثل هذه الدعوة ، وعلى هذا النحو ، من الطفرة .

فكم من شعراء جمعوا الى العربية ثقافات عدة ، وكان ذلك سببا في صفاء قرائحهم وسمو انتاجهم ، ومدعاة الى ايقالهم في الابتداع في الشعر على النهج العربي الخالص ، بالتلوين الجديد الذي لا يمس القوالب والصور .

الشعر الحديث

وما دمننا بصدد الحديث عن الشعر والأدب ، فاني أستميع القارئ عفوًا إذا استطردت في البحث في أدق مناحي الأدب الشاغل للاذهان المبلبل للأفهام ذلك الذي تصطرع النظريات الأدبية ، ولا تلتقي عند مفاهيمه ، وأعني به الشعر الجديد ، أو الحديث .

وقد أكون أكثر توفيقًا في خدمة هذه القضية ، بعرض آراء أعلام الأدب على عصرنا ممن عنوا بتجلية هذا الموضوع ، وذلك أوفق لانارة السبيل أمام الشبيبة المذخورة ممن يتطلعون الى آفاق هذا الطريق المضيء .

يقول الشاعر الكبير الاستاذ عزيز أباظة في تقديم لديوان أحد الشعراء المجيدين وهو الاستاذ عبد الله شمس الدين صاحب نشيد « الله أكبر » أو نشيد النصر في رأيي لما حالفه من توفيق في حينه :

« بيد رواد الثقافة وضعت لبنات المدرسة الحديثة في الشعر المصري ، ونشط أساتذتها في الدعوة لها ، حتى شغلوا الناس ردحا طويلا من الزمن ، وتوارد على منابر هذه الدعوة ، الأساتذة الاعلام : محمد السباعي ، عبدالرحمن شكرى ، عباس محمود العقاد ، ابراهيم المازنى .

وكانت هذه المدرسة تتميز بسمات وخصائص في انتاج أساتذتها . ثم برزت هذه السمات وتلك الخصائص في انتاج طائفة من شعراء الشباب بقدر ما في طاقتهم من فهم هذه المدرسة والتأثر بها . وبجانب هذه المدرسة استقام بناء مدرسة ثانية على دعائم من ثقافة أجنبية أخرى هي اللغة الفرنسية وآدابها ، وقد حمل لواء الدعوة لهذه المدرسة في سبيل التمكين لها الشعراء الكبار ، مطران ، وناجى ، وأبو شادى رحمهم الله . وطيب ثراهم ...

وقد التقت المدرستان عند هدف واحد وغاية متفقة ، ذلك أنهما جهدتا في تهوين العناية بالاسلوب والحفاوة بالديباجة والاحتشاد للتعبير المشرق الجميل ، وقد ظفرتا بقدر غير قليل من النجاح في هذا الصدد ، ولكنهما - مع ذلك - بقيتا مدرستين يصدر عنهما شعر رفيع المقام ، وأدب عريق القيم .

وقد أشار هذا الالحاق من ناحية هاتين المدرستين على شعراء آخرين ، كان يتمتع عملاق منهم بشهرة جارفة .

أشار هذا الالحاق في قوة وعنف الى مدرسة ثالثة ، وقف على قمتها « شوقي » في قدرة وثقة واصرار . ولعله كان يعنى بهذا البيت في مرثيته لحافظ شدة الهجوم ، وتساقط المهاجمين من حوله :
ما حطموك وانما بك حطموا من ذا يحطم رفرف الجوزاء

مدرسة الشعر المنثور

ويوضح الشاعر عزيز أباظة في جهر الحق حين يصدع الباطل رأيه في الشعر الحديث ، بمواصلته في القول :

« ثم انشقت الأرض عن مدرسة رابعة ارتجلت ارتجالا وفجأت الناس كما يفجأك النتوء في عرض طريق مزدحم ، وأنت آخذ سمك الى غاية جادة ، فاذا أصوات ملهوجة تملأ سمعك بما هو أشبه بهديان المحمومين ، تلك هي مدرسة الشعر المنثور ، أو النثر المشعور التي عدلت عن الإبانة الى الرطانة ، ولجأت الى علامات الاستفهام والتعجب تملأ بها السطور ، لتقوم مقام الأبيات الكاملة ، والقوافي المتماثلة ، وقذفت برسالتها تحمل أمثال هذه التعبيرات :

الأنين المشنوق ، الحزن الراقص ، الصمت القمر ، الشمس المعرودة ، اللانهائية الخرساء ، الى آخر هذا الفتح المبين في لغة الجمال اللألاء ! !

وكان الشاعر « عبد الله شمس الدين » من مدرسة الشعر المصقول، القديم في رأى الشاعر الكبير . فهو ليس من هؤلاء المشعوذين .

الدكتور مهدى علام

ولعل أزيد الحقيقة وضوحا ، اذا عرضت هنا الى أحدث رأى للجامعة المصرية عن هذا الشعر الحديث ، على لسان عميد من عمدائها . المتخصصين فيه ذلكم هو الاستاذ الدكتور مهدى علام . يرد على أحد الشعراء ممن له رأى خاص في الشعر القديم ويرى أن يوضع تخطيط لما يسميه بالشعر الحديث المنطلق من كل قيد . حتى قيد المعرفة . . ! يقول الدكتور مهدى علام في مؤتمر أدباء العرب :

« أريد أن أتكلم في هذه النقطة التي أشار اليها صديقنا الشاعر الحديث الذى دعا الشعراء والنقاد والأساتذة لأن يتسألوا تدريس الشعر والأدب ، أن يخططوا للشعر الحديث ويدعوا اليه .

« وأنا كأحد هؤلاء الذين يقومون على خدمة هذه المادة مع زملائي المشتغلين في الجامعة استميجحه عفوا باسم هؤلاء الأساتذة ، أرجو أن تأذنوا لنا ، اننا لا نخطط في هذا ، لأن الشعر باعتباره فنا من الفنون لا تقدم فيه القوانين ، ولا ترسم الخطوط وإنما هو انفعال تلقائي » .

« ليتقدم به شاعر حديث في أية صورة يشاء ، وبعد ذلك سيثبت جداره ، أو يختفى » فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

حافظ ابراهيم والشعر الحديث

وانى بدورى لمطمئن أستاذنا الدكتور مهدى علام مذكر زميلنا الشاعر المستحدث بأن الشعر العربى ، قد امتحن وابتلى ، وتعرض لمثل هذه الآفات على عهد شاعرنا « حافظ ابراهيم » اذ يقول في قصيدة له يوجه القول فيها الى أمير الشعراء « أحمد شوقى »

أشكو اليك من الزمان وعصبة جرحت فؤاد الشعر في أعيانه
كم خارج عن أفقه حصب الورى بقريضه ، والعجب ملء جنانه
كم حك مسمعا بجندل لفظه وأطال محنتنا بطول لسانه

التفاته وطنية لا تفارق طبيعة شاعر الحرية ، وردت في سياق استقبال أمير الشعر من منفاه بالأندلس - وردت في سياق غرض من الأغراض التى عن له أن لا يخفيه . وهو قوله « وأطال محنتنا بطول لسانه »

فهو ينمى على ذلك الشاعر الذى جرح فؤاد الشعر ، ولم يرفق بنا ونحن في محنة الاستعمار ، ثم يستطرد في وصف هؤلاء النفر من الشعارير بقوله :

ما زال يعلن بيننا عن نفسه حتى استفاث الصم عن اعلانه
نصح الهداة لهم فزاد غرورهم واشتد ذاك السيل في طغيانه

ويصل الى الحكمة الساخرة منهم في قوله :

او لم تر الفرقان وهو مفصل لم يخرج البوذى عن اوثانه

الموازن القسط

ثم يضع الموازن القسط للشاعر الذى يجرى ولا يجرى معه على حد تعبير العرب فى تقسيم الشعراء الى مراتب بقولهم :

« والشعراء فأعلمن أربعة فشاعر يجرى ولا يجرى معه
وشاعر من حقه أن تسمعه وشاعر من حقه أن تصفحه
يضع حافظ ابراهيم فى قصيدته هذه الموازن القسط للشاعر
المبدع بقوله :

الشعر فى أوزانه لو قسته لظلمته بالدر فى ميزانه

الشعر التقليدى .. أيضا

واذ عرضنا لراى حافظ فى الشعر على نحو ما قدمنا ، لابد لنا من الإشارة الى ما سجله من راى فى الدعوة الى التجديد . ومظهر ذلك التجديد عنده .

وخير ما نعرضه فى هذا السياق ، ما جاء فى تقديم لديوانه بقلم الاستاذ أحمد أمين اذ يقول :

« قامت حركة فى مصر من بعض الأدباء والمثقفين ثقافة عربية ، وبعض قادة الراى ، تعيب على الشعراء هذا الشعر التقليدى فى أسلوبه وفى أغراضه . وفى أوزانه وقوافيه ، وتشكو شوقيا وحافظا من الشكوى لأنهما قديمان فى اقطارهما مقلدان فى أغراضهما محافظان فى أوزانهما . »
« وكان من آثار هذه الحركة فى حافظ أن ثار هو أيضا على الشعر القديم ، فأنشد قصيدته المشهورة فى الشعر والتي مطلعها :

ضعت بين الزهى وبين الخيال يا حكيم النفوس يابن المعالى .

عاب فيها شعراء الشرق شعرهم فى الكأس ، والمدح ، والهجاء ،
والرثاء ، وحب سلمى ، وليلى ، ومكان الآثار والاطلال ، والرحال ،
والجمال . ثم يقول :

آن يا شعر أن نفك القيودا قيد تنابها دعاة المحال
فلرفعوا هذه الكمائم عنا ودعونا نشم ريح الشمال

حافظ والتجديد

فكانت ثورة صاحبة على الشعر القديم ، فهل جدد حافظ بعد ذلك في شعره هل جدد في بحوره وأوزانه ؟ أم جدد في أسلوبه وبيانه ، أم في تفكيره وخياله ؟ لقد جدد في شيء هو فوق ذلك كله ، جدد في موضوعه ، وأغراضه ، فبدلاً من أن ينظم في موضوعات امرئ القيس ، وطرفة ، وجريز ، والفرزدق ، وبشار وأبي نواس ، نظم في موضوعات عصره ، وآماني قومه .

وقد بنى شعره الجديد في الوطنية ، والاجتماعيات ، والسياسيات وكان في شعره يقف موقف الصحافة الوطنية ، وقادة الرأي الاجتماعيين يغشى مجالس كل هؤلاء . ويتشرب من أرواحهم . ويستمد من وحيهم ثم يخرج ذلك كله شعراً قوياً . ملتهباً ، يفعل في النفوس ، - وذلك شأن الشعر الحي - ما لا تفعله الخطب والمقالات .

فكان حافظ حقاً شاعر الوطنية ، وشاعر الشعب وشاعر السياسة ، والاجتماع ، ولم يجاره أحد في ذلك من شعراء عصره .

ونحن بدورنا نسوق للقارئ طرفاً من تجديد الشاعر والأغراض التي تناولها ، استمع إليه يستحث المصلحين بأسلوبه الساخر :

واذا سئلت عن الكنانة قل لهم هي أمة تلهو ، وشعب يلعب
إنها الاستثارة ، في الصياغة الجيدة .

ويقول متوعداً :

النسر يطمع أن يصيد بأرضنا سنريه كيف يصيده زغالول ؟

أما الذي اصطاد الأسد ، وقطع ذيله في بورسعيد ، وخلاه بعد أن ترك به سمة المذلة . فهو بطل ثورتنا « جمال » فتحقق بذلك حدس حافظ ولكن على يد « زغالول » آخر أشد شكيمة وأقوى مراساً .

وبنفس أساوبه الساخر اللاذع يلهب ظهر الشباب ناعياً على الأمة استسلامها للفاصل ، والعودة عن الجهاد :

أمة قد فت في ساعدها بغضها الأهل ، وحب القربا
وهي والأحداث تستهدفها تعشق اللهو ، وتهوى الطربا
لا تبسالى ، لعب القوم بها أم بها صرف الليالي لعبا

إن حافظاً بهذا النهج في التقرير كان يربى الشباب ، ويستحثهم ليقظة من سبات :

أفقتنا بعد نوم فوق نوم على نوم كأصحاب الرقيم

.. حافظ يفك قيود الشعر ..

فاذا نحا شاعرنا الى فك قيود الشعر في قوله :

آن يا شعر أن تفك القيودا قيـدتنا بها دعاة المحال

فانما كان يعنى ترسم الأقدمين مشيراً الى ذلك بقوله :

حملوك العناء من حب ليلى وسليمى ، ووقفة الأطلال

وبكاء على عزيز تولى ورسوم راحت بهن الليالى

واذا ما سموا بقدرك يوما اسكنوك الرحال فوق الجمال

هذا هو حافظ في مذاهب الشعر ، ورأيه في التجديد : ترسم
لأقدمين في القوالب والصور ، وتحرر من المعانى القديمة ، بالتطور مع
مقتضيات الحال ، ومجاراة لخصائص الحياة الجديدة في عصره ..

ويجمل بنا قبل أن نخلص من هذا البحث في الشعر الجديد ، أن
نفيض قليلاً في تناول كثير من آراء الأعلام والأدباء فيه اتماماً للفائدة .
وبهذا نعرض لرأى الدكتور محمد مندور وهو أحد أساتذة الجامعة الذين
أسهموا فى رسالة الادب وعلم من أعلام الصحافة - يقول الدكتور مندور
فى مقال له عن التيار الواقعى فى شعرنا المعاصر :

« ينادى الجيل الجديد الناهض من شعرائنا الشبان بمذهب جديد
فى الشعر ، بل فى الادب عامه هو المذهب الواقعى الذى يعبرون عنه
أحياناً بقولهم : الأدب الملتزم ، او الادب الهادف أو الادب فى سبيل
الحياة ، وحتى اليوم لم تتضح بعد حدود فكرية وفنية حاسمة لهذا
المذهب الذى لا يزال فى طور التكوين والتجديد ، وهو ما يمكن أن يعتبر
تجديداً مطلقاً » .

« ولو أننا قصرنا حديثنا على مجال الشعر لوجدنا أن شعر هذا
الجيل الناهض لم يتخلص ولا يمكن أن يتخلص من التيار الوجدانى ،
لأن الشعر اذا جفت فيه العاطفة ، وخمد الوجدان لم يعد شعراً ،
وانما الذى يريده هذا الجيل ، هو أن يستمىض عن الوجدان الفردى
بالوجدان الاجتماعى ، أى أن يصبح الشعر موضوعياً ، بدلاً من أن يظل
خواطر متناثرة متداعية وعواطف منسابة أو متفجرة ، وهذا التغير فى
مضمون الشعر لم يكن بد من أن يصحبه أيضاً تغير فى صورته » .

ولسنا فى حاجة الى أن نعلق على رأى الدكتور مندور ، فهو
اوضح من أن يحتاج الى تعليق ، وان كنا نرى ان اضطراب الشاعر فى
حياته لابد له من رابطة بهذه الحياة ، وان انتاجه انما يرتبط ارتباطاً

وثيقا بما يتأثر به في مجتمعه . وأن الشعر غناء وموسيقى ، والنفس الصادحة لا يمكن أن تستوحى النغم والتطريب إلا عن نفس مطلقة ، وحياتها ، ومجتمعها ، ما هو إلا صدى أحاسيسها . كما أن تطريبها ، وهزيجها إنما هو تجاوب مع حيواتها ، ومشاعرها .

وهذه الدعوى الجديدة أشرنا إليها في التحدث عن رأى حافظ في التجديد في الفصل السابق ، وأوضحنا أن (حافظا) نحا هذا النحو ودعا الى ضرورة الانطلاق من قيود القديم .

وطبيعى أن كل عصر له خصائص ، ومميزات ، بل وآفاق .

الفطرة

ولا يمكن أن تكون الصور والمرائى على عهد العصور المتخلفة من عهد الجاهلية الى اليوم وعلى توابك عصور الأدب ، لا يمكن أن تتشابه مع عصرنا هذا ، أما النفس الانسانية ومشاعرها وصفاتها المتصلة بجوهر الشعور والادراك ، وما تتأثر به العواطف والوجدانات فهو (نفس واحدة) لا يمكن أن تتغير ، وبهذا فالتجديد قائم وهو فطرة متحركة تتابع العصور وتتشكل بها ، هي سنة من سنن الحياة الكونية التى أودعها الله خصائص البشرية ، تتشكل مع طبيعة العصور ، لا بل ومع طبيعة الحياة . وقد نشهد في العصر الواحد والبيئة الواحدة مختلفا من الشاعر والأحاسيس ، لعدد من الأدباء نشئوا معا في هذه البيئة بل وتأثروا ثقافة واحدة . هذه هي الفطرة الصادقة وقد احترز الدكتور مندور في حديثه بقوله في استهلال الكلام عن الشعر المعاصر بقوله :

« وحتى اليوم لم تتضح بعد حدود فكرية وفنية حاسمة لهذا المذهب الذى لا يزال فى طور التكوين والتجديد » .

الشعراء المتمردون

وينتقل الدكتور مندور فى حديثه الى نقطة أخرى تتصل بقواله هذا الشعر المعاصر فيقول :

واذا كان هؤلاء الشعراء المتمردون على العروض التقليدى قد استشهدوا بعض الحرج فى الخروج عليه فإنهم لم يلبثوا ان وجدوا على هذا التجديد فيما ظهر فى بيئة حضرية ، كبيئة الأندلس التى كانت تخالف البيئة العربية المحافظة ذات الطابع المحفلى الخاص مخالفة واضحة ، استطاعت بفضلها أن تبتدع فى العروض العربى نظاما

الموشحات الذى يخرج على النظام التقليدى للبيت الشعرى ، وطريقة توزيع تفعيلاته بين شطرى البيت الواحد كما يخرج على وحدة القافية ، ويؤلف موسيقية ليست فيها الرقابة التقليدية ولكنها مع ذلك لا تخلو من موسيقى وأضحة فى تنوعها ، .

•• الوزن

— وقيد الوزن والقافية فى رأى ما هما الا ظاهرتان للفن الشعرى. فى أتم صورته وأكمل حالاته وهما مع هذه الحقيقة ليسا كل شىء فى الشعر .

الرافعى

يقول « الرافعى » —رحمة الله عليه — ولو كان الشعر من هذه الألفاظ الموزونة المقفاة لعدناه ضربا من قواعد الاعراب . لا يعرفها الا من تعلمها ولكنه يتنزل من النفس منزلة الكلام .

فكل انسان ينطق به ، ولا يقيمه كل انسان . وأما ما يعرض له بعد ذلك من الوزن والتقفية ، فكما يعرض للكلام من استقامة التركيب والاعراب . وانك انما تمدح الكلام بأعرابه ، ولا تمدح الاعراب بالكلام .

هاشم عطيه

وفى كتاب الأدب العربى وتاريخه للمرحوم الأستاذ محمد هاشم عطية ما يوضح هذا فى قوله :

ومن علماء العرب انفسهم من جعل الشعر كلاما ، وأجوده اشعره ، ولم يشترط له وزنا ولا قافية ، ويدخل فيه حينئذ ما يشبه ان يسمى شعرا منشورا من حكمة أو مثل ، يبنيان غالبا على صواب التشبيه ، وإيجاز اللفظ ولطف التصوير ، ومنهم من اشترط فيه اللفظ دون القافية ، ومنهم من جعله موزونا مقفى ، وأجاز تعدد القافية .

الجرجانى

وللقاضى على عبد العزيز الجرجانى رايه فى الشعر .

يقول فى الوساطة :

« انه علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع ، والرواية والذكاء -
ثم تكون الدربة مادة له ، وقوة لكل واحدة من أسبابه فمن اجتمعت له
هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تتكون مرتبته من
الاحسان . ولست أفاضل فى هذه القضية بين القديم والمحدث ،
والجاهل المخضرم ، والاعرابى والمولد الا اننى أرى حاجة المحدث الى
الرواية أمس ، وأجده الى كثرة الحفظ أفقر » .

قيود العروض

ونعود لراى الدكتور مندور ، فنعرض فقرة أخرى له أوردها فى
هذا السياق قد تنفع الناشئة والمشتغلين بهذا الفن الرفيع .

يقول الدكتور مندور :

« واذا كانت الدعوة الى التحلل من قيود العروض العربى التقليدية.
فى وحدة البحر فى القصيدة الواحدة . ووحدة القافية ، ووحدة التنظيم
فى توزيع التفاعيل بين شطرى البيت الواحد فان هذه التجديدات لم
تخرج عن عروض الشعر التقليدى الا استجابة لذوق موسيقى واضح
سليم عند من يستحقون أن يستموا شعراء » .

والتيار الواقعى فى رأى الدكتور مندور « تيار له أصوله الفنية
التي تبلورت خلال تطورات ومعارك أدبية وشعرية متلاحقة ، وربما
كانت جذته فى المضمون الاجتماعى الذى رجح كفته تطورنا السياسى
الآخر نحو التفكير الجماعى والنزعة الاشتراكية الشعبية ، والدعوة الى
الحد من الاثرة . . الخ . ما جاء فى تعريف التيار الواقعى فى الشعر
المعاصر »

ولست أرى الدكتور مندور قد أتى بجديد فى تعبيره عن ملامح
هذا التيار الواقعى فلكل عصر كما أسلفنا تياره الواقعى ، الذى يدفع
رجال القلم بالفطرة الى مسابرة والفيض عنه .

ولكن الجديد الذى وفد على أدبنا حقيقة هو ما يعبر عنه الدكتور
فى سياق حديثه بقوله انه نور الاصلاح الذى أخذ يبدد ظلمات الفساد
الخانقة ، وأن ذلك ما نحس بانعكاساته عند براعمنا الشعرية حزينة
شاكية حيناً ومشرقة متهلة حيناً آخر فى قصائدهم ودواوينهم التى أخذ
يختلط فيها الواجدان الفردى بالواجدان الاجتماعى على نحو ما نطالع
فى اشعار أولئك الشبان .

تجربة

وتحضرني في هذا المقام تجربة عملية وضعت يدي عليها حين كنت أعمل رقيباً للأغاني بالإذاعة المصرية على أول عهدي بالعمل بها عام ١٩٤٩ إذ أن هذا الوتر الغنائي الذي يعتبر من أسس الانفعالات التلقائية ، والذي يوقع أرفع الاحاسيس الانسانية ، لاحظت في ذلك الحسين جماعة من الرجالين الذي وقفوا على أول سلم الشعر ، والموهبة الادبية عندهم لم تكن قد تفتقت براعمها بعد . ولم يكن فيهم على كثرتهم من نال حظاً من الثقافة والادب ، وما يمكن أن يكون الزاد لتلك المواهب المبتدئة .

لاحظت أن هؤلاء النظام كانوا يقدون هذه المؤسسة الكبرى والتي لها أكبر الأثر في توجيه الشعب - بفيض زاخر طاغ من الأغاني الرخيصة المبتذلة في أسلوب ركيك ، ومعنى ضحل ، وعاطفة باردة ، فلم يكن بد أنشد من البحث عن مخرج ، وانتهى بي التطواف والبحث الى اقناع المسؤولين بضرورة اخضاع هذا النغم الخالد الى نظام محكم وكان أن شكلت لجنة لتصفية هذه النصوص كانت تضم كبار شعراء العصر والموهوبين الاعلام من الموسيقيين . فلم تكن نعثر على المقطوعات الغنائية الصالحة الا بعد جهد كبير ، اذا انصرف كبار الشعراء والموهوبين عن الاسهام في هذا المعترك . وتخلوا عنه لهذه الطائفة التي أشرنا اليها .

ولسنا في مجال التحدث عن الغناء في الاذاعة فذلك موضوع يطول البحث فيه ، وان كنت أرى أن الخبرة الطويلة ترشد الى ضرورة ، قيام لجنة خارجية من الاعلام المتخصصين للارشاد الى هذه القياثر ، تقديرًا وتقسيماً لهذا الفن الاصيل - ولم تخل دواوين الشعراء من مقطوعات توائم هذا الفن الرفيع ، وتكون زادا أصيلاً ، وهزجا يرتل في كل آن

أقول : بأن موضوع الشعر المستحدث الذي ظهرت بوادره على هذه الايام ، ان هو الا محاولات لبعض المتأدين المبتدئين الذين لم تكتمل ادواتهم بعد ولم يستقوا من زاد الشاعرين قليلاً أو كثيراً .

رعاية المواهب

ولو أن منتدى أو جماعة ممن يرعون النشاط الادبي تبنت هذه البراعم وأعدت لهم دراسات في الشعر ، وزودتهم بدخائر الشعر العربي

المنتقى وضربت لهم أجلا بعيدا في دراسة وبحث وحفظ لجيد الشعر ،
واتاحة الفرصة بعد ذلك للانتاج أقول ان هذا قد يجدى في رعاية هذه
الموهبة المبتدئة لدى هؤلاء المغمورين الذين يتنفسون بمحاربة الملكات
المكتملة والفن الأصيل بمثل هذا المروق والانحراف والادعاء . حتى
أصبحت وكأنها عصابة تترصد كبار الأدباء وأعلام الفنون ، بالتجريح
المفرض ، ورأيهم : هو أن الشعر العربى ، فى جميع عصوره ، ان هو الا
غثائث العقول وفيض الجهالات وضع فى قوالب جامدة وصور هامدة ،
كما أرتأوا وادعوا . وانهم وحدهم هم أساطين الفن والأدب والالهام .

وانى اذ استطرذ فى هذا البحث لأجدنى لم أوفه بعد حقه فان
أمامى الآن صورا شتى من آراء الادباء أرى أن الفائدة تتم بعرض طرف
منها . ولا سيما أنها أحدث الآراء التى يدلون بها فى مجتمع رسمى ،
وتعبر عن مذاهبهم وآرائهم تعبيرا صادقا .

المؤتمرات الأدبية

فقد أتاح لنا مؤتمر الادباء المنعقد فى ديسمبر سنة ١٩٥٧ بما
ضم من أعلام الوفود العربية من خيرة الأدباء . . أتاح لنا الوقوف على
رأى هؤلاء المشتغلين بالأدب وخاصة ما أشاروا فيه الى الشعر الجديد
على وجه التحديد .

شعر منشور

يقول عضو وفد السودان :

ان جمال الكلمة من جمال المعنى الذى تؤديه ، وقليل ما تؤدى
الكلمة الجميلة معنى قبيحا ، فالقيمة الجمالية ، قيمة متحركة وقيمة
نسبية .

أما الموسيقى ، فهذا مالا سبيل الى التجاوز عنها مادام هناك
شعر . ان كل المحاولات التى حاولها المجددون والمحدثون لم تؤد الى
جديد ولا الى حديث ، والشعر المنشور شئ لا نناقشه فى هذا المجال فهو
ضرب من ضروب النثر .

الشعر ظل ثقافة أرسقراطية وان كان أقدم الفنون وأكثرها بدائية
ولم يكن مصدر هذه الارسقراطية الا من أنها موهبة . وقليل ما تكون
الطبيعة ديمقراطية فى توزيع المواهب ثم يورد الاستاذ عضو الوفد
السودانى فى المؤتمر مختاراته من الشعر للفرزدق فى القومية العربية .

لننسا العزة القعساء والعهد الذى
عليه اذا عهد الحصى يتخلف

ثم يورد لمهيار الديلمي الشاعر :

قومي استولوا على الدهر فتى

ومشوا فوق رؤوس الحقب

ثم ينشد في المؤتمر قول شاعرنا « حافظ إبراهيم » بعد أن يسجل لهذا
الشاعر مكانته بقوله :

« وحافظ وشوقي كانا من أكثر الشعراء الذين عملوا على بعث
القومية العربية وينشد لحافظ :

أنا البحر في أحشائه الدر كامن

فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

وسعت كتاب الله لفظا وحكمة

وما ضقت عن آي به وعظمت

فكيف أضيق اليوم عن وصف آله

وتحديد أسماء لمخترعات

ثم يردد أبياتا لشاعر سوداني فينشد :

إيه يامصر حسب مسعاك فخرا

ان أعدت الغداة مجد الجدود

يابنى العرب والحوادث ترى

مفزعات كقاصفات الرعود

لا تصيخوا للغرب أو تستجيبوا

لنداء الاحلاف شأن العبيد

حيث يهتف صوت حافظ من وراء التاريخ :

رجال الغد المأمول أنا بحاجة

اليكم فسدوا النقص فينا وشمروا

فكونوا رجالا عاملين أعزة

وصـونوا حمى أوطانكم تتحرروا

فما ضاع حق لم ينم عنه أهله

ولا ناله في العالمين مقصر

أجل لم يكن اجتماع مؤتمر أدباء العرب ، وتناوله لأدق الموضوعات
الأدبية وأخطرها وهو (الأدب والقومية العربية) موضوعا لدراساته
وتوصياته ، لم يكن ذلك الا تقديرا لمكانة الأدب كما أسلفنا وبالتالي
تكريما لرسالة الأديب .

ولقد يكون في رأى استاذنا الدكتور طه حسين عميد الأدب عن

الشعر ومكانته على النحو الذى اوردته فى خطابه ، ابلغ تحية لشاعر
الوطنية حافظ ابراهيم .

يقول الدكتور العميد فى تعقيبته على كلمة لأحد الأعضاء :

«وسمعت من السيد . . أن الشعر أداة للقومية العربية ، وانى
استأذن الأستاذ فى أن ألاحظ أن الشعر ليس أداة لشيء ، وأن الشعر
هو منشئ القومية العربية أولا ،

فأى تحية وتكريم يردان على لسان الأستاذ العميد لشاعرنا الذى
أوضحنا كيف أنه عاش يتغنى بأناشيد الحرية ، ويعمل لهذه القومية
حتى أصبح صاحب الحق فى أن يكون منشئ القومية العربية بذلك الرأى
الحاسم الذى أدلى به عميد الأدب فى الدورة الثالثة لمؤتمر أدباء العرب .

ثم يقول الدكتور طه حسين :

« الشعر هو الذى شارك فى تكوين القومية العربية وتقويتها بعد
أن كونها القرآن »

«ان الأدب هو الذى أتاح لهذه القومية العربية أن تنمو وتزكو ، وتملأ
الارض ثقافة ونورا » .

ثم يحدد الأستاذ العميد وظيفة الأدب حيث يقول :

«فواجب الأدب بالقياس الى القومية العربية هو أن يكون لا مجرد أداة
لهذه القومية ، وانما وفيها لها يؤدى ماكان يؤديه فى العصور الاولى ،
ومازال يؤديه فى هذا العصر »

وقد استبان للقومية العربية وشعبوبها وفاء شاعرنا (حافظ)
لها فيما يقع فى تضاعيف نتاجه الفنى الذى كان ولا يزال حاديا وهاديا
لهذه الشعوب .

واذ ننتقل الى رأى عضو وفد البحرين يتحدث عن الشعر المعاصر
الجديد فيقول :

« اذا سألتمونى الآن ما خطب هذا الشعر الجديد ، قلت ان
لوحته لطخات من الألوان تفيض على غير هدى ، لا يستطيع القارىء
ادراك ما يرمز اليه تشخيص الذاتية الا باستيعاب اللوحة فى نظرة
شاملة . ثم يسرد على الأعضاء شعرا مستحدثا لأحد هؤلاء الشعراء
بعنوان : من شاعر سورى الى مواطن أمريكى .

انى لا أومن . . لا أومن
أبدا بقصائد تستورد
انى لن أخدع لن أخدع
بميسادى عالمك الحر

بالامس اتى هذا الخائب
ليزور تقريراً كاذب
صور فيه سوريا
حمراء اللون شيوعية ! !

*** :

ثم يعاق السيد العضو على هذا الذى اسماه شعرا حديثا بقوله :
افلا يذكركم هذا بقول شوقى رحمه الله :

وللحسرية الحمراء باب
بكل يد مخرجية يدق

وفطنة المتذوق وفطرته تغنى عن التعليق !

أين هذا الذى استشعره السيد العضو فى مقطوعة الشاعر
السابقة من قول حافظ ابراهيم يخاطب المندوب السامى :

الم تر فى الطريق الى كساد
تصيد البط بؤس العالمينا

الم تلمح دموع الناس تجرى
من البلوى ، الم تسمع انينا

كثفتنا عن نواياكم فلسستم
وقد برح الخفاء محايدنا

الى ان يقول فى بيته انلاذع :

على رغم المروءة قد ظفرتم

ولكن ، بالأسود مصفديننا .

هيهات أن يلحق هذا العنان الضارب فى سموات الخيال والاعجاز
لاحق فى هذا الميدان .

ولا يترك الأستاذ الدكتور سليم حيدر ما أورده الأستاذ مندوب
البحرين فى موضوع الشعر الحديث ، بدون أن يعلق عليه بقوله :

قال الأستاذ العريض ، ان الشعر الحديث يشبه اللوحات الفنية
الجديدة التى يجب أن نتمتع بها من بعيد ، وهى لا تتحمل التدقيق والنظر
اليها من قريب ، وهذا صحيح ، ومن المؤلم أن يكون هذا الامر صحيحا .

ويعلن رأيه بقوله :

انا من الذين ينظمون على عمود الشعر القديم ، من صدر ، وعجز
وقافية موحدة وبين الاتقان الفنى الذى يجب للشعر الجديد ، والذى
يقتضى وحدة القصيد ، والايحاء من بعيد أو قريب .

وحدة القصيدة

« ولعل أبرز هزايا الشعر الجديد وحدة القصيدة التي عرفت في الجاهلية ، وفي صدر الاسلام ، ووحدة القصيدة هنا لا تقتضى اندماج البيت في البيت ؛ ولا تقتل وحدة البيت ، اذ أننا يجب أن نفهم وحدة البيت بمعناها الجديد . البيت يكون وحيداً بالمعنى الذي قصده الاستاذ ابراهيم العريض عندما يمكن أن يستل البيت من القصيدة . فلا تفقد المعنى ، ولا يخسر القضية » .

« أما وحدة البيت بمعنى اتقان الصنعة فهذا أمر يجب أن نبقى متشبهين به ؛ فنحن نريد بناء من الحجر المصقول ؛ وكل حجر أجمل من أخيه ، ويبقى متيناً وجميلاً ، وتبقى جميع الاصول الفنية متوفرة فيه » .
ثم يشير الى ما ورد على لسان ممثل وفد السودان الاستاذ عبد الله البنا اذ يقول أن تغيير البحور وتعدد القوافي ، وما ظهر من الشعر الجديد لا يعتبر معركة أساسية ، ويعقب على ذلك بقوله انه الرأي الصائب .

ثم يقول : أعتقد أنه من الظلم للشعر الجديد أن نقصر تجديده على شكل القوافي والأوزان والاستغناء عن القوافي أحياناً ، وهذا الاطار حاول الغرب في القديم أن يخرجوا منه في الشعر الجاهلي . وخرجوا هلى وحدة القافية ، فكانوا يقتطعون كل عشرة أو سبعة أبيات في قافية واحدة . وبعد ذلك أتى الاندلسيون وافتنوا في التوشيح ، أما نحن فنقول أن الاستاذ لم يشأ أن يقدم لنا ، نماذج من الشعر الجديد الذي بهره مما تشبهت به ، وما لا يمكن أن يكون شعراً ، انما هو لون من ألوان الأدب لا يعدو أن يكون نثراً فنياً ان كان في المستوى الذي ينهض به الى هذا المسمى ، وهو ولا شك ثروة أدبية ضخمة ، تعبير صادق للموهوبين الذين لم تعدهم الطبيعة ليكونوا شعراء .

ويتحدث الاستاذ مصطفى عبد اللطيف فيقول : «سواء أكان الشاعر هذا أم ذاك ، فالشاعر الذي نريده هو من يوقد في الناس تلك الشعلة المقدسة قبل أن ينير لهم الطريق الى القومية أو الوطنية - انا نريد ذلك الشاعر الذي تتبلور مبادئه ، والذي تكون له فكرة مستنيرة يسير بها على طريق الحادة » .

ركام من الشعر . . ١

« ولقد سمعنا شعرا عن فلسطين فكان ركاما من الشعر ليس فيه
الا بعض الماسات في زجاج محطم ، وسمعنا شعرا كلاسيكيا عن بورسعيد
- لماذا ، لان الشاعر لا يؤمن بالرسالة ، ولم تجر في دمه هذه المبادئ
الوطنية ، ولا القومية التي ندعو اليها ، قال بعضنا : انه يجب أن
نفتن للشعر أوزانا نفرضها على الشعراء . ولكن اذا كان لابد لنا من ذلك
فلا بد لنا أن نراعي الأصول الفنية في الشعر ، سواء أكان حرا أم
كلاسيكيا ، لان هذه هي المشكلة الحقيقية . فنحن نقرأ بجانب الشعر
الحر الرائق ، شعرا حرا في غاية السخف ، يكتبه جماعة من المقلدين ،
لا يفقهون الشعر الا على أنه تقليد مجرد واذا استمر على هذه الطريقة
فببئس يصبح الشعر لا يعرف تناسبا ، ولا ايقاعا ، ولا نغما ، ولا يسرى فيه
الانفعال . »

الشعر الحر الذي نسمعه الآن ليس بالشعر الجيد كله ، ويجب أن
يكون للشعر عناصره الفنية . وأن يجرى الشاعر في ابداعه بمراحل
عملية الخلق وهي مراحل يعرفها المهووبون من الشعراء معرفة واعية . »

المثل الاعلى للشعر

فما أمتع ما يتحفنا به الدكتور طه حسين عن رأيه في المثل الاعلى
للشعر ، بقوله :

« الناس يخطئون حين يظنون أن أصحاب الجديد لا يرون اللذة
الفنية الا في الجديد ، وهم مخطئون أيضا حين يرون أن أصحاب القديم
لا يجدون اللذة الا في الشعر القديم . فأنا من أصحاب الجديد ،
ومن أشدهم الحاحا في تأيينه والدعوة اليه ، ولكنني على ذلك أجسد
في قراءة القديم لذة لا تعد لها لذة ومتاعا ليس يشبهه متاع - ذلك لان
القديم والجديد لم يستمدا جمالها الفني من القدم والجدة وحدهما . وانما
استمداه من هذا الروح الحالد الذي يتردد في طبقات الانسانية كلها ،
فيحل في كل جيل منها بمقدار ، وهو يتشكل في كل جيل بالشكل
الذي يلائمه ؛ ويتصور في كل بيئة بالصورة التي تناسبها ؛ وهو من
هذه الناحية مصدر وحدة وفرقة للانسانية . »

ويقول :

« للقديم اذن جماله نشعر به نحن شعورا منقوصا ، وكان القدماء يشعرون به شعورا كاملا ، ويستطيع العلماء الذين يقفون أنفسهم على الدرس ويتعمقون فيه أن يجعلوا أنفسهم قدماء يتقنون لغتهم وحياتهم وظروفهم المختلفة ، فيشعرون من الجمال بما كانوا يشعرون به .

ولكن هذا على صعوبته وعسره ، لم يقسم ، ولا ينبغي أن يقسم الا لطائفة قليلة جدا من الناس » .

« لشعر القدماء معنى فى أذواقنا لانه يمثل حقيقة من الحقائق هى حياة القدماء ويمثلها بصورة تلائمها . ولكن الشعر الحديث ليس له هذا المعنى ، لانه لا يمثل حياة القدماء لانه لم ينشأ لتمثيلها » ويستطرد الدكتور فى بحثه القيم . الى أن يفيض علينا من بيانه عن المثل الأعلى للشعر فيقول :

« المثل الأعلى للشعر هو الكلام الموسيقى الذى يحقق الجمال الخالد فى شكل يلائم ذوق العصر الذى قيل فيه ، ويتصل بنفوس الناس الذين ينشد بينهم ويمكنهم أن يذوقوا هذا الجمال حقا فيأخذوا بنصيحتهم النفسى من الخلود »

التطور فى الاندلس

ومعروف فى الدراسات الأدبية وبين أوساط الدارسين لتاريخ الأدب عامة والشعر خاصة أن مدلول التجديد فى الشعر على وجه التجديد فيما تنباقلته آراء الباحثين إنما هو التجديد فى معانى الشعر وأخيلته ، وأسلوبه . . الخ ما بينا ، وهو أمر لم يغيب عن بال المدارس الأدبية التى تسير النهضات طوال العصور ، بل إن هذا هو الاصل فيما حدث فى الاندلس . حين تناول التجديد بناء القريض وعمود الشعر الى الموشحات والزجل وكان سبب هذا التجديد يادى ذى بدء تلك الحياة الجديدة التى تغاير الى حد كبير حياة العصور الخوالى وحاجة الاسماع الى التعبير عن تلك المجتمعات المتطورة بالانسلوب والمعانى والأخيلة التى تتسق معها ، وأن تكون الصور المستوحاة فى القصيد موائمة لصور الحياة . . وأدى الى ذلك تعلق الاذهان والاسماع بالشعر ، وتعشق الشعراء لهذا الفن ونظرتهم الى التجديد فيه والإبداع وهجارة الاقدمين .

ولكن هل استطاعوا أن يزيدوا فى غير مظاهر الحياة وصور الاجتماع المتغير وحالات البيئة ؟

لعل أجزم بأنهم لم يغيروا كثيرا ولم يستطيعوا أن يسبقوا في الشعر
الوجداني . وإنما استطاعوا أن يتوسعوا في مظاهر الحضارة وما يتصل
بالوجدانيات من مباحج ومناظر وآثار المدينة وال عمران .

وحين ابتكر الأندلسيون الأوزان الجديدة في الشعر أحدثوا انقلابا
في الأوزان والقوافي واستحدثوا أوزانا لم تكن معروفة من قبل ، وبهذا
استطاعوا أن يغيروا أو يزيّدوا في بناء الشعر ، ولم يرتبطوا بنظام
القوافي المعروف .

لقد أدخلوا ما أسموه : القريض ، الموشح ، الدوبيت ، الزجل ،
المواليا ، وهي لا تخرج عن تلك النماذج المتداولة والمأثورة عن أدب
الأندلس في جملتها والتي غلب عليها التعريف (بالموشحات)

ويطل الاستاذ الدكتور أحمد ضيف ذلك الى « حب الابتكار والميل
الى الجمال والرفاهية عندهم والذي تناول أوزان الشعر فمزجوا بين
الأوزان المختلفة والقوافي المتعددة في قصيدة واحدة ، وربما ألفوا بين
وزن مخترع ووزن معروف وربما اخترعوا أوزانا مختلفة ونظموا عليها
قصيدة واحدة وقد يلحنون كلامهم هنا ويغنون به لما فيه من خفة الوزن
ورقة اللفظ » .

وقد سقت تعليق الدكتور ضيف لا لأنوه بهذا الدور الخطير من
استحداث انقلاب في أوزان الشعر ، ولا لأشيد بهذا الدور وأحتفل له ، لا
وإنما سقته لأوضح أشياء كادت أن تخفى أهمها :

أن هذا الخلط الذي حدث نشأ في مجال النهضة الادبية لا النكسة
الادبية ، ولأنك لا تجد فيه ذلك الجلال وتلك الروعة التي يتضمنها الشعر
الاصيل الذي لم يتأثر بهذا المزج وذلك الخلط ، ولكي ابين أن هذا كان
مبدأ لانقيار عمود الشعر في الأندلس ، وأن التطور الذي انتهى بالشعر
الى الموشحات تورد عنه ما يعرف بالزجل ذلك الذي أعفى من قواعد اللغة
وملامحها وسمانها وكان مولودا غير شرعي تحرر من عادات قومه وانحسر
عنه ذلك المدى الفطري الذي يحفظ عيبه بهاءه وسموه ، فاذا به (أى
الزجل) يصبح عامية الشعر التي يتسلقها ذوو الثقافات المحدودة والمواهب
التي لم تنضجها الدراسة والتهذيب والتحليق بها

يقول ابن خلدون في مقدمته :

« وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه
وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فنا سموه
بالموشح ينظمونه أسماطا أسماطا ، وأغصانا أغصانا ، ويكثرون منها
ومن أغاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا ، ويلتزمون عدد
قوافي تلك الأغصان ، وأوزانها متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة ، وأكثر
ما ينتهي عندهم الى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها

بحسب الأغراض والمذاهب ، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد وكان المخترع لهذه الموشحات بجزيرة الاندلس اسمه (مقدم) (بن معاذ الفريزي) من شعراء الأمير محمد بن عبد الله المرواني ، وأخذ عنه بعد ذلك ابن عبد ربه صاحب العقد . ولم يذكر لهما مع المتأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما ثم يذكر أن أول من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح وكان يقال لايقاعه : كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

| | |
|-------------------|--------------------|
| بدر تم ، شمس ضحى | غصن نقيا ، مسك شمس |
| ما أتم ، ما أوضحا | ما أورقيا ، ما أنم |
| لا جرم ، من لحا | قد عشيقا ، ثم حرم |

ويذكر انه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمان ملوك الطوائف ، وتبعه ابن ارفع شاعر المأمون ابن ذي النون صاحب طليطلة فطار صيته اذ يقول مبتدئا موشحته :

| | |
|---------------|---------------|
| العود قد ترنم | بأبدع تلحين |
| وشنقت المنان | رياض البسيتين |

ويختتمها بقوله :

| | |
|---------------|------------------|
| تخطر ولا تسلم | عساك المأمون |
| مروغ الكتائب | يحيى بن ذي النون |

ثم يجيء نوع آخر هو الموشحات المذهبة نسوق منها للتطيل قوله :

كيف السبيل الى صبرى وفي المعالم : أشجان
والركب وسط الفلا يا لخرد النواعم ، قد باتوا

وأيضا :

| | |
|----------------|--------------|
| ضحاك عن جمان | منافق عن بدر |
| ضاق عنه الزمان | وحواه صبرى |

ويقول ابن هردوس في موشحة له :

| | |
|-----------------------|---------------|
| يا ليلة الوصل والسعود | بن الله عنودى |
|-----------------------|---------------|

وابن مؤهل :

| | |
|------------------------|-------------|
| ما العيد في حلة وطاق | وششم طيب |
| وانما العيد في التلاقى | منسج الحبيب |

ويعود الدكتور ضيف فيعمل بشيئة الموشحات هي الاندلس واخترائها الى ما تولد في النفس من ميل الى الخلاعة والدعابة في الكلام وشعور الناس من أدباء وشعراء بضرورة الخروج من الأوزان القديمة المروثة ، لضيق تلك الأوزان عن احتمال عبث الشعراء على حسب أهوائهم ، وقد سئم الناس طريقة الشعر القديمة المعروفة ، وحاولوا ابتكار شيء جديد ، فاخترعوا تلك الأوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام في بحبوحة اللهو والطرب والرقص وانشاد الشعر بطريقة خفيفة على النفس ، وقد وجدوا ذلك أدعى الى تحريك النفوس فبدأ بالأوزان العربية الخفيفة ، كالرمل والهزج والمقطوعات وغيروا فيها القافية وولدوا من ذلك الموشحات ، وأباحوا لأنفسهم التغيير في الوزن والقافية فاخترعوا من الأوزان مالا قاعدة له ثم توسعوا في هذه الأوزان وشمل هذا الضرب كل ألوان التسلو واللهو وتمشى في نفوس الناس حتى أصبح نوعا من الشعر العام .

ويواصل الدكتور ضيف قوله في التطور الذي حدث لهذا النوع المبتدع في الشعر بقوله . ثم انتقل الى بلاد البربر وغيرها من بلاد المشرق وكثير من البلاد الاسلامية وانتشرت وتناقلها الكثيرون حتى أصبحت الموشحات قريبة من لغة العامة ، وصارت من كلامهم وأناشيدهم ويقول :

« وكلما قربت من العامة بعدت عن اللغة العربية الفصحى ، وعن الشعر العربي الفصيح ،

« وتأثرت هذه التواشيح بالحياة العقائدية ومجتمع العوام » .

« فلا غرو أن نجد في الموشحات خلطا بين الشعر العربي الفصيح والكلام العامي الملحون ، وكثيرا ما تتخللها عبارات عامية ؛ وعلى غير قواعد اللغة فبيست الموشحات عربية صرفه ولا عامية بحتة ، ثم توسعوا في ذلك حتى تعددت اللهجات وكثير من هذه اللهجات لا يتذوقها من يعرف العربية الفصحى ومن هنا تطرقوا الى الزجل ، ذلك الشعر العامي المعروف .

وقد استطردت في ايراد هذا البحث الخاص بنشأة الموشحات وتطورها لأصل الى هذه الحقيقة . .

تلك التي أفسدت اللغة والشعر وامتدت الى ادخال لهجات ورطانه لا يمكن أن تتسع لهما ثياب العربية الصحيحة .

واذا كان لي أن أعلق على هذا ، فهو ما أريد أن أوضحه للقارىء من أن هذه الفترة الأندلسية أو هذا التطور الأدبي الذي دخل على الشعر العربي فيه بابتداع الموشحات وان عاش فترة طويلة وأبدع فيه

مبدعوه ، وأسأغه سامعوه الا أنه كان كما رأيت من الشواهد مقاطع
ليست بذات خطر في جدية الإنشاء الشعري وجلال القصيدة ، كما
أنها كانت ذات نهاية مفاجئة مطورة للغة لا الى تحسين وارتفاع وادخال
مذاهب مجدية ، وإنما الى استحداث وابتداع ، لا ابداع .

هذا وان كنا لا نفرض عن بعض تلك الموشحات الشهيرة التي
اضطلع بإبداعها وأنشائها المهرة من كبار الشعراء والمبدعين .

فموشحة لسان الدين بن الخطيب التي مطلعها :

جادك الغيث اذا الغيث همي يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما في الكرى أو خلسة المختلس
والتي فيها يقول :

ان يكن جار وخاب الأمل وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول ليس في الحب لمحبوب ذنوب
ويقول فيها أيضا :

تبصر الورد غيورا برمما يكتسى من غيظه ما يكتسى
وترى الآسى لبيبا فهمما يسرق السمع بأذني فرس
حافلة بالمعاني الرقيقة والاسلوب السهل والافتنان في الصياغة
وحوك المعاني .

وكذلك موشحة بن سهل التي يقول فيها :

هل دري ظبي الحمى أن قد حمى قلب صلب حله عن مكس
فهو في حر وخفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس
يا بدورا أطلعت يوم النوى غررا تسلك في نهج الغرر
ما لقلبي في الهوى ذنب سوى منكم الحسن ومن عيني النظر
وهي عربية صريحة تنم عن قدرة صاحبها وثقافته

وكذلك موشحة بن سناء الملك وفيها يقول :

كللي يا سحجب تيسجان الربا بالحلى واجعلي سوارك منعطف الجبول

وبعد فان الداعين الى الشعر الجديد على عهدنا هم أمثال تلك
الجماعة التي تستخدم العامية واللهجات وتنزلها منزلة الشعر ، بل
ويقارب ما يكتبونه ويدعون انه شعرا ما هو معروف بالزجل .

وان جاء عربيا فصيحاً الحق بالنثر الفنى حيث أنه متحلل من كل
وزن أو قافية .

صيداح الوطنية

ليس بغريب على شاعرنا (حافظ إبراهيم) أن يمدح صديقا له في تهنئة ، أو تحية لمناسبة من المناسبات أو غرض من الأغراض ، أو أن يتناول موضوعا اجتماعيا ، أو دينيا ، أو قوميا فيضمنه احساسه ومشاعره نحو وطنه ، وإن كان مقام القول ومناسبة بعيدين كل البعد عن التغني بأمجاد الوطن واستثارة ذكرياته .

أجل ، ليس ذلك بغريب ولا عجيب على شاعر الوطنية ، فقد كان الوطن أمرا يعتلج في نفسه ، ونارا تهيج خواطره .

كان وتره كلهمة الطائر ، يستثيره الحنين ، ويهيجه الشجن ، فهو على طرب دائما وفي ترويم ، وهو بين هذا الطرب والترنيم ، متصل المشاعر بقوميته ، لا يتخلى عنها ولا تتخلى عنه .

يهنى صديقا له بامارة الحج ، فلا ينسى أن يضمن شعره الهاتف الحفي المستكن في نفسه فينشده :

هزك البنت الحرام له هزة المشتاق للوطن

ويهنى الأستاذ الامام بمنصب الافتاء ، فلا ينسى وطنه وأمته في قوله :

وخفضت من حزني على مجد أمة تداركتها والخطب للخطب يعتلى

ليس من صميم الوطنية أن يشير الشاعر في قصيدة يحني بها واصف غالى عندما نشر كتابه المعروف (بحديقة الازهار) الذي ترجم فيه بعض الشعر العربي القديم الى الفرنسية ، وكان يشيد بذكر مصر ، وتناجها الأدبي في محاضراته التي كان يلقيها بفرنسا عن مصر والشرق ليس من صادق وطنيته أن يتخذ من هذا الموضوع الشخصي موضوعا قوميا :

غرسنا من زهورات الشرق طائفة

في ارض (هوجو) فجاءت طرفة الجاني

بالأمس كان لها شرق تضيوع به

واليوم صار لها بالغرب شرقان

ثم يعقد مقارنه بين شاعرين فرنسيين وآخرين عربيين .

سبل (الفريد) و (لامرتين) هل جريا مع (الوليد) أو (الطائي) بميدان
وينوه بموقف واصف غالى فى الدفاع عن آداب العرب فى قوله :
وقفت تدفع عن آدابنا تهما كادت تقوض منها كل بنيان
فكنت أول مصرى أقام لهم على نبالة مصر ألف برهان
مازلت تلقى على أسماعهم حججا فى كل ناد ، وتأتيهم بسلطان

وفى هذه القصيدة يرد حافظ على قالة الفرنسييس ودعواهم من قصور
الادب العربى عن استيعاب فنون الشعر ، فألجمهم الحجة اذ يقول :

محوت ما كتبوا عنا بقاطعة من البراهين فلت قول (رينان)
أنهى على الأدب الشرقى مفتريا عليه ما شاء من زور وبهتان
ظن الحقيقة فى الأشعار تنقصنا واللفظ والقصد والتصوير فى آن
وأننا لم نضل منها الى مئة عدا ، وذاك لقصد أو لنقصان
ولو رأى «ابن جريج» فى قصائده لقال آمنت فى سرى واعلانى

بمثل هذا الحجاج كان ينافح الشاعر عن وطنه ، يتصيد الفرصة
ليبدل بحجته فيخرس السنة المهاترين .

شكسبير

ولم يكن حافظ يعيش بعقلية عصره فحسب ، وإنما كان يسبح
بخياله فى قضايا العالم وشواغله مما يشغلنا نحن الآن من انحراف عن
أسس الحضارة ، وتسخير العلم للتدمير ، اقرأ معنى أبياته فى تحية ذكرى
شاعر الانجليز (شكسبير) ناعيا على الحضارة الزائفة تسخير العلم لغير
ماوضع له وما يرجى من خير به :

فليتك تحيا يا أبا الشعر ساعة
لتنظر ما يصمى ويدمى ويؤلم

وقائع حروب أجه العلم نارها
... فكاد بها عهد الحضارة يختم

ولعله كان يشير من طرف خفى الى تلك الائمة يتنسب اليها الشعراء
منددا بمنهجها فى اهراقها دماء الشعوب واستنزاف أموالهم بالحروب
والاستعمار :

أفق ساعة وأنظر الى الخلق نظرة
تجدهم وان راق الطلاء هم م

هل ظهرها من شر أطماعهم دم
وفوق عباب البحر من صنعهم م

غسيرة

ومن غيرته على أمجاد أمته وتاريخها الحافل ، أن يشير في أبيات له
نظمها في زيارته لآثار الفراعنة . يشير اليهم وقد عرضوا على النظارة ،
في متحف الآثار ، فينكر على قومه اهدار مكانة هؤلاء الملوك الذين كان
لهم شأن في تاريخ مصر :

| | |
|-------------------|--------------------|
| قد زرت متحف مصر ، | في ظهر يوم الخميس |
| في زمرة من رفاق | غر الشمائل شوس |
| فضقت ذرعا بأمر | على النقبوس بثيس |
| رأيت جذعة خوفو | بقرب (سيزوتريس) |
| فقلت يا قوم هذا | صنع العقوق الحسيس |
| أجساد أملاك مصر | وششائدى منفيس |
| من بعد خمسين قرنا | لم تسترح فى الرموس |

ويهتز الشاعر أسفا ، وحزنا على ذلك المشهد من اذلال الفراعنة
وعرضهم على الناس على النحو الذى يجليه فى هذه الأبيات :

| | |
|-----------------|-----------------|
| أرى فراعنين مصر | فى ذلّة ونحوس |
| معروضّة للبرايا | أجسادهم بالفلوس |
| فديس ظلما حماهم | وكان غير مدوس |

ثم ينبه الى ما هم أولى به من تكريم واعزاز فى قوله :
لنر أن أمثال مينا فى الغرب أو «رمسيس»
بنوا عليهم وخطوا --- حظائر التقديس

سعد زغلول

كان حافظ وقاد القريحة حين يصول فى ميدان الوطنية ، وكان فنه
مسعفه ومواتية وكانت خاطرته مطاوعة له اذا ما جلس وتره ليشندو بأغاني
وطنيه فى قوله . يجيى سعد زغلول :

| | |
|--------------------------|--------------------------|
| الشعب يدعو الله يا زغلول | أن يستقل على يدك النيل |
| فاوض فخلفك أمة قد أقسمت | ألا تنام وفى البلاد دخیل |

ويحذر المفاوض المصرى من ختال الانجليز ، وخدياعهم ، وهل يحذق
هذا الفن غيرهم ؟ أو يعرف خباياهم سيوى شاعرنا ! وقد خبرهم فى

السودان ، وهو يعمل مع رجالهم العسكريين والسياسيين انه يحذر سعدا
من ذلك النهر الذى يسمى (التاميز) وينبئة الى ما قد يغرز به ، والى عمق
السياسة الانجليزية ودقة خيوطها ، وخفاء وسائلها بقوله :

لا تقرب التاميز ، واحذر ورده مهما بدا لك أنه معسول
الكيد ممزوج بأصفى مائه .. والختل فيه مذوب مصقول
ولهم أحابيل اذا ألقوا بها قنصوا النهى فأسيرهم مخبول
فأحذر سياستهم وكن فى يقظة سعديه ان السياسة غول
وما أبرع ما تواتيه القريحة فى قوله :

ان مثلوا فدع الخيال فانما عند الحقيقة يسقط التمثيل
الشبر فى عمر السياسة فرسخ واليوم فى فلك السياسة جيل
ولكل لفظ فى المعاجم عندهم معنى يقال بأنه معقول
الى آخر ما أورده الشاعر فى قصيدته مما يصلح لأن يطبع بوزارة
الخارجية وينداع على السفارات على أنه نصائح شاعر ، وان كان أبطال
السياسة يحذقون هذه الفنون ، ويسرون أغوارها .
ولله در الشاعر وهو ينعى عليهم دولتهم فى قوله :

لكنكم دولة شهد الصبح جلالها وأتى عليها الليل وهى ملول

لطفى السيد

ولا ينسى وهو يقدم تحية الى أستاذه احمد لطفى السيد أن يغمز
مزهره الوطنى فينشده :

انا نساخيل أمة اقطابها أسد ضواري
عركوا الزمان وأهله وتحصنوا من كل طاري
أمست سياستهم كطلسم يحسب كل قناري

لا بل ، انه يهدى بأبياته الى صديقه (حفى محمود) فيهتف بوطنه
من حيث لا يعنى :

ان رشحوك فانت من بيت رمي بسهامه عن حوزة الاوطان
وكان الشاعر مشوقا الى يوم الخلاص فى قوله :

وتنظري ان الخلاص مجتسم فالله أسلم أمنرنا لموفق

رحين يحيى شوقى بقصيدته التى مطلعها :

بلايل وأدى النيل بالشرق اسجعى
بشعر أمير الدولتين ورجم

يهتف :

لدى كل شعب فى الحوادث عدة وعدتنا ندب التراث المضيع
ليأ ضيعة الأقلام إن لم تقم بها دعامة ركن الشرق المتزعزع
هزى عليه يابنى الشرق أن ترى كواكب فى افقه غير ظلم
وأعلامه من فوقه غير خفق وأعلامه من تحتها غير شرع
وكيف يوقى الشر لاو يبلغ المنى على ما ترى من شمله المتصدع
ويصل الى ذروة البراعة الفنية المشوبة بالشعلة المقدسة شعلة
الوطنية :

فان كنت قوالا كريما مقالة
فقل فى سبيل النيل، والشرق، أودع

جهاد المرأة

ولا ينسى أن يحيى جهاد المرأة ويرسم لها الطريق لبناء مصر
الحديثة ، انه يحيى جميعه المرأة الجديدة بلمسات الزهر الوطنى المعبر :
يقولون نصف النيل فى الشرق عاطل نساء قضين العمر فى الحجرات
وهذى بنات النيل يعملن للنهى ويفرسن غرسا داني الثمرات
ويسجل للمرأة صدق الكفاح :

وفى السنة السوداء كنتين قدوة لنا حين سال الموت بالمهجات
وقفتن فى وجه الخميس مدججا وكنتن بالايمان معتصمات
وما ها لكن الرمح والسيف مصلتا ولا المدفع الرشاش فى الطرقات
تعلم منكن الرجال ، فأصبحوا على غمرات الموت اهل ثبات

فكتور هوغو

وحين يتغنى حافظ بالحرية ، ويدافع عنها ، ويضامنها
موضوعاته ، يؤدى رسالة ندب لها ، يتحدث عنها ، وهو يشير الى
نقى « فكتور هوغو » حين نفاه لويس بوناپورت عام ١٨٥١ .

هاف في متفهام ان يدنو به عفسو ذاك القيساهر المقتصب
 بشروه بالتسداني ونسوا انه ذاك العصنامي الابي
 كتب المنفى سبطرا للذي جاءه بالعفو ، فاقنرا واعجب
 أبرى عنه بعفو مذنب ؟ كيف تسدى العفو كف المذنب ؟
 ثم يندد باعتقال الموقوف ، والحجر عليها ، واثر « هوجو » في
 تحريرها .
 جاء ، والاحلام في اصفادها مالها في سجنسها من مذهب
 طبع الظلم على اقفالها بلظاه خاتما من رهب
 جاءها « هوجو » بعزم دونه عزة التاج ، وزهو الموكب
 وانبرى يصعد من اغلالها باليراع الحبر ، لا بالقضب
 هاله الا يراها حنرة تمتطى في البحث متن الكوكب

مصر ، والعراق

وهامي الوحدة العربية أغنيته المحببة الى نفسه ، يرددها على
 قيثائر مختلفة وبألحان متنوعة :

استمع الى هذا الوتر :

النيل ، وهو الى الاردن في شفق يهدي الى « بردى » اشواق ولهان
 وفي « العراق » به وجد « بدجلته » و « بالفرات » وتحنان « لسيحان »
 ان دام ما نحن فيه من مدابرة وفتنة بين اجناس ، واديان
 رايت راى المعرى حين ارهقه ما حل بالناس من بغى ، وعدوان
 لا تظهر الارض من رجس ومن درن حتى يعاودها نوح بطوفان

وتقف هنا وقفة قصيرة ، لنسجل لشاعرنا تحيته للدكتور طه
 حسين بعد ان فصل من الجامعة
 قد اجذبت دار الحجا والنهى بعسك من آرائك النفاة
 وانصبت أرجاء مصر بمن صنير مصرا كلها جامعة

شعر لم يف بالقصد

وهو في رأيي انه شعر لم يف بالقصد ، فالدكتور طه عميد البيان ،
 وهذا الإيجاز فيه تكلف ظاهر ، ودون قدر الدكتور طه حسين .

هل ينساب القريض في انشاده بتحية الدكتور طه حسين كما
ينساب في قصيدته التي يحيى بها المقتطف ، وشيخيه ، « نمر » ،
« صروف » :

| | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| شيخان قد خبرا الوجود ، وادركا | ما فيه من علل ، ومن اسباب |
| واستبطننا الاشياء حتى طالعا | وجه الحقيقة من وراء حجاب |
| خمسون عاما في الجهاد كلاهما | شاكى اليراعة ، ظاهر الجلباب |
| لا تعجبوا أن خضبوا قلميها | وبياض شيبهما بفر خضاب |
| فلكل حسن خلية يزهو بها | وأرى اليراعة خلية الكتاب |

الى آخر تلك القصيدة التي تربو آياتها على الخمسين .
اقول ، هل كان حافظ في تحيته للأستاذ العميد صادق
العاطفة ، أم انه استجاب لدعوة طلبة الجامعة في اشتراكه في تكريم
العميد المفصول بهذين البيتين ؟

أما كان يستحق هذا الموقف الرائع ، الذي انتهى بالدكتور
العميد الى حرمان الجامعة منه في ذلك الحين ، الى أن ينشد حافظ
في تكريمه ما يستأهله علمه وفضله ووطنيته من تقدير ؟

* * *

وحين يكرم الشاعر ينشد في المحتفلين به قصيدته التي
مظلمها :

ملكتم على عنان الخطب وجزتم بقدرى سماء الرتب
كان ذلك في عام ١٩١٢ ، وسجل الشاعر ما يستشعره في
نفسه من حق مصر عليه فيقول :

أسمى الى حماة القريض وتمشى الى سراة العرب
وتنظم في عقود الجمان وتنشر فوقى نثار الذهب
وأكرم حتى كائنى نبى نخت وقمت لمصر بما قد وجب
يرى حافظ أن تكريم الشعب له ، يجب أن يقوم على قدر
قضائه حق الوطن عليه ، فياله من مكرم ، ومكرم .

مزهر الوطنية في مراثيه

في مطالع هذا القرن كان حافظ ابراهيم على موعد مع دعوة التحرير التي هتف بها قلب العروبة ، وقد اشتهر مع حافظ في الثلث الاول من القرن العشرين شوقي ، وصبرى ، ومطران ، وهم الشعراء الاربعة الذين اجادوا وابدعوا وسايروا النهضة الحديثة ، وكونوا دعامتها في الشرق .

واذا كان الشرق في تلك السنين التي لمع فيها هؤلاء الاعلام ، قد عانى من صراع المستعمر ، وصياله ، ما يعرفه الخاصة والعامة ، فان هذه الاوتار قد تركت للامة العربية ذخيرة من الآداب والفنون ، لم يتح لها في غير هذه الظروف ، أن تفوز بمثل نفائسها .

ولقد أخذ كل شاعر من هؤلاء بحظه في تخطيط رسالته في الشرق على النحو الذي اتجهت فيه ملكته وطريقته ، بل ومدرسته ، فانهم وان التقوا على ميعاد ، وفي عصر واحد ، وأمام ظروف موحدة فقد ضرب كل حيث نزعته به فطرته ، وحيث تأثرت حياته وإذا أفردنا بحثنا اليوم لاحد هؤلاء الشعراء الاربعة وهو حافظ مكتفين به ، فأنما كان ذلك ، لأن منهج البحث قد وضع له فليس ذلك لتفضيل أحدهم عن صحابته .

وحين نتحدث عن حافظ الشاعر ، نعود الى نشأته تلك التي تميزت بالنشأة المصرية الشعبية .

وحياة حافظ تلك التي كانت مضطربا بين الصعيد ، والقاهرة ، وطنطا ، ثم ذهابه الى السودان ، وعمله بالجيش المصرى بالسودان ، وبعده عن الامراء ، وتشبيته بالاندماج بالشعب اندماجا تاما ، هيا له الوقوف على مشاعره ونزعاته ، واتصاله بزعماء النهضة الفكرية والوطنية . أمثال محمد عبده ، وسعد زغلول ، ومحمد فريد .

كل ذلك وجهه الى التعبير عن أمجاد مصر . وتجاوبه معها في كفاحها ضد الغاصب . فكان حافظ لسان مصر ، وضمير الشعب يتحدث عنها ويتجاوب مع أهداف الوطن ، وصيحاته . بما آتاه الله من فن بليغ في القول ، والبيان ، ومناحي الابداع الشعرى .

واتخذ حافظ من الرثاء مظهرًا من مظاهر الوفاء للقادة
والمصلحين وكان لقصائده احتفال ، واهتمام ، من الشعب ، حيث
يلقيها في المحافل العامة . والمناسبات الوطنية .

كان حافظ ينفث سحره في الشعر ثم يرسله ليطوق به القلوب
فما تستطيع عن تأثيره فكأ . كان يأسرها ، ويأخذها ببرهانها ،
فشعره متصل بشجون الناس وشئونهم ، وشئون الشرق وآلامه .
وهو فوق ذلك ثائر ثورة المتجاوب مع هذه الشجون والآلام ، فكان
حزنه حين يحزن ، وآلمه حين يآلم ، وغضبته حين يشور وينفعل ،
من ضمير القلب وشعاعه النفس .

والروابط الوثيقة ، والصلات التي كانت تربط حافظًا بأستاذه الامام
واضرابه من الزعماء والقادة وأصحاب التوجيه ، ومن تلقى عنهم دروس
الوطنية على عهده ، هذه الروابط وتلك الصلات ، كانت تنمو ، وتزكو ؛
وكان حافظ وفيًا شديد الوفاء حين كان يبكي علما من اعلام مصر الذين
تأثرهم وفارقوه .

بل لقد كان تعبيره من ذلك اللون الذي نشده من الحزن والآلم
فيما يبثه سياسياته ، وما يودعه قصائده في مصاب الشرق ، وما
يحفظ به من كوارث ومحن .

فصلاته بهؤلاء الوطنيين الذين كانوا يوجهون الشعب ،
ويبصرونه بشئونه ، وحقوقه ، كانت صلات مشتركة ، وروابط
وطنية ، وإنسانية تربطه بهؤلاء . فاذا ما فقد حافظ أحد هؤلاء
الاعلام ، انتقل من الرثاء والبكاء الى تضمين قصيده الاثر الذي تركه
هؤلاء في نفسه بعد وفاتهم والقراغ الذي خلا بفراقهم ، وبحاجة
الوطن اليهم ، نزعات وطنية صادقة ، ومشاعر إنسانية عليا .

يقول الدكتور طه نجسين : أبيات حافظ في رثاء الامام الشيخ محمد
عبده حين يقول :

| | |
|--------------------------------------|------------------------------------|
| سلام على الاسلام بعد مختنم | سلام على الاسلام على أيامه النظرات |
| على الدين والدنيا ، على العلم والحجى | على البر والتقوى ، على الحسنات |
| لقد كنت أخشى غاذى الموت بعده | فأصبحت أخشى أن تطول حياتي |
| فوا لهفى ، وألقين بيني وبينه | على نظرة من تلكم النظرات |
| وقفت عليه حاسر الرأس خاشعا | كأنى حيال القنبراء في عرفات |

لقد جهلوا قدر الامام فاودعوا تجيب اليده في موحش بقسالة
ولو ضرحوا بالمسجدين لا نزلوا بخير بقاع الارض خسر رفات

يعلق الدكتور طه حسين على هذه الابيات بقوله :

« في لفظ هذه الابيات من الروعة والرصانة ، ما عرفناه في شعر
حافظ كله أو اكثره ، ومعاني هذه الابيات مألوفة شائعة ، ليس فيها
غرابة ولا ابتكار ، ولكن في الابيات مع ذلك شيء لا أدري ما هو ، يملأ
النفس روعة ولوعة ، والقلب أسى ، بل أنا أدري ما هو ، هو قبس من
هذه النار التي كانت تضطرم في نفس حافظ حزنا صادقا على صديقه ،
ووليّه واستاذّه ، نفذ هذا القبس الصادق في هذا الشعر العادي فجعله
حزنا كله . »

أجاد حافظ في رثاء الأستاذ الامام ، وفي رثاء مصطفى كامل ، لأن
الأول كان فقده رزاً في عظيم من عظماء الدين ، ومن عظماء النهضة
الفكرية ولأن الثاني كان فقده رزاً في عظيم من عظماء السياسة .
فكان حافظ في رثائهما . ناطقا بلسان الجماهير .

وبراعة حافظ في تصوير آلام الشعب اكسبت شعره السياسي ،
ورثاءه لأصحاب السياسة لونا من الخطابة يمنحه قوة غريبة ، تسيطر
حقا على نفوس الجماعات فتفعل فيها الاعاجيب .

ويسوق الأستاذ العميد أبياتا من شعر حافظ في رثاء مصطفى كامل
يستشهد فيها على براعته وكيف ان الشاعر استحضر فيها شخص الزعيم
يحف به الجلال والعظمة في قوله :

انى أرى وفؤادى ليس يكذبني روحا يحف به الاكبار والعظم
أرى جلالا أرى نورا أرى ملكا أرى محيا يجيئنا ويبتسم
الله أكبر هذا الوجه أعرفه . . هذا فتى النيل هذا المفرد العلم
غضوا العيون وحيوة تحيته من القلوب اذا لم تسعد الكلم
لبيك نحنن الالى حركت أنفسهم لما سكنت ، ولما غالك العنيد
جئنا نؤدى حسابا عن مواقفنا ونستعد ونستعدى ، ونحتكم

يشير الدكتور طه حسين الى هذه الابيات بقوله :

« هذه أبيات لو قراها ارستطاليس صاحب الخطابة ، ومنشئ علم
البيان لما تردد أن يتخذها مثلاً لما يسميه في الكتاب الثالث « وضع
الشيء تحت العين » . »

رحم الله حافظا ، لم يكن رثاؤه صورة لما يثور في نفسه ونفس
الناس من حزن فحسب ، وإنما رثاؤه يصلح مصدرا من مصادر
التاريخ السياسي والاجتماعي في هذا العصر . فقد كان حافظ يبالغ
ويغلو ، ويطبع الخيال ويضطر الى المحال ، ولكنه رغم هذا كله ،
لم يكن يفسد الحقائق . . ولا يعبت بها . وإنما كان مؤرخا صادقا للحوادث
في رثائه وشعره السياسي ، كما كان مصورا متقنا للنفوس .

كان حافظ حين يبكي علما من أعلام العروبة ، يفيض بشجوة
يستثير الالم ويجمع القلوب حول مصاب الشرق في آماله وقادته ،
وكان يبكي الآمال وأحلام الأمة في عالم العروبة التي عاش ينافح
عنها :

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجفة وفاضت عيون الكون بالعبرات
ففى الهند محزون ، وفى الصين جازع وفى مصر بكاء دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع ، وفى الفرس نادب وفى تونس ماشئت من زفرات
يبكى الإمام الشيخ محمد عبده بهذه الأبيات ، انه يصور فيه
الشرق كله والدين الحنيف .

تباركت هذا الدين دين محمد اترك فى الدنيا بغير حمالة
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ولانت قناة الدين للغمزات
انه الوفاء ، وحق الوفاء . فى نفس شاعر الحرية والوفاء .

حافظ ومطران

- وواجب الوفاء والتقدير لهذا الشاعر الملهم يقضى بأن نشير الى
ما اعتلجت به خواطره ، وأنشأت به مشاعره فى عام ١٩١٣ ، أى فى مدى
نصف قرن تقريبا يكرم زميله وصديقه شاعر القطرين (خليل مطران)
ويضمن هذا التكريم معانى كريمة من صلات القربى بين أبناء العروبة :

نعرض هذه الطرفة الفنية على أعين القراء لنجلو صفحة فخر
لحافظ الذى تغنى بوحدة القطرين من نصف قرن ، وقد كان حلما من
أحلامه يتمناه للشرق .

وقصيدته التى نعرضها اليوم تعبر تعبيرا صادقا عن مشاعر حافظ
نحو العروبة وهى مشاعرنا اليوم ، مشاعر الأمة العربية المتحدة .

مصر والشام

يصور حافظ مصر ، والشام بروضتين زارهما ، وتنقل بين
تخماثلهما في جنة العروبة المزهرة .

جواز بن عرفها فهاج الغراما ودعاني فزرتها المناما
جنة تبعث الحياة وتجلو صدا النفس رونقا ونظاما
وتنقلت في خمائلها الخضر يميننا ويسرة وأمامنا
فاذا روضتان في ذلك النرو من تمسيان تحت ريع الخزامى

ثم يواصل سيره في هاتين الروضتين ، ويتلفت على حوريتين تمثلان
سورية ، ومصر : تتناجيان على النحو الذي صاغه خيال الشاعر
الفنان :

جاءتا تخطران ، والنجم ساه وعيون الازهار تبغى المناما
جازتا موضعى فهب نسيم اذكى منى الاسى وهاج الهياما
فترسمت فيهما اثر الخطو وخافت في المسير احتشاما
وتسسمت علنى اطفئ الشمو ق وأروى من الفؤاد الأواما
فاذا لهجتان من لهجات الشر ق ، قد شاقتا فؤادى فهياما
تلك سورية تفيض بيانا تلك مصرية تسيل انسجاما
مالتا تحت دوحة ترسل الاغصا ن ، واختارتا لديها مقاما
ثم ألقت قناعها بنت مصر وأماطت بنت الشام اللثاما
ظننا ذاك المكان خلاء لا رقيبا يخشى ولا نماما
فجرى فيه ما جرى من حديث كان بردا على الحشا وسلاما
حين قالت لاختها بنت مصر انكم امة ابت ان تضامما
تمتطون الخطوب في طلب العيش وتبرون للنضال السنهاما
فانبرت ظبية الشام وقالت بعض هذا فقد رفعت الشاما
انتم الاسبقون في كل مرمى قد بلغت من كل شأو مراما
انما الشام والكنانة صنوا ن رغم الخطوب عاشا لزاما
امكم امنا ، وقد ارضعتنا .. من هواها ، ونحن نأبى الفطاما
قد نزلنا جواركم فحمدنا منكم الود والتبدي والذماما
وحللنا فء ارضكم فأصبنا منزلا مخصبا ، واهلا كراما

وغشينا دياركم حيث شينا . فلقينا طلاقة وابتساما
وشرينا من نيلكم فنسينا ماء لبنان سلسلا والغماما
وقبينا من نوركم فكتبنا واجدنا نثارنا والنظاما
فأشارت فتاة مصر ، وقالت قدك ، لم تتركى لمصر كلاما
انتم: الناس قدوة ، ومضاء ونهوضا الى العلا ، واعتزاما
اطلعت ارضكم على كل افق أنجما اثر انجم تترامى
نحن في حاجة الى كل ما ينمى قوانا ويربط الارحام:

وهذه قصيدة حافظ حين كرمه السوريون بفندق شبرد تقديرا
لمكانته وشعره :

وحسبه فيها ، أنه عبر عن تلك الحقائق التي كان يرهص لها من
نصف قرن ، وهي آئذ آمال ، وأحلام .

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هنا العلا ، وهناك المجد والحسب .
ركنان للشرق لازالت ربوعهما قلب الهلال عليها خافق يجب .
خدران للضاد لم تهتك ستورهما ولا تحول عن مفاهما الادب . .

الى أن يقول في ترديد الشاعر الكريمة بين الشعب الواحد في
البلوتين :

إذا ألت بوادي النيل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب .
هذى يدي عن بنى مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب .
ففى الكنانة بل فى الشام عاج على ربوعها من بنىها سادة نجيب .

حافظ والجللاء

واكبر ظنى أن يوم جـلائهم ويوم نشـور الخلق مقترنان:
بهذا الاسى على حق الوطن فى جلاء الفاصب عنه ، وآته سيظل
جائما على صدرنا ، وأغسلا فى عظامنا كسرطان عياء ليس له دواء ، جرى
وتر الشاعر .

واكبر ظنى أن يوم جـلائهم ويوم نشـور الخلق مقترنان
لقد كان حافظ ضابطا فى الجيش فهو عليم بخفيايا أمورهم ،
واسرار سياستهم ، وما افتنوا فيه ، من وسائل والأعيب فكان حذسه
وظنه بهم فى تقريره هذا الذى يسوقه بوضوح وجلاء فى أنهم قوم
ناكثون للعهود مضيعون لها ، فهم ماكثون فى أرضنا الى يوم النـشـور
وهل يظن خيرا بمثل أولئك اللثام ، كيف يظن بهم خيرا وهو يدمغهم
بالحجة البالغة ، فسياستهم واحدة فى كل مكان ؟ .

ارى مصر والسودان والهند واحدا بها «اللورد» و«الفيكونت» يستبقان
ولكنه يستدرك ، فيضع الدواء الناجع لهذا الداء يصفه لمصر
صربحا مربحا ، الدواء الوحيد الذى خبره مع المستعمر ، ودرس به
سجيته ، انها القوة وحدها . لقد كان رجال الثورة على بينة من هذه
الحكمة ، وكانوا أسبر غورا من شاعرنا هذا وأبعد دربه وكفاية . يقول
حافظ يصف الدواء لهذا الاحتلال :

إذا غاضت الامواه من كل مزبد
وحزت بروج الرجم للحدثان . .
وعاد زمان السـمـهري وربى
وحكم فى الهيجاء كل يمانى ؟
هناك اذكرا يوم الجلاء ونبها
نياما عليهم يندب الهرمان

وتشوف الشعب ليوم الجـلاء يظهر فيما يسجله حافظ من
دراساته لمواعيد عرقوب التى كان السادة الانجليز يعتنقونها ، ويخدرون
بها وطنية الشعب ولا يرى فيها حافظ الا إكذوبة ابريل المشهورة .
اقرا معى تنديده بكاتب فرنسى كان قد زعم أن جلاء الانجليز
اقرب مما ، يتصوره ، غلاة الوطنيين ، ف ضرب له موعدا حددده بشهر
أكتوبر ، فيسخر منه الشاعر بقوله :

كم حددوا يوم الجلاء الذى أصبح فى الابهسام كالحشر
وسن قوم الطيش من جهلهم كذبة (ابريل) لاكتوبر)

حافظ ، ومظالم اسرة محمد على

ذلك ما يرقمه الشاعر ويسجله في تضاعيف شعره عن هذه الاسرة
التي غرقت في النعيم الى اذقانها ، وطامنتها الايام عهدا عهيدا في حين
تسترقب الشعب المصرى ، وتسومه الهوان ، وتقنص من المغنم ، ما يطيب
للوكرها ، وحواشيها ، من المال والمتاع ولذائد الحياة ، في بذخ ، وسعة ،
ويطر بنعمة الله سبحانه .

يرسم الشاعر الساخر بريشة الفنان لوحة بارعة ، يصفى عليها
من صريح مصريته الالوان ، والظلال ، والملاح ، ويوضح الخطوط
والمعالم لتخرج الصورة بمرائيها على القلوب والنواظر .

يخاطب عميد الدولة المتسلطة « انجلترا » مشيرا الى عهد
اسماعيل .

لقد كان فينا الظلم فوضي فهلبت حواشيه حتى بات ظلما منظما
تمن علينا اليوم ان اخصب الثرى وان اصبغ المصرى حرا منعمنا
أمد عهد «اسماعيل» جلدا وسخرة فاني رايت المن انكى والمنبى

يرحب الشاعر بالجلد والسخرة على يد الاسرة الخاسرة مخسنا
الظن بها في انتسابها لمصر . ويأنف المن والتسلط المستخفى الذي يسوم
به الفاشم الشعب ويديقه هوانا بحلق وكياسة ، فان نال الشعب خيرا
بجده وعمله من عليه ونسب الفضل وحسن الاحدوثة له . وهو
لا يأتى بخير أبدا .

وأى نياط يتفطر عنها قلب الشاعر لمواطن شهم مغلوب على أمره
وهو ينشد :

عملتم على عز الجمساد وذلتنا فأغليتم طيننا ، وأرخصتم دما

وتصل سخريته الى فلسفة التعبير اذ يوضح حال البلاد والانهياب
الاقتصادى الداخلى بسبب الاستعمار . في ظل حكام مصر ممن يعاونون
المستعمر ويشدون من أزره . وهو يصور حال البلاد على تلك العهود :
فهش الى الدينار حين اذا مشى به ربه للسوق الفياه يرهينا

ينعن شاعرنا على الانقلاب والرتب ، وهو الذى كان يحمل رتبة
البيكوية وكان يلقب (بحافظ بك ابراهيم) اى انه نال هذه الدرجة
المشرفة على عهده لعلية القوم ممن نالوا الحظوة ، ولكنه كان يكن سرا
فى نفسه ، انه يحقر تلك المظاهر الخادعة . وينعى على الوطن مثل تلك
الصور الزائفة للطلاء .

وهل فى مصر مفخرة سوى الانقلاب والرتب !
بل لقد دعا الى الإصلاح العام ، ونادى بالتطهير الذى سارعت
الثورة اليه عقب التحرير فى قوله :
وذى آرث يسبب كاثرنا . بمال غير مكتسب

حياد الذئب

أخذت مصر بمبدأ الحياد بين الكتلتين الشرقية والغربية وحملت راية السلام بين الشعوب ، ونظمت لذلك مؤتمرات الشعوب الحرة لا مؤتمرات الذئاب لتخليص الانسانية ، من تسلط القوى على الضعيف ولرفع نير العبودية عن كواهل الشعوب المغلوبة على أمرها .

بهذا المنهج الواضح جاء حيادنا ، تخطيطا لمثل عليا تفيض على الانسانية خيرا ، وأمانا وسلاما ، وتشجيع عدلا ، ويمنا .

ولكن كلمة (الحياد) كانت تستخدم على عهد المستعمر مخدرا للشعوب ، وستارا يخفى المستعمر تحته الاعيبه ، وما أعده من نكال لها .

ولم يفت شاعرنا ، وكأنه كان يحصى عليهم حركاتهم ، ويعيد لهم انفسهم — لم يفته أن يسجل عليهم ماخفروا من عهد ، ومانقضوا من عود . ناعيا عليهم التشديق بهذه الكلمة المضيئة في حقيقتها ، والتي جملوها بالسواد حين اتخذوها دريئة للعبث ، وختالا للشعوب الحرة :

أبعد حياد لا رعى الله عهده
وبعد الجروح الناعرات وثام

إذا كان في حسن التفاهم موتنا
فليس على باغى الحياة سلام

ويعيد عليهم التقرير ، مسفها أحلامهم ، كاشفا عن الاعيبهم ساخرًا من مكرهم ، منكرا عليهم أن يتحدثوا بين الشعوب عن الاخلاق .

لا تذكروا الاخلاق بعد حيادكم
فمصائبكم ومصائبنا سيان

ويقول :

لقد طال الحياد ولم تكفوا أما أرضناكم ثمن الحياد ؟
أخذتم كل ما تبغون منا فما هذا التحكم في العباد ؟
ولله در الشاعر وبيانه في الذروة يسخر بالقوم كاشفا عن حالهم المستور .

بلونا شدة منكم ولينا فكان كلاهما ذر الرماد
وسالتم وعاديتم زمنا فلم يغن المسالم والمهادي
ثم يعلن باسم الشعب طبيعة هذه الامة الابية ودستورها اذا ماتجنى عليها معتد ، يعلن الشاعر صفة من أهم صفات هذا الشعب ،

وهي الالباء ، والعزة ، والفداء . يجهر في شجاعة وشهامة ، بأن مصر
سوف تستأنف جهادها لتستخلص حقوقها .

فليس وراءكم غير التجنى وليس أمامنا غير الجهاد .
وينعى على هؤلاء الناكثين ازهاقهم للحق وحيادهم الكاذب :

| | |
|-------------------------|--------------------|
| (قصر الدبارة) قد نقضت | العهد نقض الغاصب |
| أخفيت ما أضمرته | وابنت ود الصاحب |
| الحرب أروح للنفس | س من الحياد الكاذب |

ويوجه النداء الى عميد السياسة الباغية في مصر (مندوبهم
السامي) :

| | |
|---------------------------|----------------------------|
| ألم تلمس دموع الناس تجري | من البلوى ، ألم تسمع أيننا |
| ألم تخبر بني التماميز عنا | وقد بعثوك مندوبا أميننا ؟ |
| بأننا قد لمسنا العذر لنا | وأصبح ظننا فيكم يقيننا |
| كشفنا عن نواياكم فلسستم | وقد برح الخفاء محايدينا |

ويصاويلهم بقوله الحق ، يرسلها الحر الأبي ، صيحة أسد كاسر :

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| سنجمع امرنا ، وترون أننا | لدى الجلى كراما صابرينا |
| وناخذ حقنا رغم العسوادى | تطيف بننا ، ورغم القاسطينا |

لقد صابرناهم ، ثم كشفنا حقيقة حيادهم الكاذب الذى يقوم على
الضلال والخداع . أين ذلك الحياد من حيادنا الآن ، نبغى به حياة
كريمة لجميع الشعوب فى ظل الأمن والحق والسلام .

ولكن هيهات للذئب أن يستجيب ، وحياته الخداع ، والكذب
والتضليل !

ولله دره ، وهو يندد بهذا الحياد الكاذب « حياد الذئب » بقوله
يخاطب الانجليز بقصيدته :

| | |
|---------------------|---------------------|
| أحسايد ، أم حسائد | عن منهج الحق المبين |
| نازلت شعبا أعزلا | بمدرعين مدججين |
| وأمنت عقبى الظالمين | وبئس عقبى الظالمين |

وفىها يتحدث عن مدى حسالة الشعب ، وما تنطوى عليه جوانحه
من عزم ، ووطنية صادقة :

| | |
|--------------------|-------------------|
| مهما تصب منا فلسنا | الجازعين البائسين |
| انا يجبار السماء | وبالعقيدة نستعين |
| ان العقيدة لا تزلز | لها حراب الغاصبين |
| فلئن ملكتم يومكم | فقد لرب العالمين |

ويحذر من قوى الشعوب وسلطانها حين تغضب ، وان كانت
جزلاء مستكينة الى حين مشيرا الى آخرة نابليون :

| | |
|----------------------|---------------------|
| كم من قوى هذه | كيد الضعيف المستكين |
| او لم تروا ماذا قسه | بالامس ذيك السجين |
| في « سنت هيلين » قضى | من دوخ الدنيا سنين |

وهاهي يسوق القصيد يضم ماقرفه المستعمر من آثام جملة في
قوله ، ولعله كان يذكرى بذلك وقودا للشعب وللشباب ليذكره على مر
السنين :

| | |
|------------------------|--------------------|
| ضقنا بكيد محايدين لنا | وكيد مبشرين |
| ثاروا على دين الهندي | وتخطفوا منا البنين |
| داسوا العرين ، وقد خلا | من اسده ذاك العرين |
| خسر المبشر ، ان دين | الحق دين المسلمين |
| الله حاميه وكافيه | شروع المعتدين |

ولا ينسى التنديد بهذا الحيات الكاذب ، فيواجهه بما يبهته
بآياته :

| | |
|----------------------------|------------------------------|
| قل للمحايد هل شهدت دماءنا | تجري ، وهل بعد الدماء سلام ، |
| سفكت مودتنا لكم ، وبدا لنا | ان الحيات على الخصام لثام |
| ان المراجيل شرها لا يتقى | حتى ينفس كربهن صمام |
| انا جمعنا للجهاد دموفنا | مسنموت أو نحيا ونحن كرام |

لوحة الفنان

.. ويجميل بنا في هذا البحث أن نعرض لوحة من لوحات حافظ الرائعة ، وفنا من فنون حياته ، وهو يشق طريقه على طريقته الخاصة في مواجهة الحياة ، والاتصال بالناس ، واستشعار صلاته بهم ومسايرته لأحداث تلك الحياة وشأن حافظ في هذا المجال هو السميت الصادق المعبر عن صدى أحاسيسه ، وكوامن نفسه ، وفطرته في معالجة أحداث الحياة ، والحكم على الأشياء ، والنظر في دخائل الأمور ..

أنا حين نلم بطرف من هذا ، لنفتح صفحة جديدة في تاريخ حافظ صفحة من حياته ، بل من طبيعته ، ورأيه ، واتجاهه .

وحين يميل حافظ الى النصيحة ، يقسو قسوة شديدة في سوق .
المثل الشرود ، والحكمة البالغة :

اقرا له معنى في عياب كثير العيوب :

يا ساكن البيت الزجا ج هبت ، لا ترم الحصونا
أرايت قبلك عاريا يبغى نزال الدارعينا

أما تلمح أيها القارئ . في معالجة هذا العيب الاجتماعي ، من وجهة نظر الشاعر أنه مرتبط بفتوته ، تلك الفتوة الوطنية ، المرتبطة بمجتمعه العسكري الذي اتصل به . ألا ترى معنى أنه حين يضمن شعره تلك الألفاظ القوية (الحصون) ، (نزال) ، (الدارعين) أما ترى أنه — مصاول ومناضل من خيرة الشجعان ، أما تتصل هذه الألفاظ في تلك القوالب الشعرية من جودة الصياغة ، بالحاسة الوطنية التي اختلط بها احساس حافظ ، وارتبط بها شعوره في كفاحه ، وتعبيره عن ذلك الكفاح .

واذ يكتب حافظ ويعبر عن ملك ضعيف الرأي بقوله :

لا تعجبوا فمليكم لعبت به أيدي البطانة ، وهو في تضليل .
أني أراه كأنه في رقعة الشطرنج أو في قاعة التمثيل

تراه معبرا عن مسخه وتبرمه من عنجهية الملوك وسطوتهم ، فهو يتلقف ذاك الملك الغاوي ، ويلقى به في يد البطانة ، فتلعب به كما يلعب بقطع النرد فهو ضعيف كليل لا يدري من أموره شيئا ، أو هو مسير يمثل به كما يجري في قاعة التمثيل ويستبد الغضب بالشاعر ، هو يسجل ذلك الغضب معبرا عن كثرت مخازيه في قوله :

هنسا يستغيث الطرس ، والنفس والذي
يخط ، ومن يتلو ، ومن يتسمع

مخاز وما أدري اذا ما ذكرتها . .
الى الحميد ادعى أم الى اللوم اذفع

ضجر ، وسخط شديدان يعصفان بهذا الذي ألفت به المقادير
فى طريق حافظ ، فوسمه بتلك السمات التي يستغيث منها ، الطرس ،
والنفس . . ومن يتلو ، ومن يتسمع ! وهو لا يسكن ، أو يهدأ حتى
ينفس عن نفسه فى عتاب صديق صدوق . .

رجوتك مرة ، وعتبت أخرى فلا أجدى الرجاء ، ولا العتاب
نبذت مودتى ، فاهنا ببعدى فآخر عهدنا هذا الكتاب

انها مقاطعة صريحة ، لغضب عارم ، راح به يهدد صديقه ،
ويتوعده ، بقول الشاعر موجها خطابه لصديقه . . أهنا ببعدى ،
وهو مدرك أن لبعده عن صديقه ذاك ، وقع شديد وألم ممض لدى
هذا الصديق اذ يردف قوله : « وآخر عهدنا هذا الكتاب » .

ومن ارق ما يكتب حافظ فى اثاره كوامن الاشجان لدى الأصحاب
والخلان ، ما بعث به من السودان الى صديق له . .

أثرت بنا من الشوق القديم وذكرى ذلك العيش الرخيم
وايام كسوناها جمالا وارقصنا لها فلك النعيم
ملأناها بنا جننا فكانت بجيد الدهر كالعقد العظيم

وحين يصف صحابته فى سر حاله وطيب عيشه يذكر حياته
معهم فيصف ما هو فيه وما هم عليه من شيم حسان ، وأخلاق
كريمة . . بقوله :

وفتيان مساميح عليهم لهم شيم الذ من الأماني
كهمك فى الخلاعة ، والتصابي دعوتهم الى أنس فوافوا
وجاءوا كالقطا وردت نميرا على ظمأ ، وهبوا كالنسيم
جلايب من اللوق السليم واطرب من معاطاة النديم
وان كانوا على خلق عظيم موافاة الكريم الى الكريم
على ظمأ ، وهبوا كالنسيم

ويسكب حافظ كأسه من اللهو ، والسرور ، وينشدنا فى ذلك
شعرا . . فى قوله :

وكان الليل يمرح فى شيباب ويلهو بالمجنرة ، والنجوم

الى ان يقول :

سلام الله يا عهد التصاني عليك ، وفتية العهد القديم
أحن لهم ، ودونهم فلاة كأن فسيحها صدر الحليم
كان سرايبها إذ لاح فيها خداع لاح في وجه اللثيم
ثم يشكو حاله وهو يواجه الخطوب ، ويذكر طماحه ، وأنه لولا
صورة المجد عنده ، لعاش قانعاً لا يعرض نفسه لمثل هذه المكاره :

نزحت عن الديار أروم رزقي وأضرب في المهامه والتخوم
وها أنا بين أنياب المنايا .. وتحت برائن الخطب الجسيم
ولولا سورة للمجد عندي قنعت بعيشتي قنع الظليم

وحين يكتب الى صديق آخر ممن اضطلّعوا بمثل رسالته ..
يعبر عن معان فخمة في نفسه ، وتقدير عظيم في شعوره وحسه ، انه
يكتب الى صديقه الشاعر داود عمون في الشام وهو يحن حيناً الى
تلك الديار ..

شجتنا مطالع اقمارها فسألت نفوس لتذكّارها
وبتنا نحن لتلك القصور وأهل القصور ، وزوارها
ذكرنا حماها ، وبين الضلوع قلوب تلظى على نارها
فمرت بأرواحنا هيزة هي الكهرياء بتيارها
وأرض كستها كرام الشهور حرائر من نسج « آذارها »
إذا نقطتها أكف الغمام ارتك الدراري بأزهارها
وان طالعتها ذكاء الصباح ارتك اللجين بأنهارها

ثم ينتقل الى مناجاة صديقه ..

إذا ثرت ماجت هضاب الشام وباتت ترامى بشوارها
الست فتاها ومختارها يشبل فتاها ومختارها
(داود) حسبك أن المعالي تحسب دارك في دارها
وان ضمائر هذا الوجود تبوح اليك بأشوارها
وانك إما حللت الشبام رايناك جذوة أقطارها
وان كنت في مصر نعم النصير إذا ما أهابت بأنصارها

ويرد عليه ذلك الصديق الشاعر ..

أمن ذكر سلمى وتذكّارها نثرت الدموع على دارها

وفي هذه القصيدة يشكو ذلك الشاعر حال الشرق ، وما هو
فيه من سوء حال وظلم وظلمات :

اطوف في الشرق على ارى
فلم ار الا امورا تسوء
فظلم بتلك ، وذل بهدي
تعق مراحم وعيانتها
بلادا تطيب لأحرارها
وتصدع أكباد نزارها
وجهل ، مفش لأبصارها
وترعى الولاء لجزارها

عهد عهد في الطفيان والعسف ينال الشرق على يد المستعمرين
الغلاة .. كان من آثاره :

يدب التراخي على تربها
ويجرى الخمول بأنهارها
ثم ينادى شاعري مصر شوقيا ، وحافظا .. أن يؤذنا بأذان الجهاد ..

أشوقى ، أحافظ ، طال السكوت
فصوغا القوافي مصقولة
عساها تحرك أوطاننا
أقول ، وأعلم انى سارمى
وانى الدخيل ، وانى الغريب
وترك الأمور لأقدارها
وشقا الجلود ببتارها
وتنشر ميت أحيائها
بأنى محرك ثوارها
وانى النصير لقهارها

عهد الوفاء ..

وما أبر شاعرنا بعهد الوفاء ، وما أسرع مجاوبته لهتاف
أمير الشعراء وهو فى منفاه ، اذ يقول شوقي وقد بعث بهذه الأبيات
الى حافظ :

يا ساكنى مصر ، انا لا نزال على
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم
كل المناهل بعد النيل أسنة
فيجيبه حافظ بقوله ..
عهد الوفاء ، وان غينا - مقيمينا
شيئا نبل به أحشاء صاديننا
ما أبعد النيل الا عن أمائنا .

عجبت للنيل يدري أن بلبله
والله ما طاب للأصحاب مورده
لم تنأ عنه وان فارقت شاطئه
صاد ، ويسقى ربا مصر ، ويسقىنا
ولا ارتضوا بعدكم عيشا ، ولالينا
وقد نأينا وان كنا مقيمينا

حافظ في تقويم الباحثين

أثار الأستاذ الشاعر محمد عبد الغنى حسن فى كتابه « آعلام من الشرق والغرب » الى ظاهرة هامة رأى أن يعقدها تحت عنوان « شوقى وحافظ بين الكتب »

تلك الظاهرة هى قلة ما أخرجته المكتبة العربية من كتب عن شاعرنا حافظ ونحن اذ نظرف القارىء بما يجترئه من أسلوبه وقلمه حول هذا الموضوع نؤدى خدمة جليلة للقارىء . .

يقول الاستاذ الكبير « لما ظهر المتنبى ملا الدنيا وشغل الناس، كما يقول ابن رشيق القيروانى واختلف الناس فيه بين متعصب له ومتحامل عليه، فتعصب له ابو الفتح عثمان بن جنى، وتنقصه ابن عباد، ووقف القاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى موقفا قواما بين المادحين والقادحين فى كتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » « وقد شغل شوقى وحافظ الناس بالحديث عنهما حين وميتين ولن يقف مدى الكلام عنهما، ولن يكون القول فيهما معادا مكرورا مع قصر العهد بينهما وقرب الزمان منهما »

« واذا أنت قلبت المكتبة التاريخية لرجل مثل نابليون فانك واجد فيها مئات من الكتب تتناول هذا الرجل من جميع نواحيه، وفى كل يوم يظهر عنه بحث جديد، ويقول القراء: هل من مزيد .

« فليس اذن بالكثير على المتنبى أن تظهر فيه عشرات من الكتب، وليس كثيرا على شوقى الشاعر أن تظهر فيه بضعة من الكتب . . . وليس كثيرا أن ظهر فيه وفى زميله الشاعر محمد حافظ ابراهيم عدد خاص من مجلة ابولو عام ١٩٣٢ . وليس كثيرا أن خصصت لهما مجلة الكتاب عدد اكتوبر عام ١٩٤٧ احياء لذكراهما وتخليدا لأثارهما »

« ان هذا التنبيه الأدبى هو قرين للتنبيه القومى. ونتيجة له ونرجو أن يحور هذا التنبيه الناشئ الى وعى عريق الأصول عميق الأسس » .

وللناس نصيب من الشهرة فى حياتهم وموتهم كنصيبهم من الغنى المقدر والتراث الوفور، فهذا شوقى قد ظفر من المكتبة العربية بأحد عشر كتابا تناولت شعره ومسرحياته وحياته على حين لم يظفر زميله وصديقه حافظ الا بكتاب واحد ظهر عام ١٩٤٧ وتعرض له من ناحية واحدة هى الشعر السياسى .

(م ٧ - حافظ)

هذه الماعة الكاتب الاديب عن شوقى وحافظ واغفال المكتبة العربية
العناية بهما احياء لذكرهما وتخليدا لآثارهما .

ويسعدنى أن أبادر بتحقيق أمنية الصديق الاستاذ الشاطر
محمد عبد الفنى حسن فى الكتابة عن شاعر النيل .

ولكننى لم اكن معنيا حين رغبت فى الكتابة عنه باحياء ذكره
ولا بتخليد آثاره ، وانما رأيت وقد وجدت ان لهذه الذكرى حياة
اقوى من حياة الأحياء ، وأحسست بما لآثاره من التماع فى صفحة
الحياة يكاد يكون انصع من فلق الصباح وجبهة الشمس

واذا كانت فكرة الكتاب قد خفقت فى روحى أول ما نبضت حين
وقفت بليلة الشرق « ام كلثوم » تسجل قصيدة حافظ « مصر
تحدث عن نفسها » وشهدتها عن قرب وهى تنفعل معها بكل قواها
الفنية التى تنسجم مع ما فى هذه النفحة الوطنية من تعبير حاذق .
اشاعته فى اللحن والنغم وجرى قدرا فى أوتار الغناء ، فقد نبضت
فى قلمى يوم ترددت على اذنى ابان العدوان الثلاثى الغاشم على مصر .

وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبنى قواعد المجد وحدى

وقد أفردت بحثا لتحليل هذه القصيدة ، أثبتته فى موضع آخر
من هذا الكتاب .

واعود فأرى ان إشارة الاستاذ عبد الفنى حسن تنم عن بصر وتقدير
فان مثل شاعرنا حافظ حقيق بأن تعد فيه البحوث الضافية ، والدارس
لشعر حافظ ابراهيم ، الدارس المنصف ، يستطيع أن يستجلي فى
شعره أفانين من خير ما يقدم للشباب زادا ينفع فى تربية الملكات واذكاء
الروح القومى وتربية الخلق الرفيع ، وامتناع الدهن ، وبناء المشاعر
وتوجيه النزعات والسمو بالأحاسيس ، والانطلاق الى القايات . فهو
يسرف فى شعره وتناول النواحي المتصلة ببناء الشباب ، وارساء دعائم
المجتمع . وهو تاريخ مصر ونبضات كفاحها ، واستمساكها امام
الطغاة .

ولن يبلغ النثر ما بلغه الشعر فى تهيئة النفس للتقبل وهو
يحدوها بنغم يسرى فى الروح مسرى الضيياء . . فى آفاق الابصار .
أو هو التيار يدفق فى الاعصاب بالنور والنار .

وانى لأشعر برحمة وعطف شديدين على ذلك التراث المذخور
الذى خلفه شاعرنا حافظ مقدرا ما اعتور حياته من عنت وما احتمل
من ارهاق الى جانب الجهد المضنى فى تلبية نداء الوطن والكوارث
تتابع والأحداث تتدافع وليس له عن غشيان هسهة الأوضاع معدى .
وحياته موزعة بين اعداد قصيدة ، وانشادها وتلقى التهاني أو النقد
فيها .

وليس الشعر كما يظنه المتطفلون عليه كما يقول الاستاذ على الجندى بالشئ السهل المثال ، القريب الفور .

« انه فن والفن تعب ! ، انه عبقرية والعبقرية جهد متصل ، انه سلطان متكبر جائر لا يعطيك بعضه الا اذا اعطيته كلك ، واذا هجرته شهرا هجرتك دهرًا » .

« لقد كان الفرزدق - وهو أحد الثلاثة السابقين في العصر الأموي يقول : تمر على الساعة وخلع خرس من أضراسي أهون على من عمل بيت من الشعر ، وكان جرير - وهو أحد المطبوعين الذين كانوا يغترفون من بحر - اذا أراد القول ربما علا السطح وحده فاضطجع وغطى رأسه رغبة في الخلوة بنفسه وربما أمر فرشت الأرض بالماء ، ونزع ثيابه ونام في الوحل !!

وكان أبو نواس لا يقرض حتى يشرب فاذا صار الى حال بين الصاحب والسكران واتاه الشعر .

وابن الرومي - وهو من أعلام العصر العباسي - يشكو صعوبة الشعر فيقول :

مطلبه كالمغاص في درك اللجة من دون دركه الخطر

ويقول بعض نقاد العرب « ان عمله (أي عمل الشعر) على الحاذق به أشد من نقل الصخر ، وهو كالبحر أهون ما يكون على الجاهل به ، أهول ما يكون على العالم ، وأتعب أصحابه قلبا من عرفه حق معرفته » .

ويقول بعض نقاد الغرب : لان أقود جيشا أسهل على من أن أكتب ستة أبيات .

واني لأشارك الأستاذ الكبير على الجندى فيما أورده عن قرض الشعر ، وبهذا يكون تقده أيسر من رياضته وتصفيته ونخله ، فالشعر ذوق وجمال وافتنان .

وهو كما أثبتنا في ديواننا « مزامير » ضرب من ضروب التعبير الموسيقي البليغ وسمو بيان الشاعر في مخاطبة الشعور والوجدان وائتلاف موسيقاه بموسيقا النفس وهوائف الشعور .

وانس النفوس البشرية بموسيقا الشاعر ظمًا في خلايا الحس والشعور ينزع أبدا الى الارتواء . . ولا يمكن أن يرويه أو يتمتع به الا ذلك القدح المسكر من رحيق البيان الساحر .

« وكلما عذب الراح اشتد هتاف الارواح الى مزيد من الشراب وكان ذلك الارتواء ظمًا متلاحقا متجددا . . وظمًا الوجدان آية الحساسية الفنية في أوتار البشرية . . وهيئات يدرك فاقد الحس بليد الشعور إدراكا وجدانيا ينبع من حاجة الحواس الفنية الى الارتواء »

ولهذا فانا لا نضع في حسابنا حين ننوه بشأن حافظ ذلك النوع فاقد الحس بليد الشعور فليس له عندنا اعتبار .

ذلك أن الأعلام الواعية والمشاعر المرهفة والملكات المصقولة ذوات
الفطر المستقيمة التي لا تتحرف ، ولا تتعيز ، آمنت بمكانة هذا الشاعر
بل أن الزمان نفسه قد ائتلف مسح القدر في الاشادة به والاحتفاظ له
بتلك المكانة التي تتسع آفاقها ويزيد وضوحها كلما ضربت الذكرى في
التاريخ ايغالا وفي الزمن قدما وقد أشرنا الى نفر من ذوى المكانة والرأى
ممن احتفوا بذكرى شاعرنا حافظ وان كان بين يدينا كثير من ذوى
الأعلام النابهة يصفون عليه من حبههم له وشفقهم بأدبه صفحات
ناصعة .

ويتحدث الدكتور طه حسين عميد الادب العربى عن الشعاعين
« شوقى وحافظ » فى كتابه عنهما بقوله :

كلا الشعاعين قد رفع لمصر مجدا بعيدا فى السماء ، وكلا الشعاعين
قد غدى قلب الشرق العربى نصف قرن أو يقرب من نصف قرن بأحسن
الغذاء وكلا الشعاعين قد أحيا الشعر العربى ورد اليه نشاطه ونضرتة
ورواءه ، وكلا الشعاعين قد مهد أحسن تمهيد للنهضة الشعرية
المقبلة .. الى أن يقول : « هما أشعر أهل الشرق العربى منذ مات
المتنبى وأبو العلاء من غير شك » .

المازنى وحماسة الشباب

وللمازنى آراء فى شاعرنا حافظ ، فهو يرى أن حافظا يمثل المذهب
القديم فى الشعر بينما يرى أن شوقى يمثل الذهب الجديد . وهو لا يرى
فى شعر حافظ ما يراه فى شعر شوقى انه ينهض بشعر شوقى وينزل
حافظا دون مكانته بل انه ليرى أن بيتا واحدا لشوقى يرجح شعر حافظ
جملة .. ! ولقد استبد به التعصب دون شاعرنا حافظ حتى بلغ ذلك
منه مبلغا استحل فيه لنفسه أن يقول عن حافظ :

« ان البحث أعياء ليجد شيئا لا تنقبض منه النفس ولا ينبض عنه
الذوق ، ويرى أنه ليس بشاعر فهو فى رأيه وازن تفاعيل ومقطع أبيات »
ويرى أنه ليس بشاعر فهو فى رأيه وازن تفاعيل ومقطع أبيات ، وهو
يجزم أن شاعره سيعفى عليه الزمان ويذهب به وبذكرى صاحبه .
لقد نعت المازنى حافظا بنعوت فاحشة : نعته بالسرقة ، وجمود الخيال ،
وفساد الذوق ، وغثائة المعنى والجهل اللغوى « ولسنا فى مقام الرد
والتفنيد فما نسوق الا الرأى أمام الحجة البالغة واضحة المعالم ووضوح
الحجة لحافظ هنا على مزاعم خصيمه انما تظهر فى ذلك التراجع العجيب
الذى أودى بقيمة الملكة الادبية والمقاييس الفنية فى النقد لدى المازنى
حين أصدر بعد عشر سنوات على آرائه تلك كتابه « حصاد الهشيم » وفيه
يقول : « اما النقد فقد اسقطناه من جملة ما كتبنا غير آسفين على اسقاطه »
ويعتل لذلك بقوله : « فقد كان مما أغرت به حماسة الشباب »

ويشير الى نقده ذلك بقوله « انه هراء قديم » أى انه كان يهرف
بما لا يعرف . ويتصدى لأمر فى غير أمانة عفا الله عنه . .

ولعل فى هذا عبرة لكل من يتناول دون مقبرة ، وفى غير جسد
ومعرفة فما هنالك فى المحافل الادبية من سقطة مثل ما سقط فيه
صاحبنا وهو يعتذر لنفسه عن ضلالة ارتكبها وحماسة غوى بها .

أحمد محفوظ ، وعزير أباطه

واذا كان لى فى هذه الحلبة ان امحص حياة شاعرنا فى تلك
الحقبة التاريخية الحافلة بالاحداث ، والتي حين تذكرها نذكر فجر
مورثنا وبواكير كفاحنا وتضالنا ، ونحن عندما نتلفت لنرى كيف اصبحتنا
واين كنا ، نجدنا والحمد لله فى موكب الامانى التى كانت تتراءى صوراً
وأحلاماً على عهد صاحبنا الشاعر ورفاقه المناضلين أمثال مصطفى
كامل ، محمد فريد وعلى يوسف ممن اضطلموا بأعباء النضال عقب
الثورة العرابية .

أقول انه اذا كان لى أن أقدم للقارئ نماذج مما خطت الاقلام
وعالجت فيما يتصل بهذه الحقبة من تاريخنا وإبراز الدور الذى
تعرض له حافظ فى هذا التاريخ ، والظروف التى اكتنفت حياته .

فانما أفيض فى وضع أكثر من نموذج للنقد الفنى أمام القارئ ،
وأكثر من رأى - كيف كان هذا الرأى - ولكى أتيح لقارئ أن يدرس
معى تاريخ أمته وسجل رواد نهضته . ولقد يرى الرأى معى وهو
فطن ذكى ذاك المدى الذى ينفصح أمام أخيلة الكتاب والباحثين عند
تنميقهم وتزويقهم ، كما يرى نزعات الشيطان فى هوى النفوس
وانحرافها عن جادة البحث الحر فى كثير من الاحايين . بل قد يرى
الحمق والسرف فى أحيائين أخرى يتعرض لها الكاتب العملاق وهو
ينفس على الشاعر مكانته أو هو لا يسيخ منه اتجاهها معيناً كان
يستهو به فى حياته على أنى أدرك أن اختلاف الآراء ليس مرده الى هذا
كله أو الى لون واحد منه ، وانما قد يكون حين تصدقنى فراستى أن
أرده الى فلسفة البحث وارتباط هذه الفلسفة بطبيعة الناقد واستعداده
بل ودراسته . وحين ألجأ الى أولاء القلة ممن عالجوا حياة حافظ
وسجلوا رأياً لهم عنه فأننى أتخير منهم من اتصلت حياته بحياة
الشاعر ، وبهذا أريح وأستريح وأجمع الى اصالة الرأى صدق النظر
وامانة التاريخ .

ويحدثنا الاستاذ أحمد محفوظ فى كتاب له أصدره على عهد
قريب عن « حياة حافظ ابراهيم » حديثاً مستفيضاً مستغرقاً فيه
استغراقاً لما كان له من صلات بالشاعر وهو يعمل معه موظفاً بدار
الكتب بقوله :

« كان شعره لا يمله القلب ، فان روحه الحلوة تنساب فيه فقد
كان ينظم بقلبه لا بخیاله »

« كان حافظ مرزوق الشعر عند كبار النقاد والفنانين كان لا
تمل قراءة شعره الاذهان وان كانت مستنيرة عالمة بالجيد الرائع من
الشعر والبليغ السامي ، وان سألت الاذهان المستنيرة عن هذا الاصغاء
العجيب لأجابتك قائلة :

« ان في هذا الشعر جاذبية غير واضحة ولا مفهومة ، يجسها
القلب وينكرها الذوق الفني »

« وكأنت هناك شخصية حافظ التي كانت تسيطر على شعره .
فمنها كان يستمد سره وفيه بركتها كما يقول العوام »

ويواصل حديثه عن شخصية حافظ يقول :

« ولا يسعنا الا أن نقابل بالتحريم والتسوية شخصية حافظ
ابراهيم المطرود من السودان والمتجول في أكناف القاهرة بغير عمل
ولا مورد رزق معروف ولا جاه ولا ثقافة عالية ولا أسرة كبيرة ، ولا
أية أداة من الادوات التي تقدم الفنان في هذا الجو الشرقي .

فقد اعتاد الشرق أن يقدر الفن ويقدر العلم ويعرف للنبوغ حقه
اذا ساند كل هذا جاه أو مال أو عصبية .

وكان حافظ خلوا من هذا ، كان فقيرا ، وكان عاطلا ، وكان من
أسرة متوسطة وبرغم هذا فرض نفسه على الجو الفني في عصره ،
وكان منافسوه أقوياء »

فالبارودي : كان وجيها وحامل لقب فخم ، وناثرا عظيما ،
وباعث نهضة شعرية وكان شوقي : غرس نعمة بيت محمد علي ، وربيب
توفيق ، وصديق عباس وصهر عائلة غنية معروفة .

وكان مطران : مؤيدا من رجال لهم خطرهم ولهم صحفهم ولهم
أقلامهم وله بعد ذلك منهم التقديم والتأخير لأنهم كانوا يعدون شأنه
أمرا وطنيا .

واسماعيل صبرى كان وكيل وزارة وحامل لقب عظيم .

وبرغم هذا فقد اندس هذا المحامي الخائب والضابط المعزول بين
هؤلاء الاربعة وتناول حتى فات ثلاثة منهم شهرة وقف له الرابع بعقريته
وجاهه ولكنه لم يستطع أن يهزمه الا بعد عهد طويل من العناء والغيظ
وبذل الأموال . .

وبهذا الذي أورده الأستاذ محفوظ في كتابه عن حافظ نرى أن
شاعرا ما برغم ما لقيه في حياته من بؤس وعنت مما يعوق الملكات
ويشغل النفس ويثقل عليها ، برغم هذا وبرغم منافسيه وما تأتى لهم
من ظروف كانت كفيلة بأن تدفعهم دفعا الى مراقي الشهرة ، قد
بزههم وهزمهم هذا عنيقا ، ولم يبلغه أو يسبقه شوقي على حد قوله
الا بعد طويل العناء وبذل الأموال .

والذي يمكن أن نقرره بعد : أن حافظ ابراهيم لو لم يكن شاعرا

فحلا استطاع أن يضرب بسهم وافر في آفاق الشعر ، وأن يتميز
تميزا ملحوظا ، وأن يكون لشعره ذلك السحر في النفوس والمكانة في
الارسط الادبية لاندثر أدبه وعفى على فنه ما عفى على الكثيرين ولم يكن
له ذلك الشأو البعيد والصيت البالغ .

ونرى أن نشير الى ما كتبه الأستاذ عزيز أباطة ، وهيبو من كبار
الشعراء المعاصرين وأحد تلاميذ حافظ الذين كانوا يختلفون الى
مجالسه حيث كان يحب الجلوس اليه والسماع عنه .

يقول الأستاذ عزيز أباطة :

« كنت حريصا على الاختلاف الى المجمع التي كان يقف فيها
خطيبا منشدا ، وذلك عند نزولي القاهرة للدرس ، ثم تأكدت المسودة
بيننا ، فكان صديقا لي ، وأستاذنا موجهنا الى الأدب الرفيع والشعر الجزل
من تراث الفحول من شعراء العرب وأدبائهم . ثم ينوه بما كتبه
الأستاذ محفوظ وهو يقدم كتابه « عن حافظ ابراهيم » بقوله

« طلب الى الأستاذ محفوظ ان اقدم له كتابه في « حياة حافظ »
وقد رجوت ان يعفني من مقدمة كتابه ذلك لان اجلالي لذكريات
حافظ ابلغ من اجلالي لشعره »

« وحافظ طريف في صياغته واسلوبه ومراميه »

« وقد تعرض المؤلف لضروب شعر حافظ بالنقد فانصفه في
بعضها وتجنى عليه في البعض الآخر . والنقد قبل كل شيء ذوق
خاص للناقد لا يلتزم به الا هو . وقد يخالفه فيه بعض ، ويشايعه بعض
آخر . . . » ثم يسجل رأيه عن حافظ بايجاز فيقول :

« ولكن الذي لا شك فيه ان حافظ ابراهيم : هو أحد تلك
العمد التي قام عليها ذلك الصرح العالي الذي أرسى قواعده البارودي
الشاعر الأشهر ، وأقامه على الجزالة وجمال الأسلوب بعد أن اندثر
هذا الطراز من الشعر الفحل في الشرق العربي من مئات السنين »

« وحافظ ابراهيم كما يقول الأستاذ محفوظ جاهد وثابر وزاحم
حتى اعترف به الوسط الشعري وعده في طليعة الشعراء الذين
ازدهر بمقدراتهم الشعر الفخم الجليل في مستهل هذا القرن ، فقد
كان حافظ يذكر بالتقدير والاعجاب في نسق مع البارودي والشاعر
الخالد شوقي »

ويذكر الأستاذ « أباطة » مكانة حافظ وانه أوفى على الغاية في
الشعر الوطني بقوله :

« وقد ساهم الشاعر في مواقف رائعة جلية في الوطنية والاجتماع
ولعله كان أبرز شاعر عرفته المواقف الوطنية فقد كان حرا منطلقا

لا تحجزه قيود كالتى كانت تحجز شوقي في تبعيته للقصر ، وتلك التى كانت تقوم بين اسماعيل صبرى وبين واجبه الوطنى فقد كان هسدا الشاعر الرقيق موظف دولة ، فرضت عليه قوانين ولوائح تعترض سبيل انطلاقه الى حيث كان ينطلق حافظ ابراهيم العائد من السودان مفصولا عن وظيفته وحافظ قريب الى قلوب قراء شعره ففي هذا الشعر طلاقة وبداوة ونسمات طيبة من روح حلوة صادقة . . . »

لقد تشرب روحه من تلك الارواح المصرية الخالصة فكان رحمة الله شاعرا مصرية قحبا . كان الشعب مدرسته فمنها اكتسب غالبية ثقافته وفي هذه المدرسة تخرج حافظ ابراهيم شاعرا كبيرا .

والذى يعنيننا من عرض هذه الآراء للاستاذ عزيز اباطة عن شاعرنا حافظ ابراهيم هو ماأشار اليه الأستاذ محفوظ فى كتابه عن حافظ فقد أنصفه فى نواح وتجننى عليه فى نواح أخرى ، وأن النقد ذوق خاص للناقد لا يلتزم به الا هو قد يخالفه البعض ، ويشايعه آخرون . .

وهو بهذا يوافقنا فيما أوضحنا عن منزلة النقد ، وعن رأى الناقد وارتباطه بدوقه هو وميوله واتجاهه وفلسفته وتخصصه .

وبهذا لا يمكن الحكم على الشاعر برأى فردى يصدر عن هوى أو عن تأثير بجانب خاص ، يكون صدى لانطباعات الشعر فى نفس الناقد .

دسوقي أباطه ، وطه حسين

والى القارئ الكريم صورة أخرى . . ولكنها تغاير الصورة السابقة . .

نشرت مجلة أبولو رأيا للدكتور طه حسين عن حافظ أورده السيد الأستاذ ابراهيم دسوقي أباطه رحمة الله عليه وكان من الوزراء المشتغلين بالأدب الى جانب السياسة فى تضاعيف مقال دبحه عن حافظ وذلك لمناسبة اصدار المجلة عددا خاصا عن شاعر النيل احتفاء بذكره .

يقول الأستاذ ابراهيم دسوقي أباطه . . واذا كان لكل شاعر شيطان أو ملاك ملهم فان ملاك حافظ كان مشغوبا ببني أباطه يلهمه فى مديحهم المعجزات ، أما شيطان طه حسين فلا يغريه الا بالطنع والتعريض والهجاء فهو يقول « بأن شعره فى رثاء أصدقائه الإباطيين متكلف لا يدل على حزن صادق ولا لوعة وإنما دفع اليه بواجب المجاملة ، وانك تحس عندما تقرأ شعر طالب وضع أمامه

تماذج من الشعر القديم وأراد محاكاتها فأخذ معاني القدماء وذهب
هذه بهم في الغلو السقيم ، ويشبهه الدكتور تعزية حافظ للأباضيين
بتعزيته للإنجليز في فقد ملكهم ويعقب الأستاذ دسوقي أباطة على قول
الدكتور طه حسين هذا بقوله :

ولست أدري لم يكون الأمر كذلك ؟ وقد حدثت القراء بنشأة ما
كان بيننا من صلة ولم يشبهنا الدكتور طه حسين بالإنجليز غفر الله
له ؟ وأجدادنا عرب علموا الناس الوطنية والثبات ، ولم نعيد اليوم
ما كنا نحرمه بالأمس ولا حرمننا اليوم ما كنا نعبد من دون الله ، ولا اتخذنا
السياسة تجارة ؟ ويعلل لذلك بقوله :

والسبب في هذا كله ما وجدته في رثائه من الغلو فهو يقول في
رثاء أحد الأباضيين

| | |
|------------------------------|----------------------------|
| لا تحملوه على الرقاب فقد كفى | ما حملت من منة وعطية |
| وذروا على نهر المدامع نعشه | يسرى به للروضه الفيحاء |
| خلق كضوء البدر أو كالروض أو | كالزهر أو كالخمر أو كالماء |
| وشمائل لو مازجت طبع الدجى | مابات يشكوه المحب النائي |
| ومناقب لولا المهابة والتقى | قلنا مناقب صاحب الاسراء |

وهي أبيات من مرثيته للسيد سليمان أباطة ، ثم يرد الأستاذ
دسوقي أباطة على نقد الدكتور طه لحافظ بقوله :

هل سمع الدكتور شعرا عربيا له أو لغيره في الرثاء أو المدح
خاليا من المبالغة والاغراق ؟

ويواصل الأستاذ دسوقي أباطة قوله :

أما ما يعجب به الدكتور طه ويحججه فهو رأى للأستاذ لطفى السيد
في قوله :

لقد كنا نعجب بشعر حافظ منذ كنا أطفالا يافعين ونرى فيه زعيما
من كبار الزعماء الوطنيين المخلصين نتغنى بشعره ونفضله على سائر
الشعراء لأنه كان يضرب على الوتر الحساس ويهيب بالشباب ، ويلهب
العواطف ، ويحفز الهمم ويكافح البأس والتواكل ويدعو للجهاد والأمل ،

ثم يقارن بين شوقي وحافظ في الجانب الوطنى فيقول :

« وكان شوقي في منصبه الرسمى لا يستطيع خوض غمار
السياسة بحرية ، وصراحة ، فانفرد حافظ واستوان على القلوب
وأحرز مكانة لاتدانيها مكانة » .

ويحتج الأستاذ أباطة لشوقي بقوله :

أى أديب لم يتغن بقصيده ، فى جميع ضروب الشعر ، وأى أديب

لم ينزع الى سماعه ، يتدفق في الحفل بصوته الجهنوري الممتع
والقائه البديع الخلاب الذي كان يدوي بين الجماهير فيضم سخرها
وفخامة جديدين الى ديباجته الساحرة الفخمة . . . ولست أخب أن
أعيد عليكم قصائده الخالدة في البارودي ، وعثمان أباطة والاستاذ
الامام ، وقاسم أمين ، وصبرى ، وعلى يوسف ، والمويلحي .

ويسوق لنا مختارات من شعره في قصيدة ينوه بشأنها وهي حمرية
بد فيها أبا نواس ولم يبلغ شاؤه فيها أحد كما يقول وهي :

| | |
|-------------------------------|--------------------------|
| أوشك ألدبك أن يصيح ونفسي | بين هم وبين ظن وحسد |
| يا غلام : المدام والكاس والطا | س وهبيء لنا مكانا كأس |
| اطلق الشمس من غياهب هذا الد | ن وأملأ من ذلك النور كأس |
| وأذن الصبح أن يلوح لعيني | من سناها فذاك وقت التحس |
| وإدع ندمان خلوتي وأتتناسي | وتعجل واسبل ستور الدمقس |

شوقي وحافظ

يقول الدكتور طه في كتابه (شوقي وحافظ) :

كنت مرة عائدا مع الاستاذ لطفى السيد بعد أن حضرنا اجتماعا
لتخليد ذكرى حافظ قبل أن يموت شوقي ، وكنا نتحدث في أمر الشعارين
فقال لطفى بك :

لقد خدعنى حافظ عن نفسه كما خدعنى شوقي عنها ! كنت ألقى
حافظا أول عهدي بالشعر وكان يسمعننى من شعره فلا يعجبني ، فقلت له
ذات يوم ! أرح نفسك من هذا العناء فلم يخلقك الله لتكون شاعرا ولكنه
لم يقبل نصحي وحسنا فعل فما زال يجد ويكده حتى أرغم الشعر على أن
يدعن له وأصبح شاعرا وكنت شديد الإعجاب بشعر شوقي أقرؤه في لذة
تكاد تشبه الفتنة واثني عليه كلما لقيته ، فما زال شوقي يكسل ويقصر
في تعهد شعره حتى ساء ظنى بشعره الأخير !

ويحتكم الاستاذ أباطه الى القراء في هذا الذي أثبتته الدكتور طه عن
حافظ في كتاب (شوقي وحافظ) بقوله :

واكتفى بأن أحتكم للقراء في رأى أستاذنا « لطفى بك » وموافقة
الدكتور طه عليه فإن الاجماع يقول غير ذلك يقول بضعف شعر حافظ في
السنين الأخيرة من حياته ، أما شوقي فلم يدرك الضعف شعره ولا تطرق
اليه الوهن وكل من قرأ قصة مجنون ليلى وقد أخرجها شوقي في آخر
حياته يرى فيها البرهان الساطع والدليل الناصع القاطع ، فما تلوتها

مرة الا أخذتني هزة الطرب ونشوة العجب وأكبرت لغة العرب . . . وقد قال عنها حافظ بأنها معجزة المعجزات وآية الآيات فليسمع لي الدكتور طه المعجب بالفيلسوف ديكارت القائل بنظرية الشك حتى يصل الى الحقيقة . أن أشك في اسناده هذا الرأي لأستاذنا الكبير لطفى السيد .

ثم يتحدث الاستاذ دسوقي أباطه عن حافظ بقوله :

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| واسقنا يا غلام حتى ترانا | لا نطيق الكلام الا بهمس |
| خمرة قيل انهم عصروها | من خسدود الملاح في يوم عرس |
| مذ رآها فتى العزيز مناما | وهو في المسجن بين هم وياس |
| أعقبته الخلاص من بعد ضيق | وحبته السعدود من بعد نجس |

ويستطرد الاستاذ الاديب الكبير في التنويه بشأن حافظ بقوله :

« وقد برع في النظم في الاجتماعيات فاعتز لشعره العالم العربي كله ، وتبوا المكان اللائق ، تحت الشمس ، وأخذ بعض الناس يفاضلون بينه وبين شوقي ، وتلك مرتبة لم ينلها قبله أحد » .

« أما قصائده في تأبين الشيخ محمد عبده ، ومصطفى كامل ، وسامي البارودي وفي عزل السلطان عبد الحميد ، فقد جاوزت الإبداع ، وجرت مجرى المثل فعظم خطره وتآلق نجمه وأصبح شاعر النيل غير مدافع » .

وكان اذا خلونا به يحمل على شوقي وشعره ، ولا يسلم له بالإمامه ولا يعترف له بالزعامة وكان يحب كبير الشعراء خليل مطران ويخلص له وطالما سمعته يطنب في مدحه ويذكر الاساتذة محرمات (الشاعر أحمد محرم) والكاشف ونسيما بالخير . ويذكر بالخير الكاتبين المازني والعقاد وله فيهما وفي الدكتور طه حسين رأي معروف .

شاعر

وَلَكِنِّي فِي مَعْرَضِ الْقَوْلِ شَاعِرٌ

أَضَافَ إِلَى التَّارِيخِ قَوْلًا مُخَلَّدًا

حافظ . . نشأ شاعرا

وحين أشار الاستاذ ابراهيم دسوقي أباطه الى شاعرنا حافظ ابراهيم فى حديثه عنه بدار الأوبرا فى الحفل الذى أقيم عام ١٩٣٧ بقوله :

« ولد حافظ فى ٤ من فبراير عام ١٨٧١ م فى ذهبية كانت راسية أمام ديروط على النيل لأعمال كانت تقام بأشراف أبيه ، ولعمري أنه لميلاد جدير بشاعر » ، ثم يقول :

ولو كنت شاعرا لزعمت أن ميلاد شاعر النيل فى أحضان النيل وفى مهد من جمال الطبيعة الساحر كان له تأثير فى شاعرية حافظ المبكرة ، وفى انه فتن بوطنه وبرح به هواه فحمل قيثارته يتغنى بعظمته ويبكى لمصابه ، ويهيب بأبنائه لانقاذه ويذكره بماضيه وحضارته حتى استحق أن يلقب بشاعر النيل ويكفيه ما فى اللفظ من اعجاب وتقدير وتبجيل .

أقول أنه عندما تحدث الاستاذ ابراهيم دسوقي أباطه بهذا لم يسع الاستاذ العقاد الا أن يعلق على هذا بعد وفاة حافظ بقوله :

« لاخال أن حافظا فى مولده قوبل بترحيب أوفى من هذا الترحيب » ثم مضى الاستاذ أباطه يؤرخ لحافظ فسر لنا جانبا من حياته يجعل بنا أن نقتطف فقرات منه :

« نشأ حافظ شاعرا ، فقد حدثنى رحمه الله أنه نظم كثيرا فى أثناء الدراسة الابتدائية ولكنه عندما شب عمد الى شعر الحداثة فأتلفه جميعا لكيلا نحظى من كلامه الا بالشعر الناضج الرصين » .

توفى أبوه بعد عامين من ولادته فأقام فى أكناف خاله وأمه السيدة زينب ، ولم تمض سنوات حتى ماتت أمه أيضا فأمسى اليتيم لطيفا .

وأحسب أن تلك الظروف القاسية أحدثت فى نفسه ثورة ألم عظيم وهم مقيم وجعلته ينظر الى الدنيا نظرة كثيبة قاتمة حالكة السواد وغلب على شعره الكلام عن البؤس وشكوى الزمان .

اختار حافظ كتاب البؤساء لهوجو فعربه ، فكنت ترى شبيب حافظ يهيم فى كتابه بين أولئك البائسين ، وكان مبدعا فى شكواه بليغا

عظيما ، قاسيا رحيمًا حتى عرف بالتفوق أولا في هذا الباب ، ولفت اليه
الأنظار ، وكان ممن لفت نظرهم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده وبعض
أصدقائه وفي مقدمتهم سليمان أباطه من وزراء المعارف السابقين وسعد
زغلول وجمع عظيم من العلماء والاعيان .

وما أن اهتم به الامام وأصدقائه الكثيرون حتى أخذت السحب
تنجاب شيئًا فشيئًا والغيوم المتلبدة تنقشع رويدا رويدا .

وقد أبدع في شكوى الزمان في قوله :

جنيت عليك يا نفسى وقبلى عليك جنى أبى فدعى عتابى
ولولا أنهم وأدوا بيسانى بلغت بك المنى وشفيت مابى

ويقول يشكو بؤسه ويصور حاله :

وددت لو طرحوا بى يوم جنتهم فى مسبح الحوت أو فى مسبح العطب
انى احتسبت شبابا بت أنفقه وعزلة شابت الدنيا ولم تشب
كم همت فى البيد والآرام قائلة والشمس ترمى أديم الارض باللهب
إذا نطقت فقاع السجن متكأ وان سكت فان النفس لم تطب

ويتحدث عن رحلة اشتراكه فى حملة السودان :

« انتظم حافظ فى سلك طلبة المدرسة الحربية وكانت غاية أمله
ومعقد رجائه وبعد أن أتم دراسته بها عام ١٨٩١ م التحق بالجيش المصرى
برتبة الملازم الثانى بالطوبجية » .

ثم اشترك فى حملة السودان الشرقى بسواكن ثم فى الخرطوم . .
وكانت النفوس اذ ذاك تضطرم بوطنية قوية ملتتهبة يتعهدنها الخديو
السابق ويذكيها ، فاكشف الانجليز جمعية سرية من الضباط لها صلة
بالخديو - ومنهم حافظ - فأحيلوا الى المحاكمة فى قلعة الجبل فأحيل
الى الاستيداع .

« لجأ حافظ عقب ذلك الى الاستاذ الامام وتمكن رحمه الله من اعادته
للخدمة فى البوليس ثم أحيل الى المعاش بعد أن قضى فى خدمة الجيش
والبوليس أربعة عشر عاما » .

شاعر النيل

«واتصل بأمير الشعراء (أحمد شوقي) وبفضل صداقته لصاحب
الاهرام التحق بها فطار صيته ، ونبه قدره ، واشتهر شعره ونثره ولقبته
الاهرام بشاعر النيل ، وأجمع الناس عليه فاستولى على هذا اللقب وعرف
كيف يذود عنه ويحميه ، ويدافع عنه منافسيه فيه » .

شاعر الوطنية

« وكانت البلاد تغلي غليانا يقود زمامه فتى شجاع يشعل فيها روح
الثورة والكفاح هو المرحوم مصطفى كامل ، فأعدها للنضال ، وجاء حافظ
يقيم له جهوده ويوقظ النار تحت مرآة العواطف الوطنية الصادقة ، فكان
لسان بلاده الغاضبة الحانقة الثائرة ، وكان شاعر الوطنية والاجتماع
والمناسبات الخطيرة ، وكانت قصائده تدوي في الآفاق فيتلقفها المتحمسون
والسياسيون والادباء على السواء ، وتضفي عليهم الى جانب الوطنية علما
وادبا وتفيض على الشرق كله أخلاقا وبلاغة وسحرا ، فكان شاعر الوطنية
الأولى » .

ونحن نثبت هذا المقال عن حافظ لصديق له كثيرا ما تودد له واحتفى
به ومس جدته الطاهر حين دعى لتخليده بقوله :

« ليس فينا من لا يشعر نحو شاعر مصر الكبير بدين يتطلب الوفاء
ولكن شعورا آخر يقعد بنا هو العجز عن حسن الأداء » .

شوقي في شعر حافظ

واذا تردد «شوقي» في شعر حافظ ونهض حافظ بواجب الولاء لشوقي وأعلن انضواءه تحت رايته ، فهو أمر لا غرابة فيه ، فما قامت هناك ملاحاة بين الشعاعين الكبيرين اللذين ضمهما عصر واحد ولا سيما أن شوقيا كان يعطف على حافظ ، وكانت حال حافظ على مانعوف من الضيق والشدة ولعله قد اختار ميدانه الوطني المرتبط بوجدانه المصقول وأحاسيسه الثائرة فحاله شبيهة بحال وطنه وكلاهما طريد البؤس والاضطهاد اضطهاد الحياة وخشونة الزمن فحين يركن اليها ليواسيها ويبكي عنها ، ويشكو بلسانها ويدفع عن حوزتها يرفه عن نفسه ويتعزى ، كما تعزى امرؤ القيس وهو يخاطب الورقاء بقوله :

اجارتنا أنا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب

أقول بأن الصبوة التي أذكأها البؤس في حياة حافظ التفت بالجو السياسي القائم والمشبع بضروب العنت والعسف ، فأرهف في نفسه الحس وزاد من فورته وثورته ووجد في نضرة أمه الباقية ، الخالدة ، المستندلة (مصر) ترويحاً عن نفسه واستمساكاً لروحه ، وحين غامر وقامر وشفقت له الجماهير واندلعت شرارة الثورة في أعصاب الشباب ، ورأى أن له في النفوس فعل السحر وأنس إلى القلوب المكلومة التي التفت به وانعطفت له تفجرت قريحته بذلك ينبوع الوطني والشعر السياسي الذي اجتمعت له عدته واستوت له طريقته ، وأوتى أكله من راحة الضمير واسترواح النفس وصفاء البال حين يأخذ بيد قومه وهو المصري الأصيل ابن النيل الذي يهتز للمعروف ويغيث الملهوف ويتعشق البطولة ، لقد كان كالمغنى الشعبي الذي يأخذ بزمام الجماهير فما تزال تصفق له وتحتفى به وتقدر مروءته ومكانته وهو يشجئها ويبث فيها الحياة ، ويسقى ظمأها ويرام التياحها .

ثم كان ذلك الشأو المرموق الذي اتخذ شكله الأدبي العام فهو شاعر النيل وهو المنافع عنه ، وهو درة الحفل والاقة المهرجان .

ثم كان ما وهب الله له من طلاقة في الالتقاء وتعبير في الصسوت ، والتفات وبراعة في اخراج ذلك الكلام المنغوم ، ذلك اللحن الساحر .

وكانت المحافل وهي تلتقط تلك الدرر وتذيع فيما بينها وتتناقل صدى تلك الألحان التي ينشرها حافظ وينديعها بين الصحف والحفلات .

كان عود الثقاب فى يوم الحر الصائف يقع وينبث فى الهشيم فما
هى الا النيران والدخان وما وراءهما من عرام .. وصدام .
وكان قبل ذلك وبعد ذلك كله شاعرية حافظ وموهبته النامية فى
الجو المهيأ لها .

فاذا أنشد أمير الشعراء احمد شوقى يخاطب شاعر النيل بقوله :
ياحافظ الفصحى ، وحارس مجدها وامام من نجلت من البلغاء
مازلت تهتف بالقديم وفضله حتى حميت أمانة القدماء
وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل للدهر اصغار وحسن ثناء
حين يحيى أمير الشعراء حافظا بقصيده هذا نجد حافظا يتحدث عن
نفسه بترفق يطمئن زمانه ويجمال أقرانه فى تواضع الاعلام آونة ..
وهل أنا الا امرؤ شاعر كثير الأمنى قليل النشب
يقول ويطرب أترابه ويقنع منهم بذاك الطرب
وفى أسلوب ساخر لاذع يكاد فيه ينكر نفسه :

تعلقت حيننا بذيل البيان وأدخلت نفسى فى من كتب
فلا السبق لى فى مجال النهى ولا لى يوم الفخار العجب
ولا أنا من عليقة الكاتبين ولا أنا بالشاعر المنتخب
ثم يذكر نفسه قليلا ، ويطلق لأحاسيسه التعبير ولكنه يقيم عليها
حارسا من فنه وفطنته وحاجته :

لم أجد أحدا فى الشعر يسبقنى الا فتى ماله فى السبق الآه
ذاك الذى حكمت فىنا يراعتنه وأكرم الله والعباس مثواه
وماذا يضيره اذا احترس لنفسه ولم يركب رأسه فيغضب شوقى اذا
هو جهر بمكانته التى يحسها ، ويكتمها ، ولا يبوح بها الا لخلصائه ،
ومناديه ، ان ذلك لن يكون على حساب غيره بل على حساب نفسه هو وهو
حر فيها هو الذى يملكها ، وهو الذى يحمل اصرها ووزرها .. فلا عليه
اذا سعى مع الساعين وانضم الى الوافدين ، ودخل مع لداته وأقرانه وأجمعوا
على مبايعة شوقى بالامارة .. ولا عليه اذا نكس رؤوس قوافيه احتشاما
وتكريما :

أتيت سوق عنكاظ أسعى .. بأمر الرئيس
أزجى اليه قوافى منكسبات الرؤوس
ليست ببذات رواء تزهى به فى الطروس

ولا بذات جمال . . يسرى بها فى النفوس
لم يحبها فضل شوقى بقيسة من نسيس
وكأنما كان شوقى ملكا يحكم ، وكان حافظ وزيرا له يحوطه بما
يحيط به الوزراء ملوك الطغيان بالهل والهيلمان :

قال الرئيس ومن ذا يقول بعد الرئيس
سقى الحضور شرابا ينسى شراب القسوس
معتقبا قبل عباد فى مظلمات الحبوس
يريك والليل داج شموسه فى الكؤوس
ثم يغمز المزهرا أو يضرب على الصنج ويزف شوقى فى حلبة
المهرجان :

بنات أفكار شوقى فى جلوة كالعروس
تزهى بمعنى سرى أتى بمعنى شموس
وهو اذ يبدع فى بيانه هذا ويمتع ، يمكر بالحفل ومن فيه ولا
ينسى أن يأخذ بحقه فى ذلك الاعجاز الشعرى الذى يديره على النفوس
ويكرم به شوقى :

ان عقارب الشعراء حين تدب دبيبها ليست فى حاجة أكثر مما برع
فيه حافظ ليستهوينا ويرقصها ويتحاشى أذاها ، فالمكانة الرسمية التى
كان يتمتع بها شوقى والمنزلة التى أنزلها من الملوك والحكام ومن يلوذ
بهم لم تكن ضعيفة الحيلة اذا هى أرادت أن تحيط بهذا الشاعر الذى
نبغ فنه وبرز نجمه .

ها هو شوقى يعود من منفاه فيستقبله حافظ ويسكره ويسهره :
ورد الكنانة عبقرى زمببانه فتنظري يا مصر سحر بيانه
النيل قد ألقى إليه بسببانه والماء أمسك فيه عن جريانه
ويعيد ويزيد . . .

فاصدح وغن النيل واهرز عطفه يكفيه ماعنساء من أحزانه
واذكر لنا الحمراء كيف رأيتها والقصر ماذا كان من بنيانه
ماذا تحطم من ذراه وما الذى أبقت صروف الدهر من أركانه
واها عليه وأهله وبناته أيام كان النجم من سسكانه
ويذكر ملك الأندلس بما لا يدع لغيره فيه وصفا :

اذ ملك أندلس عريض نجبانه وشبابه المبكى فى ريعبانه

الفتح والعمران آية عهد
بست به الدنيا لباس حضارة
وكتائب الأقدار من أعوانه
قد كان يخلعه على جسيранه
ويخلق حافظ وتصفو قريحته ويعتدل مزاجه ويغمر زهوه الابداع
فينشد :

هذا امرؤ قد جاء قبل أوانه
ان قال شسعرا أو تسنم منبرا
ان لم يكن قد جاء بعد أوانه
تخذ الخيال له براقا فاعتلى
فتعوذوا بالله من شيطانه
ما كان يأمن عشرة لو لم يكن
متن السها يستن في طيرانه
انا لنلهو اذ نجد ، وانه
روح الحقيقة ممسكا بعنانه
أقلامه لو شاء شك قصيرها
ليجد اذ يلهو بنظم جمانه
ويبشر وطنه بلقاء العندليب العائد ..

فالحمد لله الذي قد رده
فتنظروا آياته وتسمعوا
من بعد غربته الى أوطانه
قد قام بلبلكم على أغصانه

ويفيض في الاعتذار مع تقديم آيات الاجلال والاكبار حين تمسك به
الظروف الخاصة عن حضور حفلة قران احدي كريمات شوقي ، ولعله
ما تخلف الا لتحرجه من غشيان ذلك العرس الذي تتألق فيه الحل وترف
فيه الموشيات وهو ذو القناع الاسود واللباس الأنكد ..

انه يتلمس العله فيجدها في المرض ولا بأس في ذلك ولكنه يعرض
على الاعتذار :

يا سيدي وإمامي
يا أديب الزمان
قد عاقني سوء حظي
عن حفلة المهرجان
وكنت أول سماع
الى رحاب « ابن هاني »
لكن مرضت لنحسي
في يوم ذاك القران
وقد كفاني عقابا
ما كان من حرمانى
حرمت رؤية شوقي
ولثم تلك البنان !

وحين يهتف الشاعر ويصرح في ذلك المهرجان المشهود الذي بويح
فيه شوقي أميرا للشعر نضع أمام القارئ أبياتا من قصيدة تبلغ المائة
بيت أنشدها في مهرجان تكريم شوقي عام ١٩٢٧ مع رتل من شعراء
الاقطار العربية :

بلا بل وادى النيل بالشرق اسجعى
بشعر أمير الدولتين ورجعى
أعيدى على الاسماع ما غردت به
براعة شوقى فى ابتداء ومقطع
براهما له البسارى فلم ينب سنها
اذا ما نبا العسال فى كف أروع
وفيهما يقول حافظ :

لئن عجبوا أن شاب شوقى ولم يزل
فتى الهوى والقلب جم التمتع
لقد شاب من هول القوافى ووقعها
واتيانه بالمعجز المتمنع
ويقول له عملت على نيل الخلود ، ولا يقول له سوى هذا الأسلوب:
تملكت من ملك القريض فسيحه
فلم تبق يا شوقى لنا قيد اصبع
فبالله دع للناترين وسيلة
تغىء عليهم واتق الله واقنع
عملت على نيل الخلود فنلتها
فقل فى مقام الشكر يارب أوزع
جلا شعره للناس مرآة عصره
ومرآة عهد الشعر من عهد تباع
أتراه يحترس فى التعبير واختيار اللفظ ثم يفتن فى الزهو بابرار
أوابده :
أجل لقد كان حافظ وهو يكتب يتخير اللفظ الذى يضم المعنى الذى
يعنيه ويدرك به مرامه :

نفيت فلم تجزع ولم تك ضارعا
ومن ترمه الأيام يجزع ويضرع
فى المصراع الثانى من البيت السابق ما يشير الى المعنى الذى قصدنا
اليه ، فما كان حافظ ليضرع وينكس رءوس قوافيه لشوقى لولا رمية
الأيام له .

وأخصبت فى المنفى وما كنت مجدبا
وفى النفس خصب العبرى السמידع

تذكرت عذب النيل والنفس صبة
ألى نهلة من كوب ماء مشعشع
وأرسلت تستسقى بنى مصر شربة
فقطعت أحشائي وأضرمت أضلعي
وهو يهنىء شوقي ويهنىء وطنه ويثبت لله عطفه ولطفه ورحمته
لعودته :

أبى الله إلا أن يردك سالماً
وعدت فقرت عين مصر وأصبحت
وأدركت ما تبغى وشيدت آية
وما أحسن ما يصف به كرمه ابن هانىء فى خيال خصب لمّاح :
حمى يتهادى النيل تحت ظلاله
تهادى خود فى رداء مجزع
ثم يذكره بظمئه لنهلة من ماء النيل ويغريه ليعب منه وقد ذلله
الله له :

لقد كنت ترجو منه بالأمس قطرة
فدوتكه فأبرد غليلك وانقع
ثم يعلن الأمر الذى اجتمعوا له فى بيته الشهير :
أمير القوافى قد أتيت مبايعاً
وهذى وفود الشرق قد بايعت معى
وهو يقوى نفسه فى البيت قوة لا ضريب لها فحينما بايع بايعت معه
الوفود ، ولم يكن ثم اختلاف ..
والبيت الأخير يكفى وحده لأن يكون قصيدة خالدة !

أخوة الأدب . وأخوة العرب

ولا يفوتنا ونحن نسجل رأى حافظ إبراهيم فى أمير الشعراء أن
نثبت دون تزييد أو تعليق ما صادفنا فى البحث مما ندعه لفطنة القارىء .
يذكر الاستاذ الجليل الشيخ عبد القادر المغربى رئيس المجمع العلمى
العربى بدمشق فى تقديمه لديوان الشاعر عبد المحسن الكاظمى .
يقول الاستاذ الشيخ المغربى :

كان الامام (يقصد الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمة الله عليه)
يتعهد الشاعر الكاظمى فى آخر كل شهر بعشرة جنيهاً ، يودعها غلافاً ثم
تسلم اليه فى داره دون أن يشعر بما فى الغلاف أحد ، وبعد وفاة الامام
لم يجد مندوحة عن السعى لدى الخديو فى أن يكون له مرتب شهري من
الأوقاف فتوسط فى هذا الامر الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، فكان
الشيخ يراجع الخديو فى تقرير الراتب ، والخديو يابى - كلما روجع
بشأنه - الا الرضخ له من مال الأوقاف بنحو خمسين جنيهاً ، وكنت أذهب
مع الشيخ عبد المحسن الى الديوان فيقبضها ، وقد تكررت هذه المعاملة المرة
بعد المرة ، والشيخ عبد المحسن فى كل مرة يظهر التأفف من تناوله المعونة
على هذه الصورة التى ما كان يراها تتفق مع كرامته ، وإباء نفسه . وكان
يلج على الشيخ على تارة بنفسه وطورا بواسطتى أن يكلم الخديو فى
تعيين راتب شهري مقطوع يريجه من عناء التوسط ومكابدة المعاملات
الديوانية .

وان انتساب الشيخ الكاظمى الى الامام المفتى ان كان من شأنه أن
يحدث فتورا نحوه من نفس الخديو ، فما كان قط ليحدث مثل هذا
الفتور فى نفس الشيخ على يوسف ، فكنا ننزه الشيخ عليا عن وصمة
الفتور لكننا كنا واقفين وقفة الايجاس من حالة الخديو عباس .

ثم ضاق الشيخ عبد المحسن بالأمر ذرعا فكلفنى أن آخذ من الشيخ
على وعدا بانجاز المسألة مع الخديو : اما سلبا يريخ النفس . أو ايجابا
يزيح العلة فتركت الشيخ عبد المحسن فى غرفة التحرير ، ودخلت على
الشيخ على ، وبلغته الرسالة وكان يصحح مقالة للطبع ، فترك القلم من
يده وتنفس الصعداء ، ثم قال :

- ماذا أصنع يا أستاذ ؟ أنهيت القضية أمس مع الخديو ووعد

وعدا أكيدا بإصدار أمره بتعيين الراتب ، وقد شكرت له ، وخرجت من عنده ، لكننى لم أكد أبرح الباب حتى دخل عليه بعض الناس (ولم يسمه لى) .

فقال للخديو : رأيت فلانا خارجا من عندك ، فماذا ينبغي ؟ فقال : قررنا راتبا للشيخ عبد المحسن الكاظمي ، قال : أنسيت أنه شاعر المفتي (يقصد الشيخ محمد عبده) وقد قال فيه من الشعر كذا وعرض فيك بكذا وكذا . . . ؟

قال الشيخ على يوسف : فما كان من الخديوى الا الشح برفده . . . والتكول عن وعده ، فلما وعيت هذا رجعت الى الشيخ الكاظمي ، فأخبرته الخبر فتأثر جد التأثر وقال : أتعرف من هو بعض الناس ؟ قلت : لا . قال : هو احمد شوقي .

ويعلق الاستاذ حكمت الجادرجي قنصل المملكة العراقية بالاسكندرية وهو الناشر لديوان الكاظمي على هذه الحادثة بقوله :

جاء فى عدد مجلة الرسالة الصادر فى ١٣ من اكتوبر سنة ١٩٤٧ مايلى بقلم (الجاحظ) فى معرض الكلام عن رأى حافظ ابراهيم شاعر النيل فى احمد شوقي .

رأى حافظ

« وقص علينا حافظ ابراهيم كيف جاء المرحوم الشيخ عبد المحسن الكاظمي الى مصر غريبا طريدا فحب أن يكون له فى رحاب الخديو متسع ، ولكن شوقي خشى منافسة الشاعر العراقي فسد عليه الباب وقطع عليه كل رجاء ، وكفر فى هذا بأخوة الأدب وأخوة العرب وبالواجب نحو رجل شطت به الدار ووجد السيد عبد المحسن فى الاستاذ الامام حمى ، ولكن الحمام لم يمهل الاستاذ الامام ، وهنا تهدج صوت حافظ ، ودمعت عيناه ولم يستطع أن يتم الحديث » .

أفق ساعة ..

| | |
|---------------------------------|--------------------------------|
| أفق ساعة ، وانظر الى الخلق نظرة | تجدهم - وان راق الطلاء - هم هم |
| على ظهرها من شر أطماعهم دم | وفوق عبا ب البحر من صنعهم دم |
| تفانوا على دنيا تغر وباطل . . . | يزول اذا ما ضجت الأرض منهم |
| ثليتك تحيا يا أبا الشعر ساعة | لتنظر ما يصمى ، ويدمى ، ويؤلم |
| وقائع حرب أجج العلم نارها | فكاد بها عهد الحضارة يختتم |
| وتعلم أن الطبع لازال غالباً | سواء جهول القوم والمتعلم |
| فما بلغت منه الحضارة مأرباً | ولا نال منه العلم ما كان يزعم |

حامد وعذول !

وياخذنى العجب ، وتتملكنى الدهشة من ذلك الذى يسألنى : لم تكتب عن حافظ ؟ وكيف تعده شاعر القومية ؟ وهو الذى كتب ما كتب فى مديح المعتمد البريطانى .. ! الى آخر تلك الحملة المغرضة ضد ذلك الشاعر الوطنى الخالص .

ولو أنى فى حديثى عن حافظ أخلص هذا البحث فى مثل ما يخالج أمثال هؤلاء لهان الأمر فى الحجاج والإقناع . بل اننا اذا ما التفتنا لمثل هذه القضايا فسوف نحيد عن جوهر بحثنا ، فان هذا الشاعر الذى يرى فيه بعض غلاة الرأى مايرون من ضروب الأقاويل ، وتهاويل الكلام ، قد حكم فيه التاريخ ، وأصدر فيه الأدب ما يسمو به عن تلك النزوات .

فمن نفس على حافظ مكانته واعتبر ذبوع صيته ونباهة شأنه أوفى من شاعريته ومن كبر عليه أن يعقد له تاج الخلود بجانب ضريبة شوقي وخاصة فى ميادينه التى اختص بها ومن اعتل عليه بما قرأ له فى سياسياته من أبيات صانع فيها الانجليز ومن كانوا من أتباع مدرسته ، وأشياء أخرى .

أقول لكل هؤلاء ، وهم يعسرون فى الحساب ، ويتواصون بالكيد له والولوج فى مكانته وشاعريته .. ان لكل رأيه فيه ، بيد أن هذه الآراء مع اختلافها لا ينبغي أن تأخذ الطريق على الساعى الى الروض يتملى من حسن زهراته ويروى من طيب نفحاته ، وعلة العلل فينا أننا نتعصب ولا ندع للحنة القارة .

ولو أن منصفاً نظر الى هذا العملاق نظرة متجردة ، فنظر الى شعره بالنسبة الى عصره ، ومجتمعه ، وما كان يخب فيه ويضع فى حياة لم يكن أمثال أى مجترى من هؤلاء بمستطيع أن يشجع كما تشجع حافظ هل يضح الناقد فى حسابه ذلك الجو الذى تنفس فيه حافظ وهو يتحدث عن وطنه ويقول :

إذا نطقت فقاغ السجن متسكاً وإن سكت فإن النفس لم تطب

ومن هو حافظ هذا فى اصطراعه مع هؤلاء الغلاة من المستعمرين ، بل عملائهم المصريين ؟ ألم يستشهد من استشهد فى الصراع الذى طال وامتد الى سبعين عاماً ؟ ألم يلق العنت كثيرون ؟ ومن ذا الذى كان يستطيع

غير حافظ أن يجهر بالشكوى فى حادث دنشواى ؟ وفى خطاب المعتمد
البريطانى بمثل ماجهر به حافظ وبمثل مايقظ به أمته .

ألا نعد حافظا أحد هؤلاء الاعلام الذى كانت لهم القيادة والبطولة
فى ايقاظ مصر ، ومجاهدة المستعمرين ، والصبر على أذاهم ، فى السودان
ثم يدخل فى الموضوع، موضوع الشعب وحقوقه ، ومظالم الاستعمار
وفى مصر . . . لقد اصطنع بعض اساليب السياسيين وهو يعيش معهم ،
فاذا وجه خطابه الى الانجليز بقوله : وهم القائمون بالامر فىنا ، مشيرا
الى حادث دنشواى :

أيها القائمون بالامر فىنا هل نسيتم ولاءنا والوداد ؟ !
خفضوا جيشكم وناموا هنيئا وابتغوا صيدكم وجوبوا البلاد
مشيرا الى القيد الذى يرسف فيه الشعب :

انمبا نحن والحمم سواء لم تغادر أطواقنا الأجيادا
ويشير الى قتيل الشمس بقوله :

لا تقيـدوا أمة بقتيل صادت الشمس نفسه حين صادا
ثم يثور ويفور بقوله بعد فترة الاستهلال :

ليت شعرى أتلك محكمة التف تيش عادت أم عهد نيرون عادا
ويبلغ ذروة البيان فى التهكم والسخرية بهم اذ ينشد :

كيف يحلو من القوى التشفى من ضعيف ألقى اليه القيادا
انها مثـلة تشف عن الغيظ ولسنا لغيظكم أنـدادا

ان المرمى الذى حدا بالشاعر أن ينشد قصيدته تلك ، ليس هو
المناجاة لتلك الدولة المتعسفة أو التقرب الى مندوبيها بمصر ، أو التماس
منفعة لدى بحكام مصر من العملاء ، أو عطف قلب المدعى العمومى إبراهيم
الهلباوى الذى يخاطبه حافظ بقوله ينعى عليه موقفه المزرى من بنى وطنه :

أيها المدعى العمومى مهلا بعض هذا فقد بلغت المرادا
قد ضمننا لك القضاء بمصر وضمننا لنجلك الاسـعادا

ويدمغه بالحجة ويحملة وزر الحدث المشثوم بقوله :

أنت جـلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يدك الجـدادا

وانما حدا بالشاعر أن يسكب ذمعة على الحدث الخطير ، ذمعة يستشير
بها بنى وطنه ويفتح أعينهم على الخطب الذى وقع بين ظهرائهم ، وينبـه

هذا الشعب الى معرفة أعدائه - من المستعمرين - الذين لا يملك الشعب في مقارعتهم الا النوم والاستكانة حينذاك :

أمة النيل أكبرت أن تعادى من رماها وأشفقت أن تعادى
ليس فيها الا كلام والا حسرة بعد حسرة تتهادى
وهو في هذا الجو المكفهر جو السياسة العابس والتسلط من القوى
المتربص مسلوب المروءة والضمير ضد الشعب الضعيف الأعزل ، يهيب
ببنى وطنه من عملاء المستعمر في شخص ذلك المدعى العمومي ، بل ويصرخ
فيه وفي أمثاله مخاطبا مصر :

لا جرى النيل في نواحيك يا مصر — ولا جادك الحيا حيث جادا
أنت أنبت ذلك النبات يا مصر فأضحى عليك شوكا قتادا

فاذا تصرمت أشهر ثلاثة والدمع لم يجف على الشهداء والنفوس في
جزعها مانزال هالعة ، واذا ما أوشكت الحادثة أن يخف أثرها أو يشغل
الناس شاغل عنها ، يجد الشاعر في استقبال اللورد كرومر وهو عائد من
مصيصة فرصة للمعاتبة والمغاضبة ، العتب على الحدث الذي ما يزال ماثلا
في قلب كل مصري ، حادث دنشواي ، والمغاضبة لما نقلته أسلاك البرق
من ذلك التقرير الظالم الذي رفعه اللورد كرومر الى دولته ، وفيه يطعن
على المصريين ويجرحهم وقد نشر هذا بالصحف المصرية .

كتب عميد الانتداب البريطاني الى انجلترا يندد بمسلك الشعب
المصري ويتهمة بأنه لا يقابل الجميل بالجميل ، فهو يدعى ان الاصلاحات
التي تقدمها الدولة المسعورة كان يجب أن تقابل بالشكر والامتنان وعرفان
الجميل ، ولكن شعب مصر في نظره ذلك الشعب الذي نصبت فيه محاكم
التفتيش في دنشواي ليس أهلا للخير .

كتب هذا «كرومر» الطاغية ، فتصدى له الشاعر يفند حجته ويحاور
خديعته وينافحه ويلاحيه ، ثم يأخذ بتلابيبه ، ثم يوقظ شعبه ، ويكشف
الاعيب المستعمر :

استمع اليه يخاطب (قصر الدوباره) وهو يعنى ساكن القصر بما
أمله الله من حول وطول وقوة ، وهل لحافظ ابراهيم الشاعر الفقير الضعيف
حول وطول وقوة الا هذا البيان الناصح :

أهلا بساكنك الكريم ومرحبا ؟ بعد التحية اننى أتعجب
صيفة رسالة بعث بها حافظ في أبيات من الشعر فحين ننشر هذا
البيت نقول :

المعتيد البريطاني ب ساكن القصر المكرم - تحية وأهلا بك ومرحبا

اننى أحمل اليك عتاب هذا الشعب فيما ذهبت اليه .

ثم يقول :

نقلت لنا الأسلاك عنك رسالة باتت لها أحشاؤنا تتلهب
ماذا أقول وأنت أصدق ناقل عنا ، ولكن السياسة تكذب

أفطنت معي أيها القارئ فى هذه الابيات ماذا يعنيه الشاعر :

انه يصور حالة مصر من تلهب أحشائها واضطراب جذوة الغضب
فيها بعد ما أحيطت بما نقله اللورد كاذبا عليها ، وان كان تقريره أصدق
تقرير تستمع اليه دولته ، ثم يجاذبه الحوار ويحيطه علما بأن مصر
لا تستجيب لظواهر الاصلاح ، وان ذلك من حقها :

علمتنا معنى الحياة فما لنا لانشرئب لها ، ومالك تغضب
ثم يدخل فى الموضوع، موضوع الشعب وحقوقه ومظالم الاستعمار .
والحزن المسيطر على النفوس وما اجترحوه من سيئات وفظائع فى الحادث
المشئوم :

ان ضيق صدر النيل عما هاله يوم الحمام فان صدرك أرحب
أو كلمنا باح الحزين بأنة أمست الى معنى التعصب تنسب
ويترقق فى عتابه على طريقته اللاذعة وهو يحس بأن شعبه كليلى
مستضعف :

رفقا عميد الدولتين بأمة ضاق الرجاء بها ، وضاق المذهب
ان أرهقوا صيادكم فلعلهم للقوت لا للمسلمين تعصبوا
ولربما ضن الفقير بقسوته وسخا بمهجته على من يغضب
وينتقل الشاعر الى مرحلة أخرى فى القصيدة ، هى وصف الفاجعة
وترديد أحداث المصاب ، اثاره النفوس ، وبعث الضغينة فى القلوب وتحريك
الشعب :

حسبوا النفوس من الحمام بديلة فتسابقوا فى صيدهن وصوبوا
خليتهم والقاسسطون بمرصد وسياطهم وحبالهم تتأهب
جسدوا ولو منيتهم لتعلقوا بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون على المسات وكأسه بين الشفام وطعمه لا يعذب
ويتصعد الأسى فى نفسه وتهيجه الذكريات فيواصل وصف الفاجعة:
موتان : هبنا عاجل متنمر يرنو ، وهذا أجلى يترقب

والمستشار منكاث برجاله ومعاجز ومناجز ومحزب
ويلقى عليه درسا بالغا فى السياسة بقوله :

طاحوا بأربعة فأردوا خامسا هو خير ما يرجو العميد ويطلب
حب يحاول غرسه فى أنفـس يجنى بمفرسها الثناء الطيب
أتى أنهم قتلوا الشهداء الاربعة ثم أرادوا بهذا ما يحاولون غرسه من
حب ، أى أن فى هذا الحادث القضاء على ما قد يكون هناك من علائق بين
المستعمر والشعب . وضياع بكل أساليب السياسة فى عطف القلوب
المخدوعة بتلك السياسة .

ويوجه اليه الخطاب مناصحا فى أسلوب الحكيم يسدى النصيح الى
الأغرار :

فاجعل شعارك رحمة ومودة ان القلوب مع المودة تكسب
واذا سئلت عن الكنانة قل لهم هى أمة تلهو وشعب يلعب
واستبق غفلتها ونم عنها تنم فالناس امثال الحوادث قلب
واذا كان الشاعر لا يكاد يستريح ذهنه حتى يلتبس سببا للشكوى
من الاحتلال فانه لا يفتأ يخاطب ذلك العميد ويحاسبه ويكشف الأعيبه
ويرصد حركات سياسته وخداعه :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت حواشيه حتى بات ظلما منظما
ويطلب اليه أن يكف عن المن والأذى ويرفض باسم الشعب ما يدعيه
من اصلاحات ويطلب اليه أن يعيد عهد اسماعيل فانه خير من المن وان كان
عهد اسماعيل أظفى وأظلم فقد كانت تجلد فيه ظهور الناس ويسـخرون
تسخير الحيوان :

تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى وان أصبح المصرى حراً منعماً
أعد عهد اسماعيل جلدا وسخرة فانى رأيت المن أنكى وآلما
وفى تعبير الشاعر بقوله : «أخصب الثرى» فيه احتراس من اسناد
الحير اليهم ، فالخصب والنماء طبيعة أرضنا . ومع هذا فهم يمنون علينا
بتلك الطبيعة الصادقة .

ويرى الشاعر أن فى خصب الارض وجذب أهلها ما لا يستحق المن
فالفقر محقق ، وهو بهذا يشير الى أن خصب الارض ليس بعائد على الشعب
وانما الشعب فى فقر وجذب بسبب نهب غلاتهم وسلب أموالهم ومحصولاتهم
فى قوله :

اذا أخصبت أرضى وأجذب أهلها فلا أطلعت نبتا ولا جادها السما

ولله ذره وهو يذكرهم بما أصيبت به البلاد على أيديهم : -

نهش الى الدينار حتى اذا مشى به ربه للسوق ألفاه درهمًا

وقى مثل المرة السابقة أى بعد شهرين آخرين ، يقف الشاعر وقفة جديدة وكأنما هو مخام اختارته مصر للدفاع عنها ، والقضية تؤجل وتُنظر على فترة من الزمان ما بين خمسين يوما أو سبعين .

فهذا العميد البريطاني يستقيل ويعود ، فمن ذا الذى يحاسبه على سياسته فى تلك المدة ومن ذلك المحامى الذى يقوم منذرا تلك الدولة الاستعمارية ويضرب لها الأمثال عن تلك الفترة الطويلة التى لم ينجح فيها .

في دنشواى . . . !

أمست الى مغنى التعصب تنسب
ضاق الرجاء بها وضاق المذهب
لعب القضاء بنا ، وعز المهرب
فتسابقوا فى صيدهن وصوبوا
لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا
وسياطهم وحبالهم تتأهب
بحبال من شنقوا ، ولم يتهيبوا
بلظى سياط الجالدين ، ورجبوا
ومعاجز ، ومنعاجز ومحزب
والدمع حول ركابه يتصبب

حافظ إبراهيم

أو كلما باح الحزين بأنه
رفقا عميد الدولتين بأمة
في (دنشواى) وأنت عنا غائب
حسبوا النفوس من الحمام بديلة
نكبوا ، وأقفرت المنازل بعدهم
خليتهم والقاسطون بمرصد
جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا
والمستشار مكاثر برجاله
يختال فى أنحائها متبسما

حديث الناس . . . !

وحين يؤرخ للتاريخ فترة تزيد على أربعة وعشرين عاما حكم فيها عميد الدولة الانجليزية (اللورد كرومر) مصر يتحدث حافظ بلسان الشعب حديث الناس في قصيدته تلك التي نشرت في ابريل عام ١٩٠٧ ، وبينما يسخر منه بقوله :

لقد كان توديع العميد وانه حقيق بتشجيع المحبين والعدا
فودع لنا الطود الذي كان شامخا وشيع لنا البحر الذي كان مزبدا
ويزيد في تهكمه وسخريته به في قوله :

أمناء، فلم يسلك بنا الخوف مسلكا ونمنا، فلم يطرق بنا الذعر مرقدا
ثم يدير عليه وعلى القارئ رأيه في قوله ويحصى عليه تاريخه :

تشعبت الآراء فيك فقائل أفاد الغنى أهل البلاد ، وأسعدا
وكانت له في المصلحين سياسة ترخص فيها تارة وتشددا

بينما يعلن له ذلك يباغته بالحقائق الدامغة ، وبما جره من افساد
وما اقترفته السياسة الانجليزية في مصر مما اوضحه بأسلوب شعري
ناصر لا يحتاج الى تعليق أو شرح :

قضيت على أم اللغات ، وانه قضاء علينا ، أو سبيل الى الردى
ووافيت والقطران في ظل راية فما زلت «بالسودان» حتى تمودا
فطاح كما طاحت مصوع بعده وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى

ويذكره بمطاعنه على المصريين وحجب المؤيد ومنعه من دخول
السودان :

حجبت ضياء الصحف عن ظلماته ولم تستقل حتى حجبت المؤيدا
وأودعت تقرير الوداع مفساما رأينا جفاء الطبع فيها مجسدا
غمزت بها دين النبي وائنا لنغضب ان أغضبت في القبر أحدا
يناديك أين النابغون بعهدكم وأي بناء شامخ قد تجسدا
يناديك : وليت الوزارة هيئة من الصم لم تسمع لأصواتنا صدى

ثم يعاوده في العتب والمحاورة الجريئة التي يأخذ فيها بتلابيبه
لمحاسبته الحساب العسير كمواطن حر جرى :

بربك ماذا أضدنا ولوى بنا
أشرت برأى في كتابك لم يكن
عن القصد ان كان السبيل ممهدا
سديدا : ولكن كان سهما مسددا
وحاولت إعطاء الغريب مكانة
تجر علينا الويل والذل سمرمدا
فياويل مصر يوم تشيقي بندوة
يبيت بها ذاك الغريب مسودا
ثم يعدد له سوءات السياسة الاستعمارية :

ألم يكفنا أنا سلينا ضياعنا
غلى حين لم تبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنا في العيش كل ممارس
خير ، وكنا جاهلين ورقدا
وما الشركات السود في كل بلدة
سوى شرك يلقي به من تصيدا
فهذا حديث الناس ، والناس السن
إذا قال هذا صاح ذاك مفندا

الذل شئنة العبيد ..

عجبت لقومي لا يحفظون تاريخهم .. ذاك الذي سطره صاحب اليراعة
الساحر «حافظ» وهو يستقبل معتمدا جديدا في مصر بعثت به اليها الدولة
الاستعمارية عام ١٩٠٧ بعد رحيل سلفه اللورد كرومر .

فبينما يشيع حافظ العميد الراحل ويعلق في رقبته «كشف الحساب»
ويدمغه بذلك الأطار الأسود الذي حمل صحيفته زهاء قرن من الزمان
يعيث فيه فسادا في ربوع بلادنا .

تراه يستقبل تبعا آخر من أتباع تلك الدولة الخاسرة هو السير
«غورست» .

وفي دراسة قصيدته تلك التي يسجل فيها آراءه ومشاعره وينفض
بها همومه وأحزانه وما استوعبته نفسه ، واستودعه سره من بغض شديد
لهذه العصابة التي لاتني تسرف في التنكيل بالشعوب ، تراه يستهلها بما
يقوى همته ، ويشد عزيمته وما به يزهي على التاريخ في واقفة ، وبكأنه
بطل فاتح يسجل لنفسه يوما مشهودا :

بنات الشعر ، بالتفجأت جيودي
فهذا يوم شاعرك المجيد
ثم يستغلي بمكانة القصيد الذي يرفعه الى سموات الدرا :

إذا ما جبل قدرك عن هبوط
مريه الى سبائك بالصعود
ولله دره ، وهو ينزه نفسه في مقامه هذا مقام الغايات الكبرى حيث
يصوغ قريضه ويسوق نشيده دفاعا عن وطنه لاطمعا في عرض زائل :

فما أنا واقف برسوم دار ولا مستنجز خنز الوعود
ولكنى وقفت أنوع نوجبا على قومي ، وأهتف بالنشيد
وأدفع عنهم بشيبي يراع يصول بكل قافية شروذ
بنات الشعر ان هني السن بعدتني شكريت من العميد الى العنيد
ولم أجد عوارفه ، وليكن رأيت المن داعية الجحود

ولعلها شكاة شعب في ثوب ميثاق ودعوى الى عدل واصلاح ، بل
لعلها نذير يقدمه للمستعمر الجديد ، فيقص عليه طريقا من سيرة سلفه ،
لا بل انه يفصح له بأن الشعب المصري واع بالأعيب المستعمر ، مستمسك
بحقه ، وان المفكرين في هذا البلد لا يمكن أن يعيشوا في غفلة :

اذا اعلولى الصياح ، فلا تلمنا فان الناس في جهد جهيد !
على قدر الأذى ، والظلم يعلو صياح المشفقين من المزيـد
جراح فى النفوس نغرن نغرا وكن قد اندملن على صديد

ثم يتحدث الشاعر باسم شعبه وكأنه مفوض عنه بالمطالبة جهرا بحقه:
ولكننا نطالبكم بحق أضر بأهله نقض العهد
رمانا صاحب التقرير ظلمنا بكفران العواقب والكنود
وأقسم لا يجيب لنا نداء ولو جئنا بقرآن مجيد
وبشر أهل مصر باحتلال يدوم عليهم أبد الأبيـد
وانبت فى النفوس لهم جفاء تعهد بمنهل الصود

ثم ينتفض الشاعر وكأنما حاجته الذكريات وأشجته الأحداث فيتحدث
عن دنشواى بناقوسه ذاك الذى يقرع به الآذان :

قتيل الشمس أورثنا حياة وأيقظ هاجس القوم الرقود
فليت كرومرا قد دام فينا يطوق بالسلاسل كل جيد
ويتحف مصر آنا بعهد آن بمجلود ، ومقتول شهيد
لنزع هذه الأكفان عنا ونبعث فى العوالم من جديد

ثم يندد بسياسة المستشار « دنلوب » بما هو أهل له :

هبوا « دنلوب » أرحبكم جنانا وأقدركم على نزع الحقود
وأعلى من « غلادستون » رأيا وأحكم من فلاسفة الهندود

ويعلن رأيه بصدد تصرفاته :

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| فأنا لا نطيع له جسوازا | وقد أودى بنسبا أو كاد يودي |
| مللنا طسول ضحيته وملت | سوايقنا من المشى ألوثيد |
| خذوه فامتعوا شسعبا سوانا | بهذا الفضل والعسلم المفيد |

| | |
|---|-----------------------------|
| ثم يعلن الضيق أشد الضيق بالانجليز وأتباعهم في مصر : | |
| أرى أحداثكم ملكوا علينسبا | (بمصر) موارد العيش الرغيد |
| وقد ضقنا بهم ، وأبيك ذرعبا | وضساق بحملهم ذرع البريد |
| فخبرهم وأنت بنسبا خبير | بان البذل شنشسنة العبيد |
| وأن نفوس هسذا الخلق تأبى | لغير الهسبا ذل السسجود |

أنت جلادنا

| | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| أيها المدعى العمومي مهلا | بعض هذا ، فقد بلغت المرآدا |
| قد ضممنا لك القضاء بمصر | وضمنا لنجلك الاسـعادا |
| فاذا ما جلست للحكم فاذا | عهد مصر ، فقد شفيت الفؤادا |
| لاجرى النيل فى نواحيك يامصر | ولا جادك الحيا حيث جادا |
| أنت أنبت ذلك أنبت يا مصر | مر فأضحى عليك شوكا قتادا |
| أنت أنبت ناعقا قام بالأمس | من فادى القلوب ، والاكبـادا |
| ايه يا مدره القضاء ! ويا من | ساد فى غفلة الزمان وشـادا |
| أنت جلادنا ، فلا تنس أنـا | قد لبسنا على يديك الحدادا |
| | حافظ إبراهيم |

الشاعر والزعيم

أجل كان حافظ على منابر القاهرة ، وفي حشود الشباب يستنهض الهمم ويستثير الجذوة ويوقد نار الوطنية ويؤجج مشاعل الحرية ، اثر حادث دنشواى وكان الزعيم مصطفى كامل فى أوربا يخطب الجماهير ، ويدفع فى رأى العام ويحبه السادة الانجليز بما اقترفه عملاؤهم من آثام ضد شعب برى استمع الى مقاله وحججه وهو يعرض تلك القضية على رأى العام العالمى ، ويعلن بها حربا لا هوادة فيها على الاحتلال وينشر ذلك فى صحافة أوربا بعنوان : الى الأمة الانجليزية ... الى العالم المتحدين ... ! انه يصف تلك الحادثة ويعلق عليها فيقول وليس هناك ابلغ مما كتب :

هذه هي الوقائع ... وما علمها أصحاب الامر من الانجليز حتى فقدوا الرشيد وثاروا لقيام المصريين بالدفاع عن انفسهم وعن أملاكهم وبدلا من أن يقابلوا الحادثة بسكون جاش ككل المشاجرات والمعارك ، بالغوا فيها وجسموها ، وأعلنت الصحف الموالية للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التي ستضرب للناس ستكون هائلة ، فلم يكن العدل هو المنشود فى المسألة بل الانتقام الفظيع ... » ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر منشل المستشار الانجليزى قبل المحاكمة بأسبوع مذكرة رسمية أثقلت كواهل المتهمين بالتهمة ... وقصدت بضراحة التآثير فى المحكمة والرأى العام ، وبلغ احتقار احدى الصحف القائمة فى خدمة الاحتلال للعدل ، أنها نشرت خبر ارسال المشائق الى دنشواى قبل المحاكمة .

وقد راع الشعب كل ذلك ، فأخذ يتساءل عن الحكم الذى ينتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه المظاهرة ...

« وقد اجتمعت المحكمة فى يوم ٢٤ يولية وأى محكمة استثنائية لا دستور يقيدھا ، ولا قانون يربطھا لقضائھا أن يحكموا بكل العقوبات التي تخطر على البال ! محكمة الأغلبية فيها للانجليز ... ولا تمنحائف أحكامھا ولا تقبل العقو ... »

ويتحدث الزعيم الوطنى مصطفى كامل :

« قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام فى نظر القضية ، وتبين أن الضباط

الانجليز هم الذين أهاجوا الفلاحين بسبلهم في ممتلكاتهم ، وبجرحهم
احدى نسايتهم ، وأن الفلاحين هجموا على ، لانجليز بوصفهم صسياديين
يختلسون الصيد ، لا ضباطا بريطانيين ،

واعترف أمام المحكمة أطباء انجليز بينهم الدكتور نولين الطبيب
الشرعى للمحاكم ، بأن الكابتن بول مات بضربة الشمس ، وأن جراحه
وحدها لم تكن كافية وحدها لاحداث الموت .

« ولم تترك المحكمة الا ثلاثين دقيقة لأكثر من خمسين متهمًا
ليقولوا ما عندهم ، وأبت سماع أقوال احد رجال البوليس حيث أكد أن
الضباط الانجليز أطلقوا العيارات النارية على الأهالى وبنت حكمها على
تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب فى المعركة والذين يعتبرهم العدل
فى كل بلد خصما للمتهمين .

« وفى يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين
وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين وبالأشغال الشاقة لمدة ١٥ عاما على
واحد ، وبها لمدة ٧ سنوات على ستة ، وبالحبس لمدة عام مع الجلد على
ثلاثة ، وبالجلد على خمسة ، وجلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلده
بكرباج له خمسة ذيول .

« قررت المحكمة فى حكمها تنفيذ الحكم فى اليوم التالى بحيث لم
يمض الا خمسة عشر يوما بين الواقعة وتنفيذ الحكم . .

« وفى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل من يوم الاربعاء ٢٧ من
يونيو جىء بالأربعة المحكوم عليهم بالشنق والثمانية المحكوم عليهم بالجلد
أعفت المحكمة واحدا منهم لأن الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته
تحمل الجلد « جىء بهم من شبين مقر مديرية المنوفية الى قرية الشهداء التى
تبعد بأربعة كيلو متر عن قرية دنشواى ، ولبثوا هناك تسع ساعات
ينتظرون الانتقام المروع وفى الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٨ من
يونيه جىء بهم الى دنشواى ، وكل أصحاب الأمر من الانجليز قد صمموا
على تنفيذ الحكم فى محل الواقعة . وفى الساعة التى وقعت ، ويقول
محامى مصر وزعيمها الشاب مصطفى كامل :

« نصبت المشائق ووضعت آلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة
مساحتها ٢١٠٠ متر مربع ، وأحاطت عساكر الانجليز بالمحكوم عليهم ،
والتفت الخيالة المصرية حول الانجليز وتولى المستر متشل مستشار
الداخلية ومعه مدير المنوفية أمر التنفيذ . »

« وقد تقدم اليهما ابن أول المحكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده
لأخذ وصاياه الأخيرة فرفضوا قبول الرجاء الذى هو أعز ما يرجوه الانسان
ويحتمه الشرع والعدل !

وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانجليزية خيولها
وشهرت سيوفها ، وبدى بعد ذلك بدقيقة فى الشنق ! •

« فشنق رجل ولبت أعضاء عائلته وأقاربه وهم على بعد يملأون
الفضاء بصراخهم الممزق للقلوب ، وجلد اثنان أمام الجثة .. »

« وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات واستمر ساعة من الزمن منظر
وحشى مهيج للعواطف بكى منه بعض الحاضرين الأوربيين وأذرفوا دموع
الحنان ، وأبدوا النفور الشديد مما رأوه وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد
المشتوقين « لعنة الله على الظالمين ! »

ان هذا الذى راح يفضح به محامى مصر سياسة الاستعمار الجشعة
المفضوحة كان يردده فى محافل القاهرة وفى نفس الوقت صيداع الوطنية
وشاعر النيل حافظ ابراهيم ،

وكانت المعانى التى تفيض عن بيانات محامى مصر الشاب وزعيمها
البطل فى أوروبا تتردد بأقوى ما تكون القوة عنفا وصخبا فى مقاطع أبياته
التي لاتزال تتردد على الاسماع - كانت الطريقة واحدة - وكان الدفاع
واحدا ، وكان العنف هو العنف وكان ذلك كله لأن القضية كانت واحدة
كانت قضية الحرية ، كانت قضية مصر ، وأما ذلك الحادث فلقد كان فألا
حسننا لمصر وللمصريين كما كان شؤما على الظالمين •

ونعود فنكرر ما أثبتناه آنفا وهو أن مصر على عهد حافظ لم تكن
مصرنا الحاضرة ، ولم يكن حافظ يكتب ما كتب ، وينشد ما أنشد فى
المحافل والمهرجانات سرا وانما كانت صيحات تدوى من فوق المنابر
يتحدث بها عن آلام مصر وآمالها ، عن مصاير الأمة العربية وما يعتورها
من أحداث •

قتيل الشمس

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| قتيل الشمس أو ثنينا حياة | وأيقظ هساجع القوم الرقود |
| فليت كرومرا قد دام فينينا | يطوق بالسلاسل كل جيسد |
| ويتحف مصر أنا بعسد أن | بمجلود ، ومقتول شهب |
| لننزع هذه الأكفان عنا | ونبعث في العوالم من جديد |

حافظ ابراهيم

جئت أسأل .

وحين يقف مصطفى كامل يتحدث عن حادثة دنشواى وهو يخاطب الانجليز بجلجلته محتجا عليهم فى قوله :

« وان يوم ٢٨ من يونيه من عام ١٩٠٦ سيبقى ذكره فى التاريخ شؤما ونحسا فهو خليق بأن يذكر فى عدد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية .. وانى جئت أسأل اليوم ، أسأل الامة الانجليزية نفسها والعالم المتمددين اذا كان يصح التسامح فى اغفال مبادئ العدل وشرائع الانسانية الى هذا الحد ! »

جئت أسأل الانجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا اذا كانوا يرون بسط النفوذ الأدبى والمادى لانجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية .

« جئت أسأل الذين يجاهرون فى كل آن ذاكرين الانسانية مالمثلين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط .. »

جئت أسأل الامة الانجليزية اذا كان يليق أن تترك الممثلين لها فى مصر يلجأون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاما الى قوانين استثنائية ووسائل همجية بل وأكثر من همجية ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهى كرامة الانسان !

حين يذكر الزعيم الوطنى مصطفى كامل ذلك يؤيد برهانه ويقوى حجته ويفزع خصمه المكابر بقوله :

« وقد أنشأ الشعراء المصريون عن حكم دنشواى أشعارا تخلد ذكرى المناظر الوحشية التى أهينت فيها المدنية الانسانية والعدل بأقصى الصور المهيجة للوجدانات والنفوس .. »

فهل كان لمصطفى كامل وأحزابه سواعد تشد من عزيمته فى جهاده ونضاله من قوة فى تلك المعارك سوى هذا الذى كان يشعور به ويفور ويزلزل كيان الانجليز وهو يسدد الضربات اليهم فى ايقاظ الشعب وحث الشباب على الجهاد بشعره المنبثق عن أعصاب ثائرة وروح مغامرة .

كان مصطفى كامل فى انجلترا يحاج الانجليز ، وكان حافظ على منابر القاهرة يفضح أساليب الاستعمار ويندد بفعاليتهم الشنيعة .

وبيننا حافظ يتذد بسياسة المستشار ، تشهد له المخافل مواقفه
المشيرة الذي ينشد فيها شعره ليوقظ بنى وطنه ، وما يزال في نفسه
ما فيها من قالة المعتمد البريطاني واتهامه مصر والمصريين لدى بريطانيا
بأنها شعب غير أهل للنهوض وأنه كافر بأنعمهم لعنة الله عليهم ، فمن
يستحق أن يمكن له في التوسيع في التعليم .

أقول أن شاعرنا لا ينسى له ذلك وأن كان قد قند تلك المقسالة في
قصيدته التي أشتتها ، فإنه يظهر فرصة مشروع إنشاء الجامعة وينشد في
الجمع الحاشد وهو يجلس بصوته وحجته ويوقظ النيام من قومه :

لا تقنطوا ان قرأتكم ما يزوقسه ذاك العميد ويرميكم به غضبها

بنى على الافك أبراجا مشيدة فابنوا على الحق برجا ينطح الشهب

ونجا يوم بفعل لا يقو ضربه قول المفند أنى قال أو خطبا

ثم يصرخ فيهم ويطالبهم بالألا يركعوا الى الراحة أو النوم ، فعدوهم
لا يهجع ولا ينام :

لا تهجعوا انهم لن يهجعوا أبدا وطالبوهم ، ولكن أجملوا الطلاب

وعدم الهجوع هو الثورة والدأب في المطالبة بالحقوق وهو يتحلل
من تلك الدعوة بطلب الترفق

وحين يصول ويجول بهذا الخطاب يضع نصب أعينهم الغرض الأكبر

من إنشاء الجامعة ، الغرض الوطنى وهو بعث الحياة في أعصاب الشعب
الذى استبدله العدو

ولا حياة لكم الا بجامعة تكون أما لطالب العنلا وأبا

تبني الرجال وتبنى كل شاهقة من المعالي وتبنى الغز والغلبا

فبذلك هو لا يساهم في مشروع اجتماعى وإنما يدعو الى بناء وطنى وإرساء

دعائم القوة وخلق الرجال ، وإذن فلا يكون ذلك بالقاء الكلمات ثم جميع

الدنانير والدراهم لا ، ولكنه يريد أن تتشكل القلوب وتقام أسوار الجامعة

من تلك الأكباد وينصح بنى قومه ألا يدعوا للعدو طريقا الى تخذيلهم بقالة

كأداة منما يخرط بها فيقول لهم وهو يصرح عن طبيعته ، تلك الطبيعة

التي تجتهر المادة وتهتم بالمعنويات السامية :

ضعوا القلوب أساسا لا أقول لكم ضعوا النصار ، فاني أصغر الذها

وابنوا بأكبادكم سورا لها ودعوا قيل العدو فاني أعرف السببا

لأنهم يرددون الآيات التي ينقنها : ذاك العميد ويرميكم به غضبها

لا تقنطوا ان قرأتكم ما يزوقسه

ولله دره ينشد مصر وشعبها محرضا لها على التشبث بإنشاء الجامعة
وهو يرى أن حياتها في أقامتها وبنائها وإتاحة الفرصة لخلق الشباب وبناء
الرجال ولكنه يلجأ في هذه المرة إلى إثارتهم :

يا مصر، هل بعد هذا اليأس متسع . . . يجرى الرجاء به في كل مضطرب؟
لا نحن موتى ولا الأحياء تشبهنا . . . كأننا فيك لم نشهد ولم نقب
نبكى على بلد سأل النضار به . . . للوافدين وأهلوه على سغب

وما أشد براعته وهو يقدم الرجال في الأكتتاب للمشروع :

هذا هو العمل المبرور فاكتبوا . . . بالمال أنا اكتبنا فيه بالأدب
وإذا كتب حافظ يعرض بسياسة المستشار دانلوب وهو يعوق تقدم
التعليم ونشره بمصر ، يذع القادة من بنى وطنه ويحرضهم على الأخذ
بأسباب العزة ويحملهم هم دون المستشار اللوم والتبعة :

ياسعد أنت (مسيحتها) . . . فاجعل لهذا الموت حدا
أنا لا ألوم المستشار . . . إذا تعلل أو تصدى
فسبيله أن يستبد . . . وشيأنا أن نستعدا
هي سنة المحتل في . . . كل العصور وما تصدى

وهل هناك مصلح أو زعيم وطني استطاع أن يواصل قرع الأذان
بمثل أذان حافظ وهو يرغبهم تارة في المجد ، ويوقظهم تارة أخرى . .
وينعى على الحاملين منهم طورا ثالثا لا يترك مناسبة أو حادثا أو علة يعتل
بها إلا ، وترى بيانا متدفقا يقرع الإسماع :

كاشف الكهرباء ليتك تعنى . . . باختراع يروض منسا الطباعا
آلة تسحق التواكل في الشـ . . . رق وتلقى عن الرياء القناعا
ان فينا لولا التخاذل أبطا . . . لا إذا ما هم استقلوا اليراعا
وعقولا لولا الخمسول تولاها . . . لفاضت غرابة وإبتـ . . .
ودعاة للخير لو أنصفوهم . . . ملأوا الشرق عزة وامتناعنا

وما هي تلك الامنية التي كانت تصطرع بخيال الشاعر ولا أقول
تداعبه :

ليت شعري متى تنازع مصر . . . غيرها المجد في الحياة نزاعا
ونراها تفاخر الناس بالأحيـ . . .اء فخرا في الخافقين مناعا ؟

هذه هي روح حافظ ظلت تهفو كالملاك وتحقق في الآفاق تسيطر
على القلوب وتعمل عملها في النفوس ، فاذا رفعنا منزلته وقدرنا مكانته
فاننا لم نعد منحه بعض حق الوفاء علينا له . . .

... لم يستيطر على لبه الا ذلك الحب الطاغى والتعشق لوطنه فهو معه في
أفراحه ، وهو معه في شدائده . . . استمع اليه ما يفتأ يردد مقالته في
تفنيد تخرصات الانجليز ودعاواهم الكاذبة مقويا عزيمة الشعب رابطا على
قلبه .

| | |
|------------------------|--------------------------|
| فديناك يا شرق لا تجزعن | إذا إليوم ولي فراقب غيدا |
| فكم محنة أعقبت محنة | وولت سراجا كرجع الصدى |
| فلا يوئسك قبيل العداوة | وإن كان قىلا كجز المدى |

أراك مقر الطامعين

| | |
|----------------------------------|--------------------------------|
| فيا شرق ! ان الغرب ان لان أو قسا | ففيه من الصهباء طبع مندوب |
| فخف بأسها في الرأي، والرأي يصطلي | وخف ضعفها في الكاس والكاس تطرب |
| ويا غرب أن الدهر يطفو بأهله | ويطويه تيار القضاء فيرنيب |
| أراك مقر الطامعين كأنما | على كل عرش من عروشك أشعب |

حافظ إبراهيم

مواکب .. :

ونصاحب التاريخ فنعود لنقف مع الشاعر وقفات طوالا بين يدي
نماذج من قصائده نسرح الخاطر فيها ونصاحب القارئ في جلاء صور
شائقة منها .

فلم يكن حافظ وهو يغشى الأندية والمجتمعات العامة ثم يقف في صدر الاحتفالات والمهرجانات لينشد عاشقى أدبه ومتذوقي فنه إلا بطلا من أبطال المواكب الشهيرة .

فكان يقف بصوته الجهير في الموقف الخطير ليلقي خطابا سياسيا ،
أو مقالا اجتماعيا ، أو نصحا يسديه ولكن ليس في تلك القوالب المعروفة
في فنون النشر وإنما في ترانيم وألحان .

وَأَنَّ لَنَا لَوْقِفَةً طَوِيلَةً مَعَهُ أَمَامَ قَصِيدَتِهِ تِلْكَ الَّتِي أَشْرَنَا إِلَيْهَا فِي صَدْرِ هَذَا الْكِتَابِ .. وَالَّتِي كَانَتْ هَتَافَ الْجَمَاهِيرِ إِبَانِ الْعُدْوَانِ انْتِلَاقِي الْفَاشِيزْمِ
عام ١٩٥٦

وهي قصيدته التي أنشدها في تكريم (عدلى يكن) بعد عودته من الخارج وقطع المفاوضات مع الانجليز ، وقد جاءت على لسانه «مصر تتحدث عن نفسها ، وذلك عام ١٩٢١ ، ولعلها كانت من بواكير الثورة المصرية الأولى .

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبنى قواعد المجد وحدى
ويكفى أن يكون مطلع القصيدة هذا البيت ، فلعل من يرجع بذاكرته
قليلا الى الوراء الى عهد تأميم القناة ، يذكر ذلك المعنى جملة وتفصيلا ،
فقد كان العالم يتجه الينا لينظر ماذا نحن صانعون بعد التأميم . . وهل
نستطيع أن نقوم برفع قواعد هذه الدعامة العامة من دعاسات، التحرير
الكبرى .

ولكنه يستدرك ويعقب بأن ذلك ليس أمرا عسيرا علينا بشواهد التاريخ التي تسجل لنا تلك القدرة القادرة .

وبناة الأهرام في سالف الدهر سر كفونى الكلام عند التحدى
وقد كانت نظرة الشاعر صائبة فى وضع مصر فى مكانها من الشرق
وزعامتها وقيادتها لنهضاته :

أنا تاج العلاء في مفرق الشر
ق ، ودراته فرائد عقدي
س جمالا ولم يكن منه عندي ؟
أي شيء في الغرب قد بهر النا

ولهو يزهي بالمقومات الطبيعية التي تفضل الخالق سبحانه فنفتح بها
هذا الوطن الكريم :

| | |
|----------------------------|-------------------------|
| فترا بى تبر ونهرى فرات | وسمائي مصقولة كالفرند |
| أينما سرت جدول عند كرم | عند زهر مسدور عند رند |
| ورجالي لو أنصفوهم لسادوا | من كهول ملء العيون ومرد |
| لو أصابوا لهم مجالا لأبدوا | معجزات الذكاء فى كل قصد |
| انهم كالظبا ألح عليها | صدا الدهر من ثواء وغمد |
| فاذا صيقل القضاء جلها | كن كالموت ماله من مرد |

ثم يشير الى ان هذا الوطن «مصر» لا قيامة للشرق بدونه فاذا ما نزلت
به كارثة وطوحت به الاقدار أحاطت بالشرق الدوائر ولا قيامة له بعده :

| | |
|-------------------------|------------------------------|
| أنا ان قدر الاله مماتى | لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى |
| مارماني رام وراح سسليما | من قديم عناية الله جنسدى |

وأى بيان أبلغ من هذا البيان فى تعبيره عما أحاط الله به هذا الوطن
من منعة وعزة دون كل معتد غاشم :

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| ما رمانى رام وراح سسليما | من قديم ، عناية الله جنسدى |
| كم بغت دولة على وجسارت | ثم زالت وتلك عقيب التعسدى |
| اننى حرة كسرت قيودى | رغم قيد اعدا وقطعت قدى |
| ان مجدى فى الأوليات عريق | من له مثل أولياتى ومجسدى ؟ |

ويقرر السبق لنا فى النهضة الفكرية فى قوله :

| | |
|----------------------------|------------------------------------|
| أنا أم التشريع قد أخذ الرو | مان عنى الاصول فى كل حد |
| ورصدت النجوم منذ أضاءت | فى سماء الدجى ، فأحكمت رصدى |
| وقديما بنى الأساطيل قومي | ففرقن البحار يحملن بنسدى |
| وليته عاش معنا اليوم وشهد | تلك الاحلام التى كان يتحدث عنها فى |
| الماضى ويترنم بها : | |

| | |
|---------------------------|------------------------------|
| فسلوا البحر عن بلاء سفينى | وسلوا البر عن مواقف جردى |
| أترانى وقد طويت حياتى | فى مراس لم أبلغ اليوم رشدى ؟ |
| أى شعب أحق منى بعيش | وارف الظل أخضر اللون رغد |

وينعى على المستعمرين :

| | |
|---------------------------|------------------------|
| أمن العدل أنهم يردون المـ | ساء صفوا وأن يكدر وردى |
|---------------------------|------------------------|

أمن الحق أنهم يطلقون الأسد من منهم وأن تقيده أسدي
وهو يؤرخ للتاريخ ما عناه وطنه من جهاد الغاصب :

نصف قرن الا قليلا أعاني ما يعاني هو انه كل عبيد
نظر الله لي فأرشد أبنا ثي فشدوا الى العلا أي شد
ويزلزل ببيانه وقوته وحجته الدامغة أركان الباطل فيدري نشيده :
انما الحق قوة من قوى الديـ ان أمضى من كل أبيض هندي
وحافظ كما سبق وأشرت يعيش معنا بأبياته هذه :

قد وعدت العـلا بكل أبي من رجالى فأنجزوا اليوم وعدي
وارفعوا دولتي على العلم والأخلا ق فالعلم وحده ليس يجدي
ويصف الغرب ونواذعه :

ان في الغرب أعيننا راصدات كحلتها الاطماع فيكم بسهد
فوقها مجهر يريها خفايا كم ، ويطوى شعاعه كل بعـد
ويسطر دستور السياسة المصرية لبنيتها المساميح في هتافه :
واصفحوا عن هينات من كان منكم رب هاف هفا على غير عمد
ويشير الى الأحداث تتوالى :

نحن نجتاز موقفا تعثر الآ راء فيه وعثرة الرأي تردى
ونعير الأهواء حـربا عوانا من خلاف والحلف كالسل يعدى
فقفوا فيه وقفة الحزم وارموا جانبيه بعزيمة المستعد
آه لقومي لو يعون مآثر كه هذا الشاعر وهو يصيح فيهم بفنون القول
في سياق شعره وهو يقف بهم عند مطلع فجر الحرية في قوله :

اننا عند فجر ليل طويل قد قطعناه بين سهد ووجد
غمرتنا سود الأهـلاويل فيه والاماني بين جزر ومـد
وتجلى ضيـاؤه بعد لأي وهو رمز لعهدى المسترد
فاستبينوا قصد السبيل وجدوا فالعالي مخطوبة للمجـد

إذا الملك الجبار صعر خده ..

ونقف معه وقفة أخرى نطالع تلك القصيدة التي اختار رويها ووزنها
على نهج قصيدة بشار بن برد التي يقول فيها في سياق مديحه لعمر بن
هبيرة :

(إذا الملك الجيتاؤ صنعوا خذة فمشيتا اليه بالسيوف نعاتبه)

أجل نقف معه وهو يصور الخليفة المخلوع والملك الدابر المقطوع
وهو « عبد الحميد » سلطان الترك بعد أن أدبر عنه الزمان ، وزال
سلطانه ، ويستهل قصيدته بقوله يهنئ دولة الترك بعيد دستورهم الذى
أعيد اليهم بعد الانقلاب العثمانى وخلع السلطان عبد الحميد :

أجل ، هذه أعلامه ومواكبه

هنيئا لهم ، فليسحب الذيل منابه

هنيئا لهم ، فالكون فى يوم عيدهم

مشاركه وضياء ومفاربه

رعى الله شعبا جمع العدل شمله

وتمت على عهد الرشاد رغائبه

ويناصح الشعب التركى :

خذوا بيد الاصلاح والأمر مقبل فانى ارى الاصلاح قد طر شاربه

وردوا على الملك الشباب الذى ذوى فانى رأيت الملك شابت ذوائبه

ويشير فى بيان رائع الى أبطال الانقلاب الذين قاموا يحاسبون
السلطان المخلوع :

ثلاثة آسناد يجانبها الردى وان هى لاقاه الردى لا تجانبه

يصارعها حرق المنون فتلتقى مخالبا فيها وتنبؤ مخالبه

روت قول بشار فثارت وأقسمت وقامت الى عبد الحميد تحاسبه

وقول بشار الذى يعنيه الشاعر :

إذا الملك الجبار صعر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

رجال من الايمان ملأى نفوسهم وجيش من (الأتراك) ظمأى قواضيه

صوارمه سبى القنا وكراته رؤوس الأعدى والحصون ملاعبه

ويتحدث عن السلطان عبد الحميد فى محنته بعد خلعه :

ولم يحمه حصن ولم ترم دونه دنائيره والأمر بالأمر حازبه

ولم يخفه عن أعين الحق مخدع ولا نفق فى الارض جم مسياربه

أقام عليه مهلكا عنيد مهلك يمر به روح الصبا فيوائبه

تخاماه حتى ألهم خاف اغتياله فلو مسه طيف لدارت لوالبيه

وأسرف فى حب الحياة فحاطها بسور من الأهوال لم ينج راكبه

لفى كل قفل للمنيعة مكن
وفى كل ركن صورة لو تكلمت
لما تيل ايها انيمت واقعدت
تمثله فى نومه وجلوسه
اقام عليه ألف موت محجب
وفى كل مفتاح قضاء يراقبه
لما شك فى عبد الحميد مخاطبه
ترأى بها أعطافه ومتساكبه
وتخدع فيه الموت حين يقاربه
ليغلب موتا واحدا عز غالبه

وفى أسلوب تهكمى ساخر يقول :

سلوه أغنت عنه فى يوم خلعه
وقد نزل المقدار بالأمر صادعا
وأخرجه من « يلدز » رب « يلدز »
وأصبح فى منفاه والجيش دونه
يناديه صوت الحق ذق ما أذقتم
هم منحوك اليوم ما أنت مشتمه
لك الله يا (تموز) انك باسم
فكم رعت جبارا وأرهقت ظالما
مضى عهد الاستبداد واندك صرحه
وهو بهذه القصيدة لا يعدو أن يصور لنا باعجازه ذلك العرش الذى
هو لسليلا تلك الاسرة فى مصر وهو الملك المخلوع فاروق لما أشبه
الليلة بالبارحة .

عاصف يرتضى

واذا جاز لنا أن نختار من نماذج الادب الباب صورا لما اعتملت به
حياة الشاعر فان فى عرض هذه اللوحة المثيرة التى رقعها يراعة ذلك
المصور الشاعر وهو فى رحلة الى ايطاليا يصف ما عاناه فيها ويسطر
ما انعكس فى خياله خير ما يجد فيه القارى متعة :

استمع اليه ينشد وهو نفس هائجة نائرة مغضبة آيسنة أنا ،
ومطمئنة الى رحمة الله آونة أخرى فى ديباجة مشرفة وبيان أخاذ :

عاصف يرتضى وبحر يغير أنا بالله منهما منسب تجير
وكان الأمواج .. وهى توالى محنقات .. أشجان نفس تشور
أزبدت ثم جـرجرت ثم ثارت ثم فارت كمنيا تفور القصور

ثم أوفت مثل الجبال على أفلك
 أزعج البحر جانبها من الشد
 وهي تزور كالجواد اذا ما
 ثم يصف حاله وشدة فزعه :
 وعليها نفوسنا خائرات
 فى ثنايا الامواج والزبد المندو
 واذا يضيق به الامر ويصل هياج البحر الى ذروته وتعرض الباخرة
 للخطر الداهم يشير بقوله :
 مر يوم وبعض يوم علينا
 ثم طافت عناية الله بالفلبس
 ملكة دفة النجاة يد الله
 امر البحر فاستكان وامسى
 ثم يناجى البحر بعد أن سكن بقدرة الله تعالى وأمره فى فلسفة
 مؤمنة :
 أيها البحر لا يغرنك حـول
 انما أنت ذرة قد حوتها
 انه أنت قطرة فى اناء
 ويخلق فى تصويره وابداعه
 وتثبت أمام الأعاصير وهى الباخرة (اسبيريا) فينشدها :
 ايه « اسبيريا » فدتك الجوارى
 يا عروس البحار انك أهـل
 فالبسى اليوم من ثنائى عقدا
 وحين يثقلت الى الارض التى
 ايه ايطاليا عدتك العسوادى
 فيك يا مهبط الجمال فنون
 ودمى جمع المحاسن فيها
 ويصف تلك الدمى والاحجار التى بعث الفن فيها الحياة فيقول :
 قد أقيمت من الجماد ولكن
 فهى تبدو من الملائك يكسو
 وللفلك عزيمة لا تخـوز
 فجنب يعـلو ، وجنب يفسور
 ساقه للطعان ندب جسور
 جازعات كادت شعاعا تطير
 ف لاحت أكفاننا والقبور
 والنايا الى النفوس تشير
 ك فزالت عن ثقل الشرور
 ففسبحان من اليه المصير
 منه ذاك العباب وهو حصير
 ثم يناجى البحر بعد أن سكن بقدرة الله تعالى وأمره فى فلسفة
 مؤمنة :
 واتسع وأنت خلق كبير
 ذرة فى فضاء ربى تدور
 ليس يدري مداه الا القدير
 منشآت كأنهن القصور
 ان تحليك بالجمان البحور
 تشتهيه من الحسان النحور
 يفد عليها يجيبها بقوله :
 وتنحى عن ساكنيك الثبور
 ليس فيها عن الكمال قصور
 صنع الكف عبقري شـهير
 من معانى الحياة فيها شـطور
 ها جمال على حفافيه نور

ولقد تجد عجباً في ريشة الشاعر وهو يتنقل بها في تسطيره
لمشاهداته في إيطاليا ، وما يعيه عنها من حياة نابضة تحتها نذير الموت
المتربص :

أرضهم جنة وحور وولدا ن كـمـا تشتهى ، وملك كبير
تحتها - والعياذ بالله - نار وعذاب ومنكر ونكير
وهي قدرة في التعبير للنقيضين لا يبدع فيها أو يحس غير شاعرنا
حافظ في مثل هذا الأسلوب الساخر المعبر، وهو يصف بركان (فيزوف) :
ذاك فيزوف قائماً يتلظى قد تعالى شهيقه والزفير
ينذر القوم بالرحيل ولكن ليس يغنى مع القضاء النذير
ولله دره وهو يسجل خواطره عن حب الوطن وتقديسه في معرض
وصفه :

وكذاك الأوطان مهما تجنت ليس للحر عن حماها مسير
واذ تطول بنا القصيدة لا يمكننا أن نميل دون أن نعرض صوراً
فريدة مما أثبتته فيها حيث انطلق خياله يذيع مكنون سره ومحتريات
صدره وخزائن تفكيره انه بعد أن يذكر تقديس الأوطان يلوى بخياله إلى
وطنه فيتحدث على طريقته :

شمسهم غادة عليها حجاب فهي شرقية حوتها الخدور
فانظر إلى تشبيه شمس إيطاليا المستترة بالغمام بأنها « شرقية
حوتها الخدور » ثم انظر إلى شمسنا نحن في شعره :
شمسنا غادة أبت أن توارى فهي غربية جلاها السـفـور
ولعله يقارن بين غادتين : غادة مصرية ، وأخرى إيطالية في بيتيه
هذين ، ثم ينتقل إلى وصف جو إيطاليا وأبنائها إلى جانب وصفه جو مصر
وأبناء مصر :

جـوهم في تقلب واختلاف غير أن الثبات فيهم وفي
جـونا أثبت الجواء ولكن ليس فينا على الثبات صبور
وهو في هذين الوصفين يعاني من نفسه ألماً ممضاً ، إذ هو يسجل
على بني وطنه ما هم فيه من نعم ، وما هم عليه من قصور ..
ولديهم من الفنون بساب ولدينا من الفنون قشـور
ويصيح صيحة المصلح الذي لا يملك إلا إرسال الكلام تنديداً بما
احتواه نظام الوقف من عرقلة الإصلاح وتعويق الحياة :

أنكر الوقف شرعهم فلهذا كل ربح بأرضهم معمور
ليس فيها مستنقع أو جدار قد تداعى أو مسكن مهجور
كل شبر فيها عليه بناء مشمخر أو روضة أو غدير
فهل كان حافظ مهندسا قبل أن يكون شاعرا ، هل كان مصلحا
قبل أن يكون ناظما ؟

لقد خرج حافظ من وطنه فى رحلة إلى ايطاليا فلم ينس أنه قد بعد
عنها للعودة اليها وفى جعبته مشروعات ، وهامو يذيع نظراته فى التخطيط
لهذه المشروعات الاصلاحية ، وهذه سمة الشعراء ورجال الأدب حينما
يزاولون أمور الحياة لا يغمضون عيونهم وهم دائما ناصحون باذلون .
وحين يدرس مجتمع ايطاليا فى رحلة يتحدث عن شئون حياتهم :

قسموا الوقت بين لهو وجد فى مدى اليوم قسمة لا تجور
كلهم كادح بكور الى الرز ق ولاه اذا دعاه السرور
لا ترى فى الصباح لاعب نرد حوله للرهان جم غفير
لا ولا باهلا سليم النواحي للقهوى رواحيه والبكور
لم يحل بينهم وبين الملاهى أو شئون الحياة جو مطير
لا يبالون بالطبيعة حنت أم تجنت أم احتواها النور
قد أعدوا لحادثات الليالى عدة لا يحوزها التقدير
وبهذا الاسلوب الذى يشير فيه الى طبيعتنا نحن بجانب نهضات
الشعوب يتحدث الشاعر :

نضروا الصخر فى رموس الرواسى ولدينا فى مواطن الخصيب دور
قد وقفنا عند القديم وساروا حيث تسرى الى الكمال البدور
ويلفت نظره ويأخذ بلبه تلك النظافة التى تطالعه أينما سار :

ولع القوم بالنظافة حتى جن فيها غنيهم والفقير
فاذا سرت فى الطريق نهارا خلعت أنى على المرايا أسير
أفرط القوم فى النظام وعندى أن فرط النظام أسر ونير
وما أعجب ما يترأى للناظر وهو يقرأ قوله فى ختام قصيدته :
ولذيذ الحياة ما كان فوضى ليس فيها مسيطر أو أمير

وكم غريق راح في لجسة يهوى بها الطود فلا يظهر
وكم أسير بات في أسره ونفسه من حسرة تقطر
ثم يخاطب هواة الحروب ممن ضلوا دون النصر والظفر :
ان لم تروا في الصلح خيرا لكم فالدهر من أطماعكم أقصر
تسوءنا الحرب وان أصبحت تدعو رجال الشرق أن يفخروا
أتى على الشرق حين اذا ما ذكر الأحياء لا يذكر
ومر بالشرق زمان وما يمر بالبال ولا يخطر
حتى أعاد الصفر أيامه فانتصف الأسود والأسمر
فرحمة الله على أمة يروى لها التاريخ ما يؤثر

رحمة الله على أمة .

ان الباحث المدقق ، والناقد البصير ليرى ، وهو ينقل بصره بين قصيد شاعرنا أن له خاصة تتصل به هو دون غيره ، وان تلك الخاصية تتبع هوى نفسه ومشاعره

ذلك الهوى ، وتلك المشاعر فى استشراف الغايات العلا التى يترقبها أمام التاريخ وتلك الحسرات التى يرجعها فى التلفت الى الماضى العزيز وهو فى ذهول بين الاحداث التى تمر به وتتابع عليه ، وفيها وطنه سليب الحرية ، مهيب الجناح ، ما بين مخلب مستنسر وطعمه نهمان مسغوب .

ولا أدرى على التحديد لم اخترت هذه القصيدة لاقدمها للقارىء ، أهى الديباجة المشرقة أم الروعة فى الوصف ، أم براعة التصوير ، أم ذلك الروح المسيطر من تحليقات الشاعر فى تأريخ الحوادث وتسطيرها والتنفيس عن شاعريته وميوله وشرقيته ؟ بل وعروبوته .

ولكننى أدرى لماذا عدت بعد أن استنفدت قراءة القصيدة لاتلوها على نفسى من جديد .

لقد أدركت مرمى الشاعر فى الأبيات الاخيرة منها وهو يلقي عليها بخاتمه ليطبعا بطابع حافظ .

ان ذلك الخاتم هو تلك الأبيات :

| | |
|------------------------|--------------------------|
| أتى على الشرقى حين اذا | ما ذكر الأحياء لا يذكر |
| ومر بالشرق زمان ، وما | يمر بالبال ، ولا يخطر |
| فرحمة الله على أمة | يروى لها التاريخ ما يؤثر |

انها حسرتة على (أمة) مصر ، وهو يندب حظها ويتحسر عليها ويذكر ماضيها ، وبهذا نعود فنسطر للقارىء عيون هذه القصيدة التى سجل فيها الشاعر حدثا من الأحداث العالمية : انها الحرب اليابانية الروسية ، ويفتح بيانه المعجز فى قصيدته بقوله :

| | |
|--------------------------|---------------------------|
| أسساحة للحرب ، أم محشر ؟ | ومورد الموت أم الكوثر ؟ |
| وهذه جنود أطباءوا هوى | أربابهم ، أم نعيم تنحدر ؟ |

ثم ينتقل الى اولئك الغلاظ القلوب الذين غرهم سلطانهم فأمعنوا
في اذلال البشر وفرض السيطرة عليهم :

لله ما أقسى قلوب الالى قاموا بأمر الملك واستأثروا !

وغرهم في الدهر سلطانهم فأمعنوا في الارض واستعمروا

قد أقسم البيض بصلبانهم لا يهجرون الموت أو ينصروا

وأقسم الصفر بأوثانهم لا يغمدون السيف أو يظفروا

فمادت الارض بأوتادها حين التقى الأبيض والأصفر

وبهذه السهولة في اختيار اللفظ ، واليسر في انتقاء العبارة ، والتأنق
في صياغة المعنى يخاطب حافظ الحرب :

أشبع يا حرب ذئاب الفلا وغصبت العقبان والأنسر

ان كان هذا الدب لا ينثنى وذلك التنين لا يقهر

والبيض لا ترضى بخذلانها والصفر بعد اليوم لا تكسر

فما لتلك الحرب قد شمرت عن ساقها حتى قضى العسكر ؟

وما أروع وصفه لتلك الموقعة الفاصلة التي كان مقرها (مكدن) وهي
مدينة في منشوريا لقد خسر الفريقان في هذه الموقعة مائة وعشرين ألف
مقاتل ، وأسر اليابانيون من الروس أربعين ألفا ، وقد غطت الدماء تلك
المدينة حتى ظهرت وهي مغطاة بالدم وكأنها ياقوتة حمراء يغار منها الدر
والجوهر .

سالت نفوس القوم فوق الظبا فسالت البطحاء والأنهر

وأصبحت (مكدن) ياقوتة يغار منها الدر والجوهر

ياقوتة قد قومت بينها بأنفس كالقطر لا تحصر

أضحى رسول الموت ما بينها حيران لا يدري بما يؤمر

عزريل ! هل أبصرت فيما مضى وأنت ذاك الكيس الأمهر

كذلك المدفع في بطشه اذا تعالى صوته المنكر

تراه ان أوفى على مهجسة لا الدرع يشنيه ، ولا المغفر

ثم يسترسل في سكب عبراته على القتلى والجرحى ومؤاساة

الحلائق ممن دهتهم هذه الحرب وغشيتهم أحداثها :

فكم قتيلا بات فوق الثرى ينتابه الأظفور ، والمنسر !

وكم جريح باسط كفيه يدعو أخاه وهو لا يبصر

نظرات في الديوان

في النظر الى مطالع قصائد شاعرنا حافظ ابراهيم يجد القارىء فنونا شتى من العبقرية ، والنبوغ ، بالاضافة الى حسن الرواء ، والصبغة الادبية الاصيلية وقد تأتى لحافظ ابراهيم مالم يتأتى لكثير من الشعراء الاعلام في التوفيق الى اختيار مطالع قصائده ، والقسرة الخارقة على ابتداع أفانين المظاهر وضروب الالحان التي توافق الحال .

وقد كان فيما يهر نظرى حين اتلو القرآن الكريم واردد بصرى في قصار السور تلك التي نزل بها الروح الامين على قلب الرسول الاعظم ، ليقرع بها المكذبين ، ويفحم بها المعاندين تلك المطالع الرائعة المعجزة التي تبدأ بها قصار السور فانك حين تقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم : انا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر . . » ويكون الله سبحانه قد فتح عليك بالعلم والتدقيق وكنت ممن يفقهون أسرار اللغة بل لو كنت من ذوى الفطرة المستقيمة فحسب ، لادركت من فورك سمو هذا البيان . فتأخذك روعة الاعجاز « انا أنزلناه في ليلة القدر »

ففى الاستهلال المفخم باستناد الانزال الى الذات القدسية ذات الخالق سبحانه ثم فى التعبير عن القرآن الكريم بالاشارة اليه بالضمير فى أنزلناه على أنه أمر مقرر وشئ معلوم ، واختيار لفظة القدر وهو الشأن العظيم . وفى هذا الايجاز المحيط بدقائق الحال ما يخرس السنة شائى الرسول الكريم . .

وكذلك اذا تأملنا فى قوله تعالى فى افتتاح سورة الكوثر . . « انا أعطيناك الكوثر » وفى قوله تعالى : « اذا زلزلت الارض زلزالها » فى أول سورة الزلزلة ، وفى قوله تعالى « ثبت يدا أبى لهب وتب » فى أول سورة « أبو لهب » وفى بقية تلك السور التي نطالع فيها الاعجاز والايجاز ما يمتع السامع ويأخذ بلبه ، وينطلق بأوضح برهان وأبلغ بيان بأن هذا الكتاب ؛ آيات الله المعجزات .

فاذا تأتى لشاعر من الشعراء بلاغة فى القول وقدرة على صوغ أبكار المعانى فى الاسلوب الطلى ، ثم كان لهذا الشاعر من القدرة والتوفيق فى اختيار مفاتيح القصائد بمثل ما ورد على لسان حافظ ، فانه حفى

بكل تقدير حقيق بكل اعتبار وتأمل ، وهو يحسن الاختيار فى افتتاح قصائده لأن جلها ان لم يكن كلها قد أذيع على الناس من منابر القول فى حفلات عامة ، فهو على دربه بمواطن التأثير فى السامع وهو يرى أنه شاعر شعبى يخاطب الجماهير ، فكيف تغيب فطنته عن اختيار ما يناسب الحال .

لقد كان حافظ موقفا ، كل التوفيق ، قادرا على صدق التعبير فى اختياره مطالع قصائده .

وحين تستمع الى مطالع هذه القصائد وقد عرف عنه أنه كان حاد الذكاء جهير الصوت قوى التأثير فى السامع بحسن القائه ، بهذه الخصائص وبما أوتى من البيان تستطيع ان تضعه فى مكانه بين شعراء الخلود .

استمع معى الى مطلع قصيدة له وهو يتحدث على لسان يابانية فى معرض مناصحة بنى وطنه :

لا تلم كفى اذا السيف نبا صح منى العزم والدهر أبى
ومطلع قصيدة أخرى فى رثاء الزعيم سعد زغلول :

ايه ياليسل هل شهدت المصابا كيف ينصب فى النفوس انصبابا
وقوله فى مطلع آخر على لسان مصر وهى تتحدث عن نفسها

وقف الخلق ينظرون جميعا كيف ابنى قواعد المجد وحدى
وقوله فى وصف حرب :

اسباحة للحرب ام محشور ومورد الموت أم السكور
وفى استقبال العام الهجرى :

اطل على الاكوان ، والخلق تنظر هلال رآه المسلمون فسكبروا
وفى تحية الاسطول العثمانى :

بالذى أجراك ياريح الخزامى بلغى البسفور عن مصر السلام
وفى رثاء اسماعيل صبرى :

نفاك النعاسة ، وحم القسدر ولم يغن عنا وعنك الحسدر
ويؤين محمد المويلحى :

دمعة من دموع عهد الشباب كنت خباتها ليوم المصاب
وفى مطلع قصيدة تربية على مائتى بيت وعلى عهد وزارة الوزير
الشهير اسماعيل صدقى :

قد مر عام يا سعد ، وعام وابن الكنانة فى حناء يضام

وفي مطلع قصيدة يستقبل بها شوقي وقد عاد من منفاه :
بنات الشعر بالنفخات جودى فهذا يوم شاعرك المجيد
وقوله :

ما لهذا النجم في السحر قدسها من شدة السهر
وقوله :

أبكى وعين الشرق تبكى معى على الأريب الكاتب الالمسى
وقوله فى مطالعة الهلال :

لى فيك حين بدا سناك وأشرقاً أمل سألت الله أن يتحققا
وهى كما يرى القارئ مطالع قصائد ترشد الى الموضوع وتومى
الى الهدف وتأخذ بمشاعر المستمع فيحس بقيمة الشاعر وقدرته ،
وتفرض عليه متابعتها والاستمتاع ببيانها الساحر

قضى الامر كله فى ثوان ..

وفي وصف زلزال مسينا عام ١٩٠٨ م .

ما لمسين موجات فى صلبها ودعاها من الردى داهيان
ومحت تلكم المحاسن منها حين تمت آياتها آيتان
خسفت ثم أغرقت ثم بادت قضى الامر كله فى ثوانى
فهنا الموت أسود اللون جون وهنا الموت أحمر اللون قان
ثم يصف ما يتعرض له الطفل ، والفتاة ، وذهول الابوة فى تلك
المشاهد المروعة ..

رب طفل قد ساخ فى باطن الار ض ينادى : أمى أبى أدركانى
وفتاة هيفاء تشوى على الجم ر تعانى من حره ما تعانى
وأب ذاهل الى النار يمشى مستميتا تمتد منه اليدان
باحثا عن بناته وبنييه مسرع الخطو مستطير الجنان
تأكل النار منه لاهو نجاج من لظاها ولا اللظى عنه وانى
غصت الأرض أتخم البحر مما طويلاه من هذه الأبدان
ويستفيض فى عرض صور من أبشع مايتصور الفكر فى تلك المرائى
المثيرة المذهلة :

لا رمى الله ساكن القمم الشـ
قد أغارا على أكف براهـ
كيف لم يرحمنا أناملها الفـ
لهف نفسى والف لهف عليها
مولعات بصيد كل جميل
جاءها الأمر والسراة عكوف
الى أن يقول من روائع وصفه وهو يخاطب تلك المدينة التاريخية
بقوله :

ايه (مسسين) آنسى اليوم
آنسى الدرة التى كانت الحلـ
غالها قبلك الزمان اغتيالـ
جاءها الامر والسراة عكوف
فانطوا كانطواء أهلك بالامـ
«بميين» فقد أوحشت بذلك المكان
ية فى تاج دولة الرومان
وهى تلهو فى غبطة وامان
فى الملاهى على غناء القيان
س وزالت بشاشة العمران

الى معشر الكتاب

وينمى حظ العربية بين أهلها ويوجه خطابه فى آخرها الى معشر
الكتاب :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية
فكيف أضيق اليوم عن وصف آله
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن
أيطربكم من جانب الغرب ناعب
أيهجرنى قومي - عفا الله عنهم
سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى
الى معشر الكتاب والجمع حافل
فاما حياة تبعث الميت فى البلى
واما ممات لا قيامة بعده

ويقول مشيرا الى الكفايات المعوقة ، والقوى البشرية المعطلة :

ان فينا لولا التخاذل أبطـ
لا اذا ما هم استقلوا آليراعـ

وعقـولـا لولا الخـمـول تولا ها لفاضت غرابة وابتـداعـا
ودعـاة للخـير لو أنصفوهـم ملأوا الشرق عزة ولامتناعا
ويقول وهو يتمنى ، وان كانت اليوم قد تحققت أمانيه وأحلامه :

ليت شعري متى تنازع مصر غيرها المجد فى الحياة نزاعا
وقوله من قصيدة أخرى موجهة الى الشباب متطلعا الى الغد
المأمول متصفحاً فيه وثباتهم :

فيا أيها الناشئون اعملوا على خير مصر ، وكونوا يدا
ستظهر فيكم ذوات الغيوب رجالا تكون لمصر الفدا
فياليت شعري من منكم اذا هى نادى يلبي النداء ؟
وقوله فى التعبير عن أواصر الصلات بين أبناء العروبة :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب هنا العلا وهناك المجد والحسب
أم اللغات غداة الفخر أهمها وان سألت عن الآباء فالعرب
أيرغبان عن الحسنى وبينهما فى رائعات المغالى ذلك النسب ؟
اذا ألت بوادي النيل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب
هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم فصافحوها تصافح نفسها العرب
فما الكنانة إلا الشام عاج على ربوعها من بنىها سادة نجب

ومما نظرف به القارىء فى ثوبه وحذائه :

لى كساء أنعم به من كساء أنا فيه أتيه مثل الكسائي
حاكه العز من خيوط المعالى وسقاء النعيم ماء الصفاء
خـاطـه ربـه بـابـرة يـمن أو جروا سمها خيوط الهباء
يا ردائي ، وأنت خير رداء أرتجيـه لزينة وأزدهاء
غفلت عنك لليلى نظرات وتخطتك ابرة الرفاء
صحبتنى قبل اصطحابك دهرًا بسـدلة فى تلون الحـرباء
كسف الدهر لونها واستعارت لون ونجه الكذوب عند اللقاء

واستمع اليه يتحدث عن الشمس :

لاح منها حاجب للنظرين فنسوا بالليل وضاح الجبين

| | |
|---------------------------|-------------------------|
| هي أم الكون والكون جنين | هي أم الارض في نسبتها |
| هي أم الريح والماء المعين | هي أم النار والنور معاً |
| هي نشر الورد طيب الياسمين | هي طلع الروض نورا وجنى |
| من معان لمعت للعارفين | انما الشمس وما في آيها |
| قادرة الله لقوم عاقلين | حكمت بالغية قد مثلت |

أبرىء عنه يعفو مذنب؟؟

وحيث ننتقى من جوهر شعره ودر قريضه ذلك النسيج الرفيع وهو يتحدث عن الشاعر الفرنسي «فيكتور هوجو» صاحب كتاب البؤساء الذي قام بنقله الى العربية شاعرنا حافظ ابراهيم ، نسوق للقارئ لوحة خصيبة بأفانين الخيال والامتناع :

أعجمى كاد يعلو نجمه
صافح العلياء فيها والتقى
ما ثفور الزهر - في اكمامها
نظم الوسمى فيها لؤلؤا
عند من يقضى - بأبهى منظرا
بسمت للذهن فاستهوت نهى
وجلتها حكمة بالغفة
سائلوا الطير اذا ما هاجسكم
هل تغنت أو أرنت بسوى
عاف فى منفاه أن يدنو به
بشروه بالتداني ونسوا
كتب المنفى سبطرا للذى
أبرىء عنه يعفو مذنب ؟
جاء والاحلام فى أصفادهما
طبع الظلم على أبقالها
جاءها (هوغو) بعزم دونه
وانبرى يصدع من أغلالها
هاله ألا يراهها حرة
سواء ألا يرى فى قومها
قلت عن نفسك قولا صادقا
أنا كالمنجسم تبر وثرى

فى سماء الشعر نجم العربى
إلى المعرى فوق هام الشهب
ضاحكات من بكاء السحب
كثنايا الغيب أو كالحب
من معانيه التى تلعب بى
مغرم الفضل ، وصب الأدب
أعجزت أطواق أهل المغرب
شبهوها بين الهوى والطرب
شعر (هوغو) بعد عهد العرب
عفو ذاك القاهر المغتصب
انه ذاك العصامي الأبي
جاءه بالعفو ، فاقرا واعجب
كيف تسدى العفو كف المذنب
مالها فى سجنها من مذهب
بلظما خاتما من رهب
عزة التاج ، وزهو الموكب
بالسراع الحر لا بالقضب
تمتلى فى البحث متن الكوكب
سيرة الاسلام فى عهد النبي
لم تشبه شائبات الكذب
فاطرحوا تربى ، وصونوا ذهبى

هجعت يا طير ولم أهجع ..

ومن أعذب شعره مدحته تلك التي كتب بها الى محمد بن ابراهيم
ابن هلال وهو من الشعراء والكتاب الاعلام :
هجعت يا طير ولم أهجع ما أنت الا عاشق مدعى
لو كنت ممن يعرفون الجوى قضيت هذا الليل سهدا معي
يا من تحاميتم سبيل الهوى أعينكم من قلق المضجع
وحسرة في النفس لو قسمت على ذوات الطوق لم تسجع
ويا بني الشوق وأهل الأسى ومن قضوا في هذه الأربع
عليكم من واجد مفرم تحية الموجه للموجع
ويسترسل شاعرنا في وصف الصبوات واللواعج :

لله ما أقسى فؤاد الدجى على فؤاد العاشق المولع
هذا غليظ لم يرضه الهوى ما بين جنبى أسود أسفع
وذاك في جنبى فتى مدنف على سوى الرقة لم يطبع
ويجيد الوصف حين يعرض للوجدانيات في قوله :

وأغيد أسكنته في الحشا وقلت : يانفسى به فاقنعى
نفساره أسرع من خاطرى وصده أقرب من مدمنى
وخده لا تنطفى ناره كأنما يقبس من اضلع
تساءلت عنى نجوم الدجى لمسا رأتنى داني المصرع
قالت نرى في الارض ذا لوعة قد بات بين اليأس والمطمع
يئن كالمفثود أو كالذى أصابه سهم ، ولم ينزع
أن كان في بدر الدجى هائما أما لهذا البدر من مطلع
أو كان في ظبي الحمى مفرما أما لهذا الظبي من مرتع
ثم ينتقل الى ذكر صاحبه مشيرا الى مناقبه ومحامده :

هيهات يا أنجم أن تعلمي مثير أشنجانى أو تطمعي
انى لضنان بذكر اسمه ضنى بود السكاتب الألعى
صحبته دهره فألفيته فتي كريم الأصل والمنزع
مسودة كالخمر ان عتقت جادت ، وفضل باسم المشرع
وعزمة لو قسمت في الورى باتوا من الشعرى على مسمع

وفى لوحة أخرى يسطر الشاعر أوضاع الطبيعة ولهوات القلوب..
فيها ..

ويتحدث فى التعبير عن الاثر الذى تركته بنفسه زيارة نادى الالعاب
الرياضية وذلك فى ليلة أحيائها النادى ، وأنشد فيها الشاعر قصيدته
التي مطلعها :

بنادى الجزيرة قف ساعة وشاهد بربك ما قد حوى
ترى جنة من جنان الربيع تبدت مع الخلد فى مستوى
فقل للحزين ، وقل للعليل وقل للملول : هناك الدوا
وقل للأديب : ابتدر ساحها اذا ما البيان عليك التوى
وقل للمكب على درسه اذا نهك الدرس منك القوى
تنسم صباحا تجدد قواك فأرض الجزيرة لا تجتوى
ويصفها فى يوم قائل لافح حره وقد نزل منها منزلا طيبا قرت به
عينه وطابت نفسه فراح ينغى على أولئك اللاهين الغافلين ممن يمضون
أوقاتهم ويقتلونهم فى المقاهى والحانات .

ويارب يوم شديد اللظى به الشمس نزاعة للشوى
به الريح لفاحة للوجوه روى عن جهنم ما قد روى
قصدت الجزيرة أبغى النجاة وجسمى شواه اللظى فاشتوى
فألفيت ناديمها زاهرا وألفيت ثم نعيمها ثوى
فأنزلنى منزلا طيبا وروى فتوادى حتى ارتوى
الى أن يقول ينكر على قومه مسلكهم فى قضاء أوقات الفراغ فى
غير طائل :

فما بال قومي لا يأخذون لتلك الجنان طريقا سوى
ومما بال قومي لا ينزلون بغير « جروبي » وبار اللوا
تراهم على نردهم عكفا يبادر كل الى ما غوى
ولو أنصفوا الجسم لاستظهروا له بالمران وطيب الهوا
ويناغى ذلك النادى بما حفلت به لياليه وما أشجى نفسه فيه رافعا
صوته بالدعوة الى غشيانه والدعاية له .. فى أبياته :

فياناديا ضم أنس النديم ولهو الكريم وقيت البسمل
لياليك أنس جلاها الصفاء فأسرت اليك وفود الملا
فكم ليلة طاب فيك الحديث فكان الكتوس وكان الطملا

فمن مشجيات الى مطربات الى مضحكات تسلى الى • •
وقد زان لهوك ثوب الوقار فلهوك فى كل ذوق حـ
ويفيض فى الوصف ويغرق فى الدعاية ويرى رآيه فى أن هذا هو
مقام النعيم ومنزله والا • • فلا •
فقل للذى بات تحت العقود بحرب على نفسه مبتلى
أتلك الأماكن لا تستراده؟ أترك المناظر لا تجتلى ؟
أتحت السماء وبدر السماء وبين الرياض ، وبين الحـ
يمل الجلوس ويفنى الحديث فهذا النعيم والا فلا
مكان لعمرك ما حل فى نواحيه ذو الحزن الا سـ

فما أنت فى مصر ••

ولله در الشاعر وهو يشيد بمكانة هذا الندى فيجذب اليه القلوب.
المتشوفة بقوله :

فما أنت فى مصر ان لم تطر اليه فتشهد تلك الحـ
وتحضرني فى هذا المقام طرفة أدبية أرى أن يشاركني فيها القارىء
وقد كان من دواعي ذكرها بيت شاعرنا ذاك الذى يذكر فيه ، أنك لست
من مصر ان لم تشاهد تلك المغانى فى قوله :

فما أنت من مصر ان لم تطر اليه فتشهد تلك الحـ
ففى متحف المنيل (قصر المنيل) الذى تقوم عليه وزارة الثقافة.
والارشاد القومى ، والذى كان يسكنه «الأمير محمد على» يرى الزائر فى
احدى الأبهاء الداخلية لافتة اهتم صاحب القصر بإبرازها لتكون فى مواجهة
الزائر الكريم ، وهى طرفة من الشعر جاءت على شكل قصيدة نمقت فى
اطار بديع تقرأ فيها حين تطالعها متأملا :

إذا كنت فى مصر ولم تك ساكنا على نيلها الجارى، فما أنت فى مصر
وان كنت فى مصر بشاطيء نيلها ومالك من شيء فما أنت فى مصر
وان كنت ذا شيء ولم تك صاحباً لالف له لطف ، فما أنت فى مصر
وان كنت ذا الف ولم تك مالسكا لكيس حوى ألفا ، فما أنت فى مصر
وان حزت ماقلنا ، ولم تك هائما تميل لمن تهوى فما أنت فى مصر

وهى لوحة تعبر عن افتنان صاحب القصر بهذا البذخ وتعشق الفن
ومنازع الصبوات الذى يطيب ويلذ لمن انصرف عن جادة الحياة واستهوته
زخارفها وزينتها - كتبت بخط الفنان الكبير سيد ابراهيم ولكننى لم أهتد
الى الشاعر الذى صاغها •

وقوله في معرض المناصحه :

قل له : جل من له الملك لا
وقوله :

قد تولى محمد الخامس المـ
طأطئي للجلال يا أمم الأـ
ويقول :

ثلاثة أسـاد يجانبها الردى
يصارعها صرف المنـون فتلتقى
وقوله :

صوالجه سـمر القنا وكراته
وقوله :

تزن الـكلام كأنه
وتصـون معنى ربه

وقوله ويعنى «الاستاذ احمد لطفى السيد» :

انى قرأت كتـابه
فاذا المترجم مائل
وعليها نور يفيض
وقوله فى مدحه :

لم يجر فى ناديك هـجـ
حلو التواضع والتوا
مر التـكبر حين يد

ويصف يراعة شوقيه :

براهـا له البارى فلم ينب سنـها
لديها وفود اللفظ تنساق خلفها
اذا رضىيت جاءت بأنفاس روضة
على سنـها رفق يسيل ورحمة
تطير بروق الفكر خلف بروقها
تحاول فوت الفكر لو لم تكفها

ملك لغير المهيمـن المعبود

ـلك فاعظم بتـاجه المعقود
ضى سـجودا ، هذا مقام السجود

وان هى لاقاها الردى لا تجانبه
مخالبها فيه ، وتنـبو مخالبـه

رءوس الأعادى والحصون ملاعبه

ماس بميزان التجـار
صون الآلىء فى المحـار

بين الخشوع والاعتبار
جنب المؤلف فى اطار
من المهـابة والوقار

ـر القول أو خلع العذار
ضع آية القوم الخيـار
عوك التواضع للصفـار

اذا مانبا العسال عن كفأروع
وفوة المعانى خشعا عند خشع
وان غضبت جاءت بنكبـاء زعزع
وروح لمن يأسى ، وذكرى لمن يعى
تناشـدها بالله لا تسرعى
أنامله كف الجموح المروع

وقوله :

فان كنت قولا كريما مقسالة فقل في سبيل النيل والشرق أودع

وفي وصف مغاني لبنان وجناتها :

إذا تأملت في صنع الاله بها لم تلق في وشيه صنعا لانسان

في سهلها وأعاليتها وسلسلها برء العليل وسلوى العاشق العاني

وفي تضوع أنفاس الرياض بها روح لكل حزين القلب أسوان

وفي صاحبه (محمد المويلحي) يصف قلمه :

تأوى الظباء إليه وهي أوانس وتحيد عنه الأسد وهي ضواري

وقوله في تهنئة المقتطف بعيده الخمسيني :

في كل لفظ حكمة مجلوة وبكل سطر مهبط لصواب

فاللفظ فيه مقوم بصحيفة والسطر فيه مقوم بكتاب

وقوله :

العلم في البأساء مزنة رحمة والجهل في النعماء سوط عذاب

وقوله فيما يصاب به الشيوخ من اضطراب في الاعصاب وهو يعطل

ذلك في مقام المديح والاطراء :

لاحت برأسك هزة ولعلها من وقع فكرك لا من الاعصاب

فكر سريع كره متدفع كتدفع الأمواج فوق عباب

وقوله :

يا ساكن البيت الزجاجا ج هبلت لا ترم الحصونا

أرايت قبلك غاريا يبغى نزال الدار عيننا ؟

وقوله :

كاد الزمان لنا ولا عجب اذا كاد الغريم

وقوله :

فشرابك الماء الشنا ن وشربي الماء الحميم

وقوله :

قـرمت والله حتي صاحت عصافير بطني

وقوله :

واقى كتابك يزدرى بالدر أو بالجواهر

فقرأت فيه رسالة
معنى الذ من الشـ
ومن دعاياته لصديق له :

مزجت بذوب السكر
تة بالعدو المدبر

غفرانك اللهم انى
سـويته كالكركن
وجه ولا وجه الخطو
ومن العجائب أن مثـ
ولقد عجبت لبخـله
لا يصرف السحتوت
وقوله :

من ظلامتـه برى
وجاءنا كالأخـدرى
ب وقامة لم تشبر
ل لسـانه لم يبتـر
ولـكفه المتحجر
الا وهو غير مخـير

فخرجت وفي نفسى من اليأس صارم
وبيته :

وعدت وفي صدرى من الحلم مصحف

شباب فيهم ولاؤهم حين شابوا
وبيته :

وللائي فى عنفوان الشباب

هجمت يا طير ولم أهجع
وبيته :

ما أنت الا عاشق مدعى

وأغيد أسكنته فى الحشا
نفاره أسرع من خاطرى
وبيته على لسان (هوغو) :

وقلت : ! يانفس به فاقـدى
وصده أقرب من مدعى

أنا كالمنجم تبر وثرى
وبيته :

فاطرحوا تربي وصدونوا ذهبى

أنا الشام والكنانة صـنوا
وبيته :

ن برغم الخطوب عاشا لزاما

ولوع بتصوير الطباع فلم يجز
وبيته :

بعاطفة الا حسبنا: يرسم

من العناية قد ريشت قوادمها
وبيته :

ومن صميم التقى ريشت خوافيها

يرمى الأعادى بأراء مسـددة

وبالهوارس قد سالت مذاكيها

غزل . ١

وما أنا والغرام وشباب راسي وغال شبابي الخطب الجسم
لعمرك ما أرقّت لغير مصر ومالي دونها أمل يرام
ذكرت جلالها أيام كانت تصول بها الفراعنة العظام
وأيام الرجال بها رجال وأيام الزمان لها غلام
فأقلق مضجعي ما بات فيها وباتت مصر فيه فهل ألام ؟

حافظ إبراهيم

ملاح من شخصية الشاعر

وحين يتجول النظر في ديوان حافظ يقف على سمات عامة يتضح منها جوانب من شخصية الشاعر ، وهو اذ يعبر في بيانه المنظوم عن هذه الجوانب من شخصيته فانما يجلى للمتأمل ما انطوت عليه نفسه ، وما تأثر به ، والانطباعات التي لا تكاد تفارق تلك السمات والملاح ، وتراه في مدحه ، وهجائه وشوقه وحنينه ، وفي همته وشجاعته ، ونوازع آرائه لا يكاد يستطيع أن يتخلى عن هذه السمات وتلك الملاح التي هي جزء من كيانه .

استمع اليه وهو يهنئ صديقا له بقوله :

ياهما في الزمان له همه دقت عن الفطن

وفتى لو حل خاطره في ليالى الدهر لم تخن

لا ينسى أن يعبر عن آلامه بقوله :

يالقومى اننى رجل حرت في أمرى، وفي زمنى

أجفأ أشتكى وشقا ان هذا منتهى المحن

وحين يمدح الامام الشيخ محمد عبده بقوله :

انى لأبصر فى أثـناء برده نورا به تهتدى للحق ضلال

لا ينسى أن يسجل خفقات قلبه التي تنم عن حاله وقد ضاقت به الحال :

يا من تيمنت الفتيا بطلعتـه أدرك فتاك فقد ضاقت به الحال

ودمعة الشاعر يسفحها عبـرة حزن وأسف في تجلده الظاهر وهو

مغترب عن مصره الى قطر شقيق في مقالته :

ولى الشباب وجازتنى فتـوته وهدم السقم بعد السقم أركانى

وقد وقفت على الستين أسأـلها أسوفت أم أعدت حر أكفـانى

شاهدت مصرع أترابى فبشرنى بضجة عندها روحى وريحـانى

كم من قريب نأى عنى فأوجعنى وكم عزيز مضى قبلى فأبكـانى

انى مللت وقـوفى كل آونة أبكى وأنظم أحـزاننا بأحزان

تنم عن بالغ الألم الذي يشير اليه في أن المتصفح لديوانه يرى أن نصفه شعر مراث وأحزان :

إذا تصفحت ديوانى لتقرأنى وجدت شعر المراثى نصف ديوانى

وما آلم بيتيه وهو يذيع وجعه وحاجته الى الراحة والاستشفاء في
مخاطبة لبنان :

أتيت مستشفيا والشوق يدفع بي الى رباكم وعودي غير فينان
فأنزلوني مكانا أستجمل به وينجلي عن فؤادي برح أحزاني
ويشكو ويذيع شكواه فيما يبثه صديقه

أشقى وأكتم شقوتي والله بي وبها عليم
لا مصر تنصصفني ولا أنا عن مودتها أريم
وإذا تحسول بأثس عن ربعها فأنا المقيم

وهو في بؤسه يعلن تمنياته وحاجة نفسه الى الترويح عنها والعيش
الهنئ بين مشتي ومصطاف ، استمع اليه في إحدى قصائده :
يأليتني كنت من دنياي في دعة قلبي جميع ، وأمرى طوع وجداني
أقضى المصيف بلبنان على شرف ولا أحول عن المشتي بحلوان
وتسمع الى أنته في غربته وهو بالسودان يندب حظه النكد :

جنيت عليك يا نفسي وقبلي عليك جنى أبى فدعى عتابي
قلولا أنهم وأدوا بياني بلغت بك المنى وشفقت ما بي
وفيها يقول :

وما أعذرت حتى كان نعلتي دما ووسادتي وجه التراب
وحتى صيرتني الشمس عبدا صبيغا بعد ما دبغت اهبابي
وحتى قلم الاملاق ظفري وحتى حطمت المقادار نابي
وحين يكتب اليه الهراوي الشاعر أبياتا يسأله عن مقامه وحاله يرد
عليه حافظ :

انا في الجيزة ثاو ليس لي غيرها أنيس
أنكر الأنس مكانى ونأى عني الجلوس
ليس يسدرى من رأنى أظليق أم حبيس

ويعود فيكتب الى أصدقائه وهو في السودان :

من واجد منقر المنام
طريد دهر جائر الأحكام
مشتت الشمل على الدوام

ملازم للهيم والسقام

اليكم يانزهة الأنام

هذا هو حافظ يشكو بؤسه ويبكى دهره وشتات شمله ، وهو لا يدري
خبيء الايام ترصد له من طيب الثناء وثباهة الذكر ماتراه معى أيها
القارىء ونحن نتقصى أخباره ونقدر أمره وشأنه ،

واذ نسير معه فى طريقه هذا شوطا وهو فى أسنانه نطالع ماكتبه
وهو مريض :

مرضنا فما عادنا عائد ولا قيل أين الفتى الألعى
ولا نحن طرس الى كاتب ولا خف لفظ على مسامع

وينعى على دولة الأدب جفاءها وسوء تقديرها فيرميها بما هى أهل
له ولعل الله قد استجاب دعاءه على أيامنا فأصابته لعنة حماة القريض
بصفة خاصة فكان ذلك الشعر «السايب» !

فيـادولة آذنت بالزوال رجعنا لعهد الهوى فارجعى
ولا تحسبينا سلونا النسيب وبين الضلوع فؤاد يعى
وفى اذكار أيام شبابه يسجل ظواهر هذه الفترة من حياته :

أهفو اليه على ما أقرحت كبدي من التباريح أولاه ، وأخراه
لبسته ودموع العين طيبة والنفس جياشة والقلب أواه
فكان نعوى على وجد أكابده ومر عيش على العلات القاه
ويشير الى دمه الذى كم روح عن نفسه وغسل حنايا قلبه :
كم روح الدمع عن عيني وكم غسلت منه السوابق حزنا فى حناياه
ويذكر لهو الصبا يبكى ويبكى معه شبابه وما أوفى عليه من أياب
المشيب :

قأنوا تحررت من قيد الملاح فعشى حرا ففى الأسر ذل كنت تأباه
فقلت : يا ليتته دامت صرامته ما كان أرفقه عندي ، وأحناءه
بدلت منه بقيند لست أفلتته وكيف أفلت قيدا صاغه الله
ويقارن بين أسرى الهوى ، وأسرى المشيب فيبدع ويرقم بقلم الخيال
والبيان على صفحات الاعجاز تلك الصورة :

أسرى الصباية أحياء وان جهدوا أما المشيب ففى الأموات أسراء

عبرات الشاعر

واذا كان نصف ديوان الشاعر قصائد أنشدها في رثاء أحبائه وخلائه
وعارفيه كما أشار الى ذلك بقوله وهو في سن الستين يترقب لقاء الموت :
وقد وقفت على الستين أسألتها أسوفت أم أعدت حسر اكفاني
كم من قريب نأى عني فأوجعني وكم عزيز مضى قبلي فأبكاني
اني مللت وقوفي كل آونة أبكى وانظم أحزانا بأحزان
الى أن يقول :

إذا تصفحت ديوانى لتقرأنى وجدت شعرا مرثيا نصف ديوانى
كان لابد من وقوفنا مع مرثيه وتتبع تلك العبرات التي شغلت
نصف ديوان الشاعر وأرقت وتره وهزت مشاعره .

ولسنا بمقام تحليل الأسباب التي أدت الى أن يكون نصف فنه في
المراثى ، فما يعنى الأدب ذلك فى شيء ، وان رده اخوانه وصحابته الى
حياته الحزينة ، وكثرة معارفه وصفاء نفسه ووفائه ، وما كان عليه ذلك
العصر من أن عادة رثاء الفقيد كانت متبعة فى الأغلب الأعم .

وعندى أن الذى يمكن أن نخوض فيه هو تلك العبرات التي استهلها
فى رثاء أصدقاء حياته وصحبته . ومن ألف العيش فى أمانهم والتقى بهم
وعاصروه وألفوه وهم ممن قادوا الحرمة الوطنية معه ، واضطلع معهم
بنوره فى النضال .

ان عبرات الشاعر فى مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول
والبارودى ، ومحمد عبده ، وحفنى ناصف ، وغيرهم . . . وغيرهم . . . من
هذه الطبقة التي كان لها القيادة على عصر حافظ كانت ألما يعصر قلبه
ووفاء يفيض من روحه :

استمع اليه يرثى البارودى فى قصيدة يستهلها بقوله :
ردوا على بيانى بعد «محمود» انى عييت وأعيا الشعر مجهودى
يقول :

لبيك يا شاعرا ضمن الزمان به على النهى والقوافى والآناسيد
تجرى السلاسة فى أثناء منطقته تحت الفصاحة جرى الماء فى العود
فى كل بيت له ماء يرف به يغار من ذكره ماء العناقيد

لو حنطوك بشعر أنت قائله
ويخلق بخياله في تكريم الفقيد

أقول للملأ الغداى بموكبه والناس ما بين مكبود ومقنود
غضوا العيون فان الروح يصحبكم مع الملائك تكريما « لمحمود »
وتبلغ به الاجادة ذروتها فى التعبير عن صدى الحزن فى نفسه وهو
يرثى الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فيبلغ به الوفاء ذروته وهو يخشى
طول الحياة بعده :

لقد كنت اخشى عادى الموت قبله فاصبحت اخشى أن تطول حياتي
ويذكر حسناته :

أبنت لنا التنزيل حكما وحكمة وفرقت بين النور والظلمات
ويقول :

بكى الشرق فاهتزت له الارض رجة وفى مصر باك دائم الحسرات
وفى الشام مفجوع وفى الفرس نادب
ويذكره مصلحا موجهها :

فيا ويح للشورى اذا جد جدها وطاشت بها الآراء مشـتـجرات
ويا ويح للفتيا اذا قيل من لها ويا ويح للخيرات والصدقات
لقد كنت مقصود الجوانب أهلا تطوف بك الآمال مبتهلات
مثابة أرزاق ، ومهبط حكمـة ومطلع أنواز وكنز عظـمات
ويبكى مصطفى كامل فيخاطب قبره :

أيا قبر لو أنا فقدناه وحده لكان التأسي من جوى الحزن شافيا
ولكن فقدنا كل شيء بفقده وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا
ويبكىه فى حفل الاربعين بقوله :

غادرتنا والحادثات بمرصد والعيش عيش مذلة واسـار
ما كان أحوجنا اليك اذا عدا عاد ، وصاح الصائحون بذار
قم وامح ما خطت يمين كرومر جهلا بدين الواحد القهار
ويصيح حجاجه وبيانه فى الدفاع عن وطنه :

لعبت يمينك باليراع فأعجزت لعب الفوارس بالقنا الخطار
وجريت للعلياء تبغى شأوها فجرى القضاء وأنت فى المضمار

أو كلما هز الرجاء مهتداً
ويصف يوم الفجیعة فيه :

شاهدت يوم الحشر يوم وفاته
ورأيت كيف تقي الشعوب رجالها
تسعون ألفاً حول نعشك خشع
خطوا بأدمعهم على وجه الثرى
ويشير الى قصر عمره مع ما
ان الثلاثين التي بك فاخرت
ضمت الى التاريخ بضع صحائف
ويشير الى كفاحه :

مازلت تختار المواقف وعبرة
وهدمت سوراً قد أجاد بنائه
ويبكي قاسم أمين :

مغلتك عن دنياك أربعة
حق تناصره ومفخرة
وحقائق للعلم تنشدها
وفضيلة اعيت سواك فلم

وتشير الى رأيه في السفور والحجاب :

ان ريت رأيك في الحجاب ولم
الحكم للأيام مرجعه
ويخطبه ويذكر في مضمون خطابه الامام الراحل :

قل للامام اذا التقيت به
ان الحقيقة أصبحت هسداً
ويبكي الشيخ علي يوسف فيقول :

اودى فتى الشرق بل شيخ الصحافة بل
اقام فينا عصامياً فعلماً
قالوا : عجبت لمصر يوم مصرعه
ان الالى حسبوها غير جازعة
شيخ الوفائية الوضاحة الحسب
معنى الثبات ومعنى الجدة والدأب
وقد عجبت لهم من ذلك العجب
لا ينظرون الى الاشياء عن كذب

ويشير الى حال المؤيد بعد موت عميده :

كم أرجفوا بعد موت الشيخ وارتقبوا موت المؤيد فينسا شر مرتقب
وان يمت تمت الآمال في بلد لولا المؤيد لم ينشط الى طلب
صباية من رجاء بين أضلعنا قد بات يرشف منها كل مفتصب
لولا (المؤيد) ظل المسلمون على تناكر بينهم في ظلمة الحجب
ويرثي الشيخ سليم البشري :

اشيخ المسلمين نأيت عنا عظيم الاجر موفور الثواب
اذا ألقى السؤال عليك ملق تصدى عنك برك للجواب
ونادى العدل والاحسان انا تزكى ما يقول ولا نحابى
أما فجيعة وعبراته في الزعيم محمد فريد فاستمع اليه يخاطب
النيل :

أيها النيل لقد جسل الأسى كن مدادا لي اذا الدمع نفذ
واذبل يا زهرة الروض ولا تبسنى للطلال فالعيش نكد
فلقد ولي (فريد) وانطوى « ركن مصر » وفتاها والسند
ويوغل في النواح عليه والبكاء :

يا غريب الدار والقبر ويا سلوة النيل اذا ما الخطب جد
وحساما فل حديه الردى وشهابا ضاء وهنسا وخمد
قل لصب النيل ان لاقيته فى جوار الدائم الفرد الصمد
ان مصرا لاتنى عن قصدها رغم ما تلقى وان طال الأمد
جئت عنها أحمل البشري الى أول البانين فى هذا البلد
فاسترح واهنا ونم فى غبطة قد بذرت الحب والشعب حصد

ولم يكف شاعرنا هذا البكاء والنواح على أصحابه وخلصائه وانما
حين استبد به الالكى وهو يبكى الاستاذ الامام ويذكر المرحوم حفى ناصف
لم يتمالك أن بكى نفسه وهو يشير الى تلك الارهاصات التى تلازم الشعراء
ذلك أنه اشترك فى رثاء الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مع نخبة من
الادباء والشعراء وكانوا ستة على الترتيب :

الشيخ احمد ابو خطوة ثم حسن عاصم باشا ، ثم حسن عبد الرازق
ثم قاسم أمين ، ثم حفى ناصف ، ثم حافظ ابراهيم . واتفق ان مات
الأربعة الأولون على ترتيب وقوفهم فى الرثاء واذا فطن الى ذلك المرحوم
حفى ناصف بعث الى حافظ بالأبيات الآتية :

أتذكر اذ كنا على القبر ستة نعد آثار الامام ونسب

وقفنا بترتيب وقد دب بيننا
أبر خطوة ولي وقفاه عاصم
فلبى وغابت بعده شمس قاسم
فلا تخش هلكا ما حييت وإن أمت
فخاطر وقع تحت القطار ولا تخف
وخض لجج اللهيجاء أعزل آمنة
معات على وفق الرثاء مرتب
وجاء لعبد الرازق الموت يطلب
وعما قليل نجم محياى يغرب
فما أنت الا خائف تترقب
ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب
فان المنايا عنك تنسأى وتهرب

يذكر هذا شاعرنا فيضمن بكاه الاستاذ الامام فى ذكره رثاء المرحوم
حفنى ناصف فيقول :

قد وقفنا ستة نبكى على
وقف الخمسة قبلى فمضوا
وردوا الحوض تباعا فقضوا
انا منذ بانوا وولى عهدهم
هدأت نيران حزنى هداة
عالم المشرق فى يوم عصيب
هكذا قبلى ، وائى عن قريب
باتفاق فى منايا هم عجيب
حاضر الاوعة موصول النحيب
وانطوى حفنى فعادت للشبوب

اما بكاؤه اسماعيل صبرى فقد رثاه بمطولة من عيون شعره
استهلها بقوله :

نعاك النعاة وحم القدر
اذا ذكرت سير النابيين
ولم يفن عنا وعنك الحذر
فسرة (صبرى) تجب السير
ويصف شعره :

وشعرك كالماء فى صفوه
عيون القصائد مثل العيون
على صفحتيه تراءى الصبور
وشعرك فيهن مثل الحور

أما سعد زغلول فينشده فى حفل تأبينه قصيدته التى مطلعها :
يا ليل هل شهدت المصابا كيف يتصب فى النفوس انصبا
وفىها يقول :

أين (سعد) ؟ فذاك أول حفل
لم يعود جنوده يوم خطب
انها النكبة التى كنت أخشى
انها اللفظة التى تنسف آلا
غاب عن صدره وعاف الخطا
من ينادى فلا يرد الجوابا
انها الساعة التى كنت أبى
نفس نسفا وتفقر الاصلابا

ومنها يقول :

خرجت أمة تشيع نعشها قد حوى أمة وبعرا عباها
حملوه على المدافع لها أعجز الهام حمله والرقابا
ويشير حافظ في رثاء الزعيم سعد زغلول الى النعى الذى ساقته
« التيمس » حين وافاه الأجل بقوله :

سأقت (التيمس) العزاء الينا
وتوخت فى مدحك الاسـها
واعتراف (التاميز) يا (سعد)
معياس لما نال نيلها وأصابا

ثم يعدد مناقبه :

يا كبير الفؤاد والنفس والآ مال أين اعتزمت عنا الذهابا
كيف ننسى مواقفك فىنا كنت فيها المهيب لا الهياها ؟
كنت فى ميعة الشباب حساما زاد صقلا فرنده حين شابا
ولله دزه وهو يبكيه بما هو أهل له :
جزع الشرق كله لعظيم ملاً الشرق كله اعجابا
جمع الحق كله فى كتاب واستثار الاسود غابا فغابا
ومشى يحمل اللواء الى الحق ويتلو فى الناس ذاك الكتابا
أى مكر يدق عن ذهن سعد أى ختل يريغ منه اضطرابا
عجزت حيلة الشباك وكان الشرق للصيد مغنا مستطابا
كلما أحكموا بأرضك فخا من فخاخ الدهاء خابوا وخابا
أو أطاروا الحمام يوما لزجل قابلوا منك فى السماء عقابا
قد بلوناك قاضيا ووزيرا ورئيسا ومدرها خلابا
فوجدناك من جميع نواحـ سيك عظيمنا موفقا غلابا
ويرثى (باحثة البادية) وهى السيدة ملك ناصف بنت المرخوم
حفنى ناصف :

ملك النهى لا تبعدى فالخلق فى الدنيا سير
انى أرى لك سيرة كالروض أرجه الزهر
وفيه يقول :

لا كان يومك يوم لا ح الحزن مختلف الصور

علمت هاتفة القصـــو ر نواح هاتفة الشجر
وتركت أتراب الصبا حزنا يقطعن الشعر

ويعلل شدة حزنه وجزعه بما لمسه من جزع أبيها وفزعه :

أنا لم أذق فقد البنــــ
لكننى لــــ رأيت
ورأيته قد كاد يحــــ
وشهدته أنى خطا
أدركت معنى الحزن حز
يا بــــرة بالــــوالد
بين ولا البنات على الكبر
فؤاده وقد انفطر
سرق زائيره اذا زفر
خطوا تخيل أو عثر
ن الوالدين ، فما أمر.
ين أبوك بمدك لا يقر

وفى هذه النماذج التى اقتطفناها من شعر حافظ فى رثائه أصدقاءه
وأخوانه فى النضال ما يضىء الطريق أمام المتأمل ، وهى فى سهولتها
وجزالتها ووضوح مراميها ومعانيها غنية عن التعليق ، فكلها تنضح بالحب
والوفاء وترديد جلائل الأعمال وحسن الوفاء فى جميل العزاء .

فاذا عرضنا قليلا من نماذج وفائه للأحياء من صحابته وهو يبعث
اليهم بالتحية ، أو ينشدهم مكرما إياهم فى مناسبات التكريم فما أروع
ما يتصيد الشاعر من فريد المعانى فى صوغه لهذا النوع من القريض
الخالد وما أمتع ما يزجيه للقلب والعقل معا من أسلوب رائع يضم المعنى
البكر .

ان الخيال الرائق حين يتصيد المعنى العذب فى الأسلوب البديع
ليشجى صاحب الفكرة المتأمل ، يقول حافظ فى معرض مدحه أستاذ
القريض محمود سامى البارودى عام ١٩٠٠ م :

كلانا له عذر فعذرى شبيبتي وعذرك انى هجت سيفا مجردا
هويننا فما هنا كما هان غيرنا ولكننا زدنا مع الحب سؤددا
وما حكمت أشواقنا فى نفوسنا بأيسر من حكم السماحة والندى
نفوس لها بين الجنوب منازل بناها التقى واختارها الحب معبدا .

وهو شعر رفيع ينطق بالحكمة ويضم جوهر المعانى وأبكار الفن
الشعرى الأصيل . انه يناجى شاعرا فحلا من شعراء العربية بل أستاذ
الشعراء فلا عجب اذا ارتفع فى التعبير :

ورحت الى حيث المنى تبسعت المنى
وحيث حداً بى من هوى النفس ماحداً

ولا بدع أن يفتن فى إبراز قلدته وحسن تودده :
كذلك لم أذكرك والخطب يلتقى
به الخطب الا كان ذكرك مسعداً

فهو شديد الوفاء بعيد الترسل فى المدح والتعبير بخياله الذى
يلابس أحاسيسه أشد ملابسة ، ويدفق من خوالج نفسه وهوائف شعوره
عن إخلاصه وحبه وعميق ولائه لمن يمدحه من محبيه .
ذلك شأنه وهو يذكر الاستاذ الامام بقوله :

كان فؤادى ابرة قد تمغطت
بحبك أنى حرقت عنك تعطف
كان يراعى فى مديحك ساجد
مدامعه من خشية الله تذرف

الى أن يقول وهو يطوع قلبه وقلمه لهذا المدح البعيد فينتزع منه
صورة جديدة ليكون داعية للإصلاح ونذيراً بهفى تنديده بالبدع المستهجنة
امام الهدى! انى أرى القوم أبدعوا لهم بدعا عنها الشريعة تعزف
راوا فى قبور الميتين حياتهم فقاموا الى تلك القبور وطوفوا
وباتوا عليها جاثمين كأنهم على صنم للجاهلية عكف
فاشرق على تلك النفوس لعلها ترق اذا أشرفت فيها وتلطف
فأنت بهم كالشمس بالبحر انها ترد الأجاج الملح عذبا فيرشف
له كل يوم فى رضى الله موقف وفى ساحة الاحسان والبر موقف
وهو الشاعر الذى لا يذهب بدداً خياله فى ترجيع هذا اللحن على نفس
الوتر ، وفى مدحه للاستاذ الامام :

يا أمينسا على الحقيقة والافتا ، والشرع والهدى والسكتاب
أنت نعسم الامام فى موطن الرأى ، ونعم الامام فى المحراب
خشع البحر اذ ركبت جوارى به خشوع القلوب يوم الحساب
وبدا مياؤه كخاطرك المصق سول أو كالفرند أو كالسراب
يتجلى كأنه صـحف الأبـرار منشورة بيوم المساب

فهي تسرى كأنها دعوة المضـ سطر في مسبح الدعاء المجاب
وسرى البرق للجزائر بالبشـ سرى بقرب المطهر الاواب
ثم ينتفض الشاعر الى ما استوعبته نفسه من كقران مصر بالأعلام من
بنيها ، ويودع شعره ما استكن في خاطره عنها :

ليت مصرأ كغيرها تعرف الفضـ ل لذي الفضل من ذوى الالباب
ولله در الشاعر الذي سخره القدر للدفاع عن حوزة الشيخ الامام بما

هو اهل له ، وكأن قدر الله اختاره سيفاً مصلتا يجرى على رقاب منافقيه
ومعانديه ، وجاحدى فضله ، ولو قد قدر للامام أن يعيش الى ما بعد عهد
حافظ لوقف على صدى هذا الوفاء الذي يتجسد ويخلد في ديوانه، ويحدث
العصور بمكانته ، وبما أضفاه عليه من حمد ، وما أسبغه من تكريم وان
كانت للامام منزلته في القلوب وذكراه العاطرة في النفوس .

أن صوروك فانما قد صوروا تاج الفخار ومطلع الأنوار
أو نقصوك فانما قد نقصوا دين النبي محمد المختار
لن يحجبوك عن الورى أو يحجبوا فلق الصباح ومشرق الأعمار
سخروا من الفضل الذي قد أوتيته والله يسخر منهم في النار

وهو يربط على قلب سعد اذ يناصحه وهو يفاوض المستعمر :

فاوض ولا تخفض جناحك ذلة ان العدو سلاحه مفلول
فاوض فخلفك أمة قد أقسمت ألا تنام وفي البلاد دخيـل
عزل ولكن في الجهاد ضراغم لا الجيش يفرعها ولا الأسطول
ولعل شاعرنا لم يكن متشبها من أن العدو المستعمر لا يمكن أن تفعل
به الا السنان والقوة والمنافحة ، فهو حسن الظن بوسائل السلم الآنفـة
التي ما كانت لتتنفع مع هؤلاء الثعالب فيناصح المفاوض المصرى بقوله :

اسطولنا الحق الصراح وجيشنا الجـ سج' الفصاح وحربنا التدليل
ولكنه وهو يعلم ألا سلاح لبنى وطنه الا هذا السلاح ، سلاح الحق
المائل يؤكده ويؤيده ويستنصر به :

خضها هنالك باليقين مدرعا والله بالنصر المبين كفيـل
وممارسة الشاعر لاساليب المستعمر تمنحه الفرصة والقدرة على
كشف الاعييبهم وأحاييلهم :

لا تقرب التاميز واحذر ورده مهما بدا لك أنه معسول
الكيد ممزوج بأصفى مائة والحتل فيه مذوب مصقول

القوم قد ملكوا عنان زمامهم ولهم روايات به وفصول
ولهم احاييل اذا القوا بها قنصوا النهى فاسيرهم مخبول
فاحذر سياستهم وكن فى يقظة سعاديه ان السياسة غول
ان مثلوا قدح الخيال فانما عند الحقيقة يسقط التمثيل
ولكل لفظ فى المعاجم عندهم معنى يقال بانه معقول
جمعوا عقاير الدهاء وركبوا ما ركبوه وعندك التحليل
فادفع وناضل عن مطالب أمة يا سعد أنت أمامها مسئول

وليت الشاعر عاش على عهدنا ليرى كيف تكون معاملة المستعمر وما
هى أجدى الوسائل وأليقها به ، ويقف على ماوقفنا به من عزة ومنعة وما
الحقناه بذلك المستعمر من هوان وذلة .

لعل روحه الطاهر فى بحبوحة الخلد ينعم بما كان يلد لخياله أن
يتشبهاه حيا من باوغ وطنه مآربه على يد أبطال نهضتنا الذين استطاعوا
أن يحققوا لوطننا أعز آمانيه .

ورحم الله حافظا وهو لايزال يردد :

فاوض فان اوجزت شرا فاعتزم واقطع فحبلك بالهدى موصول
لاارجع اليها بالكرامة كاسيا وعليك من زهراتها اكليـل
وحسبه أنه يدعو لعمل ما وسعته أمته من قدرة على العمل فى منافحة
الغاصب ومجاهدته للخلاص مستعينا بالله وهو نعم المعين .

انا سـنـعـمـل للخلاص ولاننى والله يقضى بيننا ويديل
فهو مؤمن بآياته وسنته فى الأولين :

كم دولة شهد الصباح جلالها وأتى عليها الليل وهى فلول
وقصور قوم زاهرات فى الدجى طلعت عليها الشمس وهى طولول

ثم يخاطب ناشئة البلاد المجاهدة :

يايها النشء السكرام تحية كالروض قد خطرت عليه قبول
يازهر مصر وزينها وحماها مدحى لكم بعد الرئيس فضول
جدتم لها بالنفس فى ورد الصبا والورد لم ينظر اليه ذبول
كم من سجين دونها ومجاهد دمه على عرصاتها مطلول
سيروا على منن الرئيس وحققوا أمل البلاد فكلكم مأمول
انتم رجال غد وقد أوفى غد فاستقبلوه وحجـلوه ، وطولوا

اهلا بنابتة البلاد ..

اهلا بنابتة البلاد ومرحبيا جددتم العهد الذى قد اخلقنا
لا تيأسوا أن تستردوا مجدكم فلرب مغلوب هوى ثم ارتقى
مدت له الآمال من أفلاكها خيط الرجاء الى العلا فتسلقا
فتجشموا للمجد كل عزيمة انى رأيت المجد صعب المرتقى
من رام وصل الشمس حاكخيوطها سسبيا الى آملها وتعلقنا
حافظ ابراهيم

ديوان حافظ

ومن الوفاء للأوفياء ، أن نذكر ببالغ التقدير تلك المشاعر النبيلة التي حدث نفرا من ذوى الراى والتوجيه الى اخراج ديوان حافظ .

ولم يكن اخراج هذا الديوان من حيث اختيار وقته رهن المصادفة البحت وانما جاء مع الزمن على ميعاد ، ومع الأحداث على تقدير . فبصر الشعب بأمره ، وحكمة الأدباء الأعلام ، وتقدير المسئولين كل ذلك قد التقى عند الحاجة الملحة والدعوة لاجراج هذا الديوان ، وكانت المناسبة التي اختير لها مناسبة وطنية جلييلة هي الاحتفال بذكرى الشاعر .

يحدثنا الاستاذ احمد أمين عن ظروف جمع ديوان حافظ ابراهيم واخرجه بقوله :

راى على زكى العربى . . وزير المعارف العمومية حبا منه فى الادب ، وتقديرا لحق الوطن أن يجمع شعر حافظ ، وتقوم على طبعه وزارة المعارف ، وكان من حظى أن ندبني للقيام بهذا العمل ، ففضل وطلب الى جمع شعره وضبطه وشرحه ، وكان من حظى أن شاركنى فى هذا العمل الاستاذان احمد الزين ، وابراهيم الابيارى .

وبهذا تقوم مصر حكومة وهيئات بواجب التكريم لشاعرها ، فترعى تراثه ، وتحفظ لها حق الوفاء والتقدير .

واذا كان لهؤلاء السادة الأجلاء من فضل فى جمع الديوان ، واحتمال الجهد والعنت فى سبيل تقديم متعة فنية ، وطرفة أدبية لأبناء هذا الجيل ، فإن مصر بهذا العمل العظيم قد قدمت للشباب ، وللأجيال القادمة تاريخا لجهاد مصر فى سبيل حريتها . بتلك المشاعر ، والأضواء التي سطعت فى سماء العروبة والشرق وان جذوتها لمشبوبة مستعرة فى قلوب الأحرار ، لاتخبو ، ولا تخمد أبدا .

فمدرسة حافظ أروع مدرسة فى العصر الحديث ترسم بها مصر ان شاءت منهجا لبعث الشباب ، وتربية روح الوطنية، فهو غذاء الأرواح تغتلت عليه الأمم ، تتخذ منه السنن الواضحة التي ترشد الى سواء السبيل .

دين الحرية

ذلك هو دين محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء به للناس ، يدعوهم الى الحق ويرشدهم الى الهدى وينير امامهم الطريق .

يدعوهم الى عبادة الله وحده ، وأن يمسكوا بكتابه ، ويسيروا على الصراط المستقيم وينهاهم عن الضلالة ، والزيغ ، والذلة لغير الخالق الذي فطرهم وأسبغ عليهم نعمته .

أرسلني سيد الخلق مبادئ الدين بالكتاب والسنة ، ونبه صحابته رضوان الله عليهم الى مواقف العزة والكرامة ، وضرب لهم أروع الامثال في حياته الكريمة مرشداً وهادياً ، وداعياً الى الله ورسوله .

وكان صلى الله عليه وسلم ، يرى القربة لله ولرسوله في فك الرقاب ، وتحرير البشرية من طغيان المادة وسيطرة الشهوات ، وتسليط النزوات .

وبالتوحيد أرشد الى ان الحرية أساس الدين ، فلا تعبد لغير الله قهار السموات والارض . وأرشد في التعبد لله أنه حرية مطلقة ، اذ أن عبادة الخالق سبحانه ، أداء حق الوفاء والشكر للرب الرحيم .

ذلكم الله وبكم فاعبدوه ، (اياك نعبد ، واياك نستعين) ، (الا تعبدوا الا الله) ، (يريد الله ليظهركم) .

لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى - كلکم لآدم ، وآدم من تراب - ان اکرمکم عند الله اتقاکم .

سنن كونية عليا ، جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ، لينبه النفس الضالة الى حقوقها في الحياة وينبه الى أن الله سبحانه وتعالى ، انما منحها الحياة ، لتعيش عزيزة كريمة ، فلا يتسلط عليها مستعبد باسم الدين ، أو باسم الدنيا ، فالدين لله ، والدنيا سعى وعمل وكدح وجهاد .

وبهذا كانت هذه الدعوة بمثابة : ميثاق السلام ، ونداء التحرير ، اذن به في الناس رسول رب العالمين .

ومن عهد آدم الى نبوة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ، على تقادم الرسالات وتواكب العصور ، كانت هذه الحقيقة تسير مع الفطرة ، اله واحد ، ورسول هاد ، وأمة واحدة .

يدعو الرسول الانسان الى عبادة الله ، والتحرر من قيود الشيطان وعبوديته ، ثم الاخذ من الحياة بحقه أبياً كريماً .

وقد شدد الدين في التوصية والتحذير ، بالأنا ينزل الانسان عن حقه

فى هذه الحرية التى منحها الله اياه ، وأوضح أن الكفر والضلال والانحراف
ان هى الا قيود الحرية والأغلال التى يصنعها الشيطان فى عنق البشرية •
وأرشد الدين الى أن هذه الحرية مطلقة ، فهى دين الله وشرعته فى
الدنيا والآخرة •

وآية هذه الحرية تلك النعم التى أسبقها الله سبحانه وتعالى على عباده
وأفاض منها على الانسان فيضاً زائداً « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها »
منح كريمة سابغة ، ومنن جلية فاخرة ، وحياة رحة ، فى أرض واسعة
وأجواء محلقة ترتد عن مداها العقول والافهام •

وخلق الله العقل فكراً حراً منطلقاً ، ومنح الحرية فى التفكير والتدبر
والتأمل فى مشاهد هذا الخلق ، والسبح فى آفاق السموات والأرض
والغوص وراء المكنون من النفائس والدخائر من منح الخالق ، ومواهبه
وهى لاتعد ، ولا تحصى • وأرشد الله سبحانه الى أن آلهدى هدى الله ، وأنه
سبحانه مدبر الأمر — نور السموات والأرض ، والرزاق ذو القوة المتين ،
ولم يكن هذا تهديداً أو وعيداً ، وإنما جاء تذكرة وتبصيراً •

تذكرة بحق الرب على من وهبهم الحياة ، وذكرى الا يتسلط عليهم
الغرور :

ذلك الشيطان ، بحبائله، ونزعاته فى استعبادهم ، واذلالهم وتشكيكه
فى قيمة هذه النعمة الظاهرة والباطنة ، التى يتعلق بها الهدى والرشاد
لهم والسعادة فى الدنيا والآخرة •

الهكم اله واحد ، ذلكم الذى يحفظ عليكم حريتكم فى الحياة ، وقد
رسم لكم السبيل وأضحة لهذه الحرية ، ومنحكم القوى الجسمانية والفكرية
والروحية ، وهب لها بنوره القدرة على التمييز ، والتذوق (لئلا يكون للناس
على الله حجة) •

ثم هو بعد مثيبيكم على استمساكم بهذه الحرية ، فهى نعمة وهبها
لكم ولا يرضى لعباده أن ينزلوا عنها لغرور مضل، يهوى بهم فى قرار سحيق
ومن رحمة الله ، أن يبشرنا ويوقظنا ، وينبه الغافل منا الى أن هذه
النعمة موصولة وانها مستمرة الى أبد الأبدان وان للانسان حياتين دنيوية ،
وأخروية ، يستمتع فيهما بسمو هذه المنحة ، فاذا ما فرط فيها فى دنياه
وسلبها بختال مغرور مضلل ، محتال وافق هواه ، فهى مسلوبة منه فى
الآخرة ، بل معذب بها ، ومؤخذ بجرم تفريطه فيها •

حق أقدم ، ونعمة جزيلة ، تفضل المنعم بها على عباده بأن وهبهم
اياها ، وأرشدهم بالعبادات وطهرهم ، ليزع عنهم كيد الشيطان ودعاهم بأن
يعيشوا بهذه النعمة أمة واحدة فى سعادة وهناءة ومن فضل الله سبحانه
أن يدخر الجزاء الأوفى للمستشعدين فى سبيل حريتهم والدفاع عن كرامتهم
فلا يفرطوا فيها • ووعدهم الوعد الصادق بأن يجزل لهم العطاء ، وبشرهم
بأن لهم الدرجات العلا •

ذلك فضل الله ، فى منح البشرية هذه الهداية ، رحمة ونورا للعالمين ولم تكن العبودية للنفس البشرية فقط ، وانما جاءت فى صور شتى وعلى أنماط . .

فاستعباد الانسان فى سلبه حقوقه ، والتسلط على مقومات حياته وعزته واستعباد الشعوب فى سلبها حريتها ، وحقوقها ، والتسلط على مقوماتها وما يتصل بأسباب نهضتها .

والعبودية التى تقابل الحرية ، تفسر فى عصرنا هذا بمعنى الاستعمار بل أن الاستعمار ضرب من أفانين العبودية . تلك التى تنشب أنيابها فى الشعوب الحرة بأشكال شتى وصور مختلفة ، وتلتقى جميعا عند سلب الانسان حقه ، أذلاله واستعباده . .

خير أمة أخرجت للناس

واذا كان مانح هذه الحرية ، وهو الله سبحانه وتعالى يخاطب فينا مشاعر العزة والكرامة فيؤذن فينا بأنا خير أمة أخرجت للناس ، فكيف نرضى بحياة الهون والذلة ، لننتكس ونرتكس ، وإذا الله سبحانه ، قد أوجدنا فى هذ البقعة المباركة من الأرض الغنية بخيراتها وبركاتها .
والتي تمتاز بموقعها وجوها وما أفاض الله فيها من متن يكشف عنها الزمان جيلا بعد جيل ، ويؤكد لنا فيها ذلك الكشف كل يوم بأن مدخور الحياة الحرة الكريمة فى هذه الامة وأن مقومات العزة والسعادة فيها ، وأن وسائل النصر والمتعة والغلبة فى أرباضها .

كيف بعد ذلك نغضى عن هذه المكانة الرفيعة التى جباننا الله اياها ؟
كيف نترك هذا المنزل الكريم . . ونانس بحياة الدعة والضراعة فى ظل قوام يجوب أرضنا فيقف على ما فيها من مقومات السيادة وثم ينصب شراكه ، ثم يسلبنا هذا الطماح .

ومن عهد الفراعنة الى عهدنا هذا ، وتاريخ هذا الوطن يسجل تلك المشاهد التى كشف عنها هذا التاريخ الطويل ، فالشرق حصن التاريخ .

واذا كانت مصر ، على عهد الفراعنة ، وعلى أيام الفرس ، والرومان والعصور الوسطى والعثمانيين ، وفى ظل الحملة الفرنسية . مطمع الغزاة والفاحين لمكانتها تلك من خريطة الوجود .

واذا كان الشرق بصفة عامة هو الهدف الاول للاستغلال الغرب وسيطرته وما تعرضت بسببه مصر الى احتلال الانجليز بلادنا أكثر من سبعين عاما وهم يماكروننا طوال هذه المدة بالوعود أثر الوعود للجلاء ، ولا يصدقون فى وعد واحد منها ، اذا كان ذلك بسبب شئ فهو بسبب هذه النعم التى اختص الله بها هذه المنطقة المباركة ، وموقعها بين العالم .

ولقد تعرضت بلادنا فى الحقبة الاخيرة من تاريخنا الى هذا الخطر

الداهم ، وهو الاستعمار ولقد شب النزاع بين دول العالم بسبب امتياز موقع هذه البلاد . ورغبة كل دولة فى السيطرة علينا ليكون الشرق كالبقرة الحلوب .

فهذه فرنسا تسيطر على مصر بعد الحملة الفرنسية التى وجهتها فى الحقيقة الى تهديد مصالح بريطانيا فى الشرق ، اذ يمكن لها تقويض نفوذها فى الهند والتحكم فى التجارة بين الشرق والغرب عن طريق القناة وتعود بريطانيا فتفطن الى الخطر الدايم الفرنسى فأمكنها بعد دحر الاسطول الفرنسى فى أبى قير ، استعادة مركزها فى الشرق ، ثم كرست جهودها لطرد الفرنسيين من مصر عام ١٨٠١ لتحل محلها فى التسلط على منطقة الشرق الاوسط .

وبتسلط هذه الدولة علينا وقعنا فى مخالب ذئب مخادع ، يضرب بعضنا ببعض ويخلق الأجواء المناسبة لبث الفرقة . والخلافات بين عناصر الشعب وذلك ليستطيع أن يعيش فى ظلال هذا الخلاف ويبتز من ثرواتنا ما يمكن له بين الشعوب من سيطرة وحياة .

وتطور الموقف الدولى فى أثناء الحرب العالمية وبعدها التى اندلعت شرارتها فى البلقان . وخرجت بريطانيا من هذه الحرب وهى تعض بالنواجذ على مصر ، لما لها من موقع دولى ممتاز ، وللأهمية التى لمستها من تسلطها على القناة .

وفى غمار الحرب الثانية ظلت بريطانيا جاثمة على صدر هذا الوطن تمتص منه الحياة وتعد لنفسها ولجيشها منه الذخيرة ، والمدد وتنكل بشبابه وشعبه على الطريقة التى رسمتها فى سياستها .

وبرز الوعى القومى ، وهبت مصر تجاليد المستعمر وتنافحه ، وتاريخ الاستعمار اليوم ، وبعد أن قامت الثورة بضربتها القاضية على هذه الدولة المخاتلة فأطاحت بمقومات الفساد ، وانتزعت جراثيم الشر ، وهيات لمصر عيشا رغدا وحياة عزيزة فى ظل الحرية والكرامة ، تاريخ الاستعمار اليوم ليس فى حاجة الى أن تقصر عنه الفصول الضافية . فى هذا البحث لنكشف لأبنائنا وللتاريخ عنه . وتاريخ الانجليز فى مصر يمتد الى سبعين عاما قضيناها فى بطولة وكفاح واستشهاد .

ودور شاعرنا فى هذه الحقبة الهامة من تاريخ التحرير الوطنى . . دور الباعث الروحى والموجه للشباب الثائر ، فى الاستمساك بالحرية والزود عنها ومناهضة المستعمر ، وحسبه أنه كان يذكى نار الحماس فى شبيبة مصر والشعب العربى ، فى كل حادثة يرى فيها للمستعمر تسلطا ، وسلبا ، وطغيانا ، وقنصا لحق هذا الشعب المهيض .

واذا كان شاعرنا (حافظ ابراهيم) قد تجاوب مع وطنه فى تلك العصور الخوالى فأدى واجبه كاملا كمواطن كريم وهب الله له ذلك السلاح فسله وشهره فى وجه الغاصب وظل يخوض به ميدان السياسة والادب والحرية ، طوال حياته ، فهو انما كان يأخذ بمذهب العزة والقومية التى نادى بهما شاعريته وموهبته .

كان على عهده وطنيون من الشعراء وغيرهم من أصحاب الملوك
والمواهب وقد أدى كل منهم واجبه . غير أن هذا السيف البتار كان شديد
البأس قوى المراس ، وكانت شعلته شواظا من نار يرسله ارسالا على عدو
الوطن وهو يهتف :

إذا نطقت فقاع السجن متكئا وإن سكت فإن النفس لم تطب
فهذه العزة والكرامة فى نفسه تأبى المذلة لوطنه ثم تأبى عليه أن يقف
من عدوه وعدو بلاده موقف الخنوع والاستسلام .

ولقد ظل الشعر العربى وعاش من عهده الاول يخوض غمار المعارك
الحربية والسياسة والوطنية بجانب مسيرة الحياة الالهية .

فاذا وقفنا بقمة تاريخ الشعر العربى على عهد امرئ القيس وأضرابه
من الفحول وجلونا للقارىء الكريم صفحة مشرقة لحياة الشعراء وتجاوبهم
مع العصور التى عاشوا بها ومشاركتهم فى شئون الحياة والسياسة
والاجتماع

بدانا بهذا الشعور الجياش الذى انبثق من عواطف النفس .

ذلك قول امرئ القيس وهو فى طريقه الى قيصر ليستعديه على الاخذ
بثار أبيه واسترداد ملكه :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقــــــــــــــــان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكا أو نموت فنعدرا
بل استمع معى الى شعر خالد على الدهر ، انها نفحة لاتزيدنا الايام
الا جدة وقوة انه عنتره ينشد شعر العزة والخلود :

ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هربا ولا مستسلم
سبقت يداى له بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
وكان الكميت شاعر الشيعة فى القرن الاول يحتج للعلويين على بنى
أمية الذين أخذوا الخلافة لأنفسهم :

يقولون لم يورث، ولولا تراثه لقد شركت فيه بكيل وأرحب
ولانتشلت عضوين منها يحابر وكان لعبد القيس عضو مؤرب
فإن هم لم تصلح لى سواهم إذا ، فذوو القربى أحق وأقرب
فهو يعدل على منهجه وحججه : لو لم يورث النبى صلى الله عليه
وسلم . لشاعت الخلافة حقا للقبائل العربية جميعا . وهو رأى قد ينقضه
رأى غيره .

ويحتج (عبيد الله بن قيس الرقيات) لقريش ، فى قوله :
 حبذا العيش حين قومي جميع لم تفروق أمورها الأهواء
 قبل أن تطمع القبائل فى ملك قريش وتشمت الأعداء
 أيها المشتبه فنساء قريش بيد الله عمرها والفناء
 ومنزلة الشاعر من أمته منزلة القيادة والريادة ، فهو على تقادم العهود
 عزتها وكرامتها ، وسيفها الذى لا يفل ، ولا يستنيم وشخصية الأمة فى
 شخصية شاعرها . فهو يحتاج لها ويثور معها وينافح باسمها . ويفخر
 بأمجادها . ويرمى عن حوزتها .

ولله در ليبيد بن ربيعة العمرى وهو ينشد :

انا اذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عظيمة جسامها
 ومقسم يعطى العشيرة حقها ومغذمر لحقوقها هضامها
 فضلا ، وذو كرم يعين على الندى سمح كسوب زغائب غنامها
 من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وامامها
 فهو يصف قومه بالنجدة ويعتز بقبيلته .

ولقيس بن الحطيم الأوسى :

ويوم بعثت أسلمتنا سيوفنا الى نسب فى جسم غسان ثاقب
 فهلا لدى الحرب العوان صبرتم لوقعتنا والبأس صعب المراكب
 ويرد عليه عبد الله بن رواحه بقوله :

نحامي على أحسابنا بتسلادنا لمفتقر أو سائل الحق راغب

وفى يوم الربيع وهو من أيام العرب ينشد حسان :

ونحن الفوارس يوم الربيع اذا التبس الأمر ميزانها
 فيجيبه قيس بن الحطيم :

ويثرب تعلم أنابها قد علموا كيف فرسانها
 وفى ظل الراية الاسلامية ، وقومية العروبة فى مجدها ينشدنا عروة
 ابن زيد :

صبرت لأهل القادسية معلما ومثلى إذا لم يصبر القرن يصبر
 فطاعتهم بالرمح حتى تبعدوا وضاربتهم بالسيف حتى تكرر
 حمدت الهى اذ هدانى لدينه فله أسعى ما حييت وأشكر

وينشد قيس بن زهير :

جلبت الخيل من صنعاء تردى . بكل مدجج كالليث حامي
الى وادى القرى بسديار كلب الى اليرموك فالبلد الشامي
فأبنا القادسية بعد شهر مسومة دوابرها دوامي
فناهضنا هناك جموع كسرى وأبناء المرازبة العظام
ولزياد بن حنظلة فى الغزوات الاسلامية على عهد عمر بن الخطاب رضى
الله عنه .

تذكرت حرب الروم لما تناولت واذا نحن فى عام كثير نرائله
واذا نحن فى أرض الحجاز وبيننا مسيرة شهر بينهم بلبله
واذا أرطبون الروم يحتمى بلاده يجاوله قرم هناك يصاوله
ولعتبه بن أبى سفيان ، وقد نزل بمعاوية ، وأنشده الأبيات الآتية
يحسن له استمالة عمرو بن العاص معه على أن يمنحه ولاية مصر .

أيها المانع سيفاً لم يهز انما ملت على خـز وقز
ان مصرا لعللى أو لنـا يغلب اليوم عليها من عجز
واذا كان الاحرار يهتفون بالشعر دفاعا ، وذودا ، وحمية واستشارة
فما بالك بالموالى اذا اهتمهم القريض ، فأنشدوا دفاعا عن الشرف والحرية
ذلك بشار بن برد ، يقول له أعرابى ما للموالى وللشعر ؟ فتأخذه الأنفة ،
وينشد :

تفاخر يابن راعيـة وراع بنى الاحرار حسبك من خسار
وللوليد بن عتبة فى عثمان بعد أن قتل ، وقد علم أن عليا بعد مقتل
عثمان أرسل فأخذ ما كان فى داره من سلاح .

بنى هاشم ردوا سلاح بن اختكم ولا تنهبوه ، لا تحل مناهبه
وأنا خبرناكم ، وما كان منكم كصدع الصفا لا يرأب الصدع شاعبه
هم قتلوه كى يكونوا مكانه كما غدرت يوما بكسرى مرازبه
وانى لمجتاب اليكم بجحفـل يصم السميع جرسه وجلائبه
وفى تولية يزيد بن معاوية ، حيث يأخذ له معاوية بالبيعة فى حياته
يقول الدارمى الشاعر :

اذا المنبر الغربى خـلاه ربه فان أمير المؤمنين يزيد !
ولاعشى ربيعة الشاعر الاسلامى وهو يتعصب لبنى أمية ويمدح عبد
الملك بقوله :

وما أنا فى أمرى ، ولا فى خصومتى
وقضلتنى فى الشعر واللب أننى
فأصبحت اذ فضلت مروان وابنه
وللفرزدق :

ومنا الذى سل السيوف وشامها
عشية لم تمنع بنيتها قبيلة
ولجرير يفخر بمصريته ، وعروبتة :

ان الذى حرم المكارم تغلبا
هل تملكون من المشاعر مشعرا
مصر أبى وأبو الملوك فهل لكم
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة
وحيث نسوق شواهد جرير لانقض من شعر الفرزدق فى هذا الباب .
اذا لاقى بنو مروان سـلـوا
ويعمدح الوليد :

أما الوليد فان الله أورثه
خلافة لم تكن غصبا مشورتها
هذا هو الشعر العربى . نشيد متواصل ، وقصيد متدفق فى شئون
القبيلة ، والدولة ، والجماعة ، رسالة صادقة معبرة ، وصحيفة ناصعة واعية
فاذا عرضنا لشاعرنا حافظ إبراهيم وأشرنا الى أنه اتخذ مكانه المرموق من
اعزاز القومية العربية والاشادة بمجد وطنه والوقوف الى جواره فى أزماته
ومتابعة العدو، ومصاولته، بالقدر الذى كان يتيسر له، اذا عرضنا لشاعرنا
هذا ، وأوضحنا فنا من لسانه فى القول ومكانته من الجهاد فاننا نقدم للأدب
وللعروبة ، وللشباب صفحة حافلة من صفحات التاريخ سطر فيها هذا
الشاعر لوطنه كل اعزاز واكبار ، وأبان عن عنصره ، وكشف عن نفسه وعن
حقيقته بما يخلده أمام التاريخ ويجعلنا نهتف به فى كل عصر ، بأنه شاعر
الوطنية العملاق . بل انه لشاعر القومية العربية .



۱۵۷ شارع عبید - روض الفرج

تلیفون | ۴۰۷۵۳ - ۴۱۰۱۲
۴۰۵۸۸ - ۴۰۸۱۴

منتدی سور الاز بکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET